محمد سلماوي

في حضرة نجيب محفوظ

#27

7.10.2018

الدار المصرية اللبنانية

باولو كويللو- نادين جورديمر- أحمد زويل- إريك إيمانويل شميث- محمد حسنين هيكل-
ماريو بارجاس يوسا - كلود سيمون- آرثر ميللر- روبير سوليه- أورهان باموك وآخرين..

في حضرة نجيب محفوظ

محمد سلماوي

الدار المصرية اللبنانية

في حضرة

نجيب محفوظ

سلماوي ، محمد .

في حضرة نجيب محفوظ / محمد سلماوي

. ــ ط1. ــ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2012.

400 ص ؛ 21 سم

تدمك : 3 - 817 - 724 - 779 - 978

1- المقالات الأدباء العرب - مقالات ومحاضرات

2- المقالات العربية

3- محفوظ ، نجيب محفوظ بن عبد العزيز ، 1911 - 2006

أ ــ العنوان .   928.104

رقم الإيداع : 19701 / 2011

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت ــ القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ــ ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى : صفر 1433 هـ ـ يناير 2012 م

المحتويـــات

***

تقديم:

في حضرة نجيب محفوظ

على مدى 12 عامًا منذ تعرض أديبنا الأكبر نجيب محفوظ لمحاولة الاغتيال الآثمة في أكتوبر عام 1994 ، والتي أعجزت يده اليمنى ، وحتى وفاته في أغسطس عام 2006 ، ظللت ألتقي به في منزله بشكل منتظم كل يوم سبت في تمام الساعة 6 مساء؛ لأجري الحوار الأسبوعي الذي كان ينشر كل يوم خميس بجريدة «الأهرام»، والذي طلب محفوظ من رئاسة تحرير الجريدة أن أجريه معه بدلاً من مقاله الأسبوعي الذي لم يعد قادرًا على كتابته.

ولقد كانت علاقتي بأديبنا الأكبر، والتي بدأت عند التحاقي بـ«الأهرام» عام 1971 ، معروفة في مصر وفي الخارج ، خاصة بعد أن شرفني باختياره لي لأكون ممثله الشخصي في احتفالات نوبل عام 1988 ، واختصني لألقي الخطاب الذي أعده لهذه المناسبة.

لذلك فكثيرًا ما كنت أتلقى طلبات من بعض الشخصيات العربية والأجنبية لمقابلة أديب مصر الكبير، والذي أصبحت زيارته جزءًا من برنامج زيارة كبار الضيوف للقاهرة؛ حيث كانوا يشاهدون الأهرامات وأبا الهول ويزورون نجيب محفوظ، وكان محفوظ يرتاح لقيامي بهذه

المهمة نظرًا لأنه لم يكن له سكرتارية خاصة، وقد كان أصدقاؤه يساعدونه في هذه الأمور، وأذكر في بداية الإعلان عن فوز محفوظ بجائزة نوبل حين بدأت الصحافة وأجهزة الإعلام العالمية تتوافد على مكتبه بـ«الأهرام» أن تطوع الناقد الأدبي فتحي العشري للقيام بهذه المهمة.

أما صبري السيد المعروف لأصدقاء نجيب محفوظ باسم الحاج صبري فكان في السنوات الأخيرة يأتي يوميًا لمنزل الأستاذ؛ كي يقرأ له الصحف في الصباح بعد أن أصبح ضعف بصره يحول دون قراءته لها بنفسه.

وحين بلغ الحاج صبري السن القانونية أبلغته شئون العاملين بـ«الأهرام» أنه سيحال للتقاعد، وقد تحدث إليّ الأستاذ نجيب محفوظ في هذا الأمر الذي فاتحتُ فيه إدارة الجريدة طالبًا مد خدمة صبري السيد أسوة بغيره، تقديرًا لما يقوم به لأديبنا الأكبر الذي تتشرف الجريدة بانتمائه إليها، والتي لم تعين له سكرتارية طوال عمله بها رغم احتياجه الشديد لذلك خاصة بعد حصوله على نوبل 1988، لكن الإدارة لم تستجب وتم إحالة الحاج صبري إلى التقاعد؛ لذلك فقد أوكلت إليه بعض المهام التي يقوم بها لجريدة «الأهرام إبدو» التي كنت أرأس تحريرها تقديرا للمهمة التي كان يقوم بها لمحفوظ ، والتي كنا نقدرها كل التقدير .

وهكذا ظل الحاج صبري يقرأ الصحف كل صباح لنجيب محفوظ ويتولى بعض مراسلاته المحلية، بينما كنت أتولى مراسلاته الدولية ومقابلاته لكبار الشخصيات، ورغم سعادتي بأن أؤدي لأديبنا الأكبر هذا العمل البسيط فقد كان لا يترك مناسبة إلا ويبدي امتنانه لي لقيامي بتلك «المهمة الثقيلة» على حد قوله، والتي لم تكن كذلك على الإطلاق، فكونها لنجيب محفوظ كان يحولها إلى متعة حقيقية، وكان أصدقاء محفوظ

المقربون يعرفون أنه كثيرًا ما كان يلقبني مازحًا بـ«وزير الخارجية»، فإذا قال له أحدهم إن هناك سفيرًا أو صحفيًا أجنبيًا يريد مقابلته قال لهم: شوفوا مع وزير الخارجية!

على أن هذا الوضع كان يسبب لي حرجًا في بعض الأحيان، فقد قلت له ذات مرة- على سبيل المثال-: إن الأمير خالد الفيصل يرغب في زيارته لاستطلاع رأيه في شأن مؤسسة للفكر العربي يريد إنشاءها، فقال لي: إبقى هاته معاك يوم السبت! قلت: لكن الأمير لن يبقى في مصر حتى يوم السبت، فقال: يعني هيقابلني مع الحرافيش؟! فقد كان محفوظ يلتقي بقية أيام الأسبوع مع أصدقائه سواء ممن كان يطلق عليهم شلة الحرافيش أو غيرهم في بقية أيام الأسبوع ببعض الأماكن العامة، أما يوم السبت فكان يبقى بالبيت لأنه كان اليوم المخصص للقائنا.

لقد كان جدول لقاءات محفوظ مرتبًا بدقة مثل بقية حياته، فقد كان يلتقي مساء أيام الآحاد من كل أسبوع بمجموعة من الأصدقاء في فندق «شبرد» تضم: الدكتور محمد الكفراوي وعلي سالم وإبراهيم عبد العزيز وغيرهم، أما جمال الغيطاني ويوسف القعيد وعبد الرحمن الأبنودي وشلتهم، فقد كان يلتقي بهم مساء الثلاثاء في باخرة «فرح بوت» على نيل الجيزة، وكان يوم الجمعة مخصصا للقاء الذي كان يرتبه له الدكتور يحيى الرخاوي مع مجموعات من الشباب من مريديه، أما يوم الخميس فكان للقاء الحرافيش.

وكانت لقاءات محفوظ تتراوح ما بين المقطم وفندق «سوفيتيل» بالمعادي وفندق «موفنبيك» بالمطار، بالإضافة للجيزة ووسط البلد.

وهناك اعتقاد سائد بأن جميع أصدقاء محفوظ من الحرافيش، والحقيقة أن هذا غير صحيح فهو لم يكن يطلق هذا الاسم إلا على شلته القديمة التي ظل يلتقي بها حتى آخر أيامه مساء كل يوم خميس بمنزل المخرج السينمائي الكبير توفيق صالح، والتي كانت تضم عددًا كبيرًا ممن رحلوا عن عالمنا ولم يبق منهم إلا توفيق صالح أمد الله في عمره، وكان من بينهم: عادل كامل وأحمد زكي مخلوف ومحمد عفيفي وأحمد مظهر وأمين الذهبي.. وغيرهم، وقد عرفت شلة الحرافيش بعض الأعضاء العابرين مثل: صلاح جاهين وأحمد بهاء الدين ومصطفى محمود ولويس عوض، أما أحدثهم فكان الفنان جميل شفيق.

وقد أخبرني محفوظ أن الفنان أحمد مظهر هو أول من أطلق هذه التسمية على شلتهم القديمة، وحين سألته عن معناها قال إن معناها لا يعرفه إلا من ينتمون لها فهو «الهلافيت» أو «المتشردين»، أما المجموعات الأخرى التي كان يلتقي بها بقية أيام الأسبوع فكانت كل مجموعة منها تختلف عن الأخرى، وبعضهم لم يكن من الممكن أن يلتقي بالبعض الآخر لما بينهم من اختلافات تصل في بعض الأحيان إلى حد التنافر، لكن محفوظ كان حريصًا عليهم جميعًا، ولم أكن أحضر هذه اللقاءات بصفة منتظمة، فقد كان لي لقائي الخاص في بيته مساء كل سبت، لكنني في المرات التي كنت أذهب فيها كنت ألاحظ أن محفوظ كان يتمم دائمًا على الحضور فيقول: أمال فين جمال؟ أو: هو الكفراوي مجاش ليه؟

والحقيقة أن العلامة الكبير الدكتور يحيى الرخاوي هو الذي دفع محفوظ للخروج يوميًا ولقاء الأصدقاء؛ حيث كان يخشى بعد حادث الاعتداء أن ينغلق على نفسه مما كان سيكون له تأثير ضار على حالته

النفسـية والصحية، خاصة وقد ضعف سـمعه ووهن نظـره، وكان الدكتور الرخـاوي علـى حق، فقد ظل محفوظ حتى آخر أيامـه يقظًا يتابع ما يجري من حوله، وكان يقول: إن أصدقائي هم عيني وأذني، فمن خلال الأصدقاء أرى ما يجري في البلاد وأسمع عما يحدث في العالـم.

وقد حدثني ذات مرة السـفير الفرنسـي في القاهرة باتريك لوكليرك عن أن فرنسـا قررت منح محفوظ أعلى وسـام في مجال الآداب والفنون وهو برتبـة «قائد» Commandeur، وقال: إن هذا الوسـام عادة لا يمنح إلا على أرض فرنسـية، فإما أن يسافر محفوظ إلى فرنسا أو أن يقلده السفير الوسام في السـفارة الفرنسـية بالقاهرة، وقـد أخبرت السـفير أن محفوظ لا يهوى السـفر خارج مصر، وأنه لـم يذهب إلى السـويد لتسـلم جائزة نوبل نفسها، وسـأعرض عليه اسـتلام الوسـام في السـفارة، ولكني حين عرضت الأمر على الأسـتاذ قـال لي رده المعتاد وهو أن أحضر السـفير معي يوم السـبت ليسلمه الوسام في البيت(!).

وقـد أخذ السـفير يفكر مليًّـا في الموضـوع بعد أن شـرحت له الوضع بأكثر الطرق دبلوماسية حتى لا يتصور أن محفوظ لا يقدر تكريم الحكومة الفرنسـية له، ثـم قال: إن نجيب محفوظ شـخصية اسـتثنائية؛ لذا يجب أن نعمل له الاستثناء الواجب ونسلمه الوسام في بيته.

وهكذا أحضرت معي السفير يوم السبت كما طلب محفوظ، وتمت في منزله بالعجوزة مراسـم تسليم أعلى الأوسمة الفرنسية.

وفـي مـرة أخـرى كان رئيس وزراء إسـبانيا خوسـيه ماريا أثنـار يرغب فـي لقاء محفوظ أثناء زيارة رسـمية له لمصر، فقلـت لمحفوظ: لا تقل لي

أحضره معك يوم السبت! فقال محفوظ مندهشًا: أمال حيقابلني إمتى، إن مكنش يقدر ييجي معاك يوم السبت يبقى نعتذر له؟

إن قائمة مَن «أحضرتهم معي يوم السبت» حسب طلب الأستاذ - رحمه الله - تضم بعض أكبر الشخصيات العربية والعالمية، ممن كانوا يتطلعون للقائه، فمن بينهم مَن يعتبر واحدًا من أكبر الأدباء العالميين وهو البرازيلي باولو كويللو الذي ما إن دخل على نجيب محفوظ حتى انحنى على يده اليمنى وقبّلها، وهي ذات اليد التي شلتها محاولة الاغتيال الفاشلة قائلاً: عليَّ أن أقبّل هذه اليد التي كتبت لنا بعض أعظم روائع الأدب الإنساني المعاصر، وكان من بينهم كاتبة جنوب إفريقيا العالمية نادين جورديمر الحائزة على جائزة نوبل، والتي دعوتها بتكليف من وزير الثقافة - آنذاك- الفنان فاروق حسني لتكون ضيفة شرف معرض القاهرة الدولي للكتاب لما تجمعني بها من صداقة، فاشترطت لقبول الدعوة أن أرتب لها لقاء مع نجيب محفوظ.

كما كان من بين مَن التقوا معي بمحفوظ في منزله يوم السبت بعض أكبر الأسماء على الساحة العربية مثل: الدكتور أحمد زويل والأستاذ محمد حسنين هيكل وياسر عرفات والدكتور أحمد كمال أبو المجد.. وغيرهم.

ويضم هذا الكتاب في بابه الأول نص الحوارات التي دارت بين أديبنا الأكبر نجيب محفوظ وبعض زواره من كبار العقول في العالم في مختلف التخصصات من الأدباء والعلماء إلى المسئولين ورجال السياسة، والذين سعوا جميعًا لكي يكونوا.. في حضرة نجيب محفوظ.

أما الباب الثاني فيضم بعض ما كتبت عن نجيب محفوظ في أكثر من مناسبة على مدى ما يزيد عن عقدين من الزمان، وقد جمعت هنا لأول مرة ما نشر منها وما لم ينشر، وهي تتعرض لبعض الجوانب من حياة أديبنا الأكبر وإنتاجه الأدبي وآرائه في الثقافة والسياسة وغيرها، فتضع القارئ في حضرة نجيب محفوظ، يجالسه ويتعرف عليه بشكل مباشر.

ثم يقدم الباب الثالث مجموعة من كلمات محفوظ نفسه، وفي مقدمتها حديث مستفيض عن قصته مع القراءة والكتابة، وهو حديث لم ينشر من قبل، ثم كلمات محفوظ في افتتاح بعض المناسبات الدولية، ومنها بالطبع كلمته في احتفالات نوبل عام 1988، وكلمته في افتتاح معرض فرانكفورت الدولي للكتاب، والذي استضاف العالم العربي ضيف شرف دورته عام 2004، وغيرها من الكلمات التي سعى القائمون على هذه المحافل الدولية لأن يكون المشاركون فيها أيضًا في حضرة نجيب محفوظ.

ثم يأتي في نهاية الكتاب ملحق لصور الأديب الكبير كباب رابع، بعضها التقط في المناسبات الواردة بالكتاب وبعضها في مناسبات أخرى.

وقد اعتمدت في أجزاء كثيرة من هذا الكتاب- خاصة تلك التي بها أحاديث محفوظ- على التسجيلات التي أحتفظ بها بصوته، والتي تزيد على الـ500 ساعة، وإني أنتهز هذه الفرصة لأشكر قسم الاستماع بجريدة «الأهرام» الذي قام بتفريغ التسجيلات التي استخدمتها في الكتاب.

محمد سلماوي
أكتوبر 2011

الباب الأول

لقاءات معه

ستوري آلين
المصداقية التي منحها محفوظ لنوبل

ستوري آلين هو السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية التي تختار كل سنة الفائز بجائزة نوبل في الأدب، والذي تقوم لجنة نوبل بمنحه الجائزة بناء على ترشيحها ودون أن يكون للجنة الحق في مراجعة ذلك الاختيار، وقد حضر ستوري آلين إلى القاهرة في خريف عام 1988 لمقابلة أديبنا الأكبر نجيب محفوظ لإخطاره رسميًا بأنه الفائز بالجائزة في ذلك العام، ولدعوته إلى السويد لتسلمها في بداية شهر ديسمبر من ذلك العام.

ولقد اتصل بي ستوري آلين عند وصوله إلى القاهرة، وكنت في ذلك الوقت وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الثقافية الخارجية، وطلب أن يقابل محفوظ في الموعد الذي يحدده، فاتصلت بالأستاذ نجيب محفوظ وتم تحديد موعد للضيف الكبير اصطحبه إليه السفير المصري في استوكهولم عبد الرحمن مرعي، والذي حضر إلى القاهرة خصيصًا لهذه المناسبة.

وقد استقبل محفوظ ضيفه بترحاب كبير كعادته، وما إن جلسا في مكتبه بالدور السادس بجريدة «الأهرام ، دور الخالدين (توفيق الحكيم، د.حسين فوزي، صلاح طاهر، د.بنت الشاطئ، د.لويس عوض) حتى بدأ محفوظ الحديث معربًا عن شكره للأكاديمية السويدية على منحه الجائزة

هذا العام، فرد عليه ستوري آلين قائلاً: «بل نحن الذين نشكرك على قبولك الجائزة؛ لأنك بذلك قد صححت وضعًا كان خاطئًا!».

وشرح سكرتير الأكاديمية السويدية أن جائزة نوبل أُنشئت منذ ما يقرب من قرن كامل من الزمان، وهي مخصصة للآداب العالمية، وقد فاز بها أدباء من مختلف أنحاء العالم، لكن لم يفز بها حتى الآن أحد من العالم العربي، وقال آلين: إن ذلك الوضع غير سليم، فللعرب تاريخ أدبي عريق يرجع إلى عدة قرون مضت، وعدم منح الجائزة لأي أديب عربي طوال عمر الجائزة يمكن أن يمس مصداقيتها.

ثم قال سكرتير الأكاديمية السويدية لمحفوظ: «إن قبولك للجائزة هذا العام يؤكد موضوعيتها ونحن مدينون لك بذلك، فالأدب العربي أدب عريق له تاريخ ممتد، وآن الأوان أن يحصل على ما يستحق من تكريم»، ثم شرح أن أعضاء لجنة الأدب بالأكاديمية والبالغ عددهم 18 عضوًا اتفقوا جميعًا على هذا الاختيار، وأنه باسمهم جميعًا يعرب عن سعادته لقبول محفوظ الجائزة.

فصمت محفوظ قليلاً وهو يومئ برأسه بالموافقة، ثم حوّل موضوع الحديث سائلاً ضيفه عما يريد أن يشرب، فطلب آلين فنجانًا من القهوة المصرية الأصيلة، ثم قال لمحفوظ: «لقد شهدت يا أستاذ محفوظ تقلبات اجتماعية وسياسية كثيرة وكبيرة خلال حياتك، وتمكنت من خلال فنك الروائي العظيم أن ترصد كل تلك التحولات وأن تتفاعل معها، بل وأن تستشرف من خلال إنتاجك الأدبي الغزير آفاق المستقبل. أما من الناحية الفنية فإن الفن الروائي العربي أصبح مرادفًا لاسم نجيب محفوظ، فأنت الذي أعطيت الرواية شكلها العربي المميز وأثرت في أجيال من الروائيين

العرب من بعدك، فقد قطعت بأعمالك الأدبية مسافة طويلة من الواقعية النفسية إلى الميتافيزيقية الرمزية مرورًا بأساليب وأشكال متعددة عالجت من خلالها موضوعات وجودية كبيرة كالصراع بين العقل والعقيدة، والحب كمصدر للقوة، والصراع الوجودي للإنسان الأعزل».

وجاء فنجان القهوة فعلق عليه آلين قائلا : إن هذه القهوة ذات «الوش» لا تجدها إلا في مصر. ثم قال لنجيب محفوظ: «دعني أسألك يا أستاذ محفوظ سؤالاً يبدو تقليديًا: لماذا تكتب؟» فضحك محفوظ وقال: «لقد أجبت منذ سنوات على هذا السؤال قائلاً: لأن بناتي يطلبن شراء حذاء بكعب عال! لكن الحقيقة هي أنني أجد سعادتي في الكتابة، فالكتابة بالنسبة لي ليست وظيفة أتكسب منها، وإنما هي مهنتي التي أحيا من أجلها، لقد أمضيت أنا ومجموعة من زملائي سنوات نكتب دون أن يلتفت إلينا أحد، ولأن بعض زملائي كانوا ينتظرون أن يأتيهم المال والنجاح، فقد تركوا الكتابة حين لم يأت أي منهما، أما أنا فقد كنت أجد سعادتي في الكتابة ذاتها وليس فيما يمكن أن تأتي به، لذلك ظللت أكتب بلا مقابل لسنوات، وأتمنى أن أستمر في الكتابة حتى آخر أيامي، فأنا لا أتصور أن أحرم من تلك المتعة التي لا حياة لي بدونها».

فقال آلين: «إنك كثيرًا ما تقدم في أعمالك نظرة ناقدة للحياة من حولك، فهل أنت متشائم؟».

فرد محفوظ: «لو كنت متشائمًا ما كتبت، إن عملية الكتابة في حد ذاتها هي فعل متفائل؛ لأنها تؤكد أن الكاتب يعتقد أن العالم رغم كل ما يمكن أن يكون به من مآسٍ يمكن أن يكون أفضل مما هو عليه».

وكان آلين قد انتهى من الرشفة الأخيرة في فنجان القهوة فقال لمحفوظ: «أستاذ محفوظ، لقد جئت إليك؛ لأخطرك رسميًا بفوزك بجائزة نوبل في الأدب لعام 1988 ، ولأدعوك إلى ستوكهولم لتسلم الجائزة ولإلقاء كلمتك بهذه المناسبة».

فرد محفوظ: «أشكرك على الدعوة ولكن ظروفي للأسف لا تسمح بالسفر»، فقال آلين: «أعرف أنك لا تهوى السفر، ونشر أنك تريد أن يتسلم الجائزة السفير المصري في السويد، لكن هذا للأسف ضد قوانين الجائزة، فنحن نحرص على التأكيد أن نوبل جائزة شخصية لصاحبها بصرف النظر عن جنسيته أو دينه أو عرقه، وقانون الجائزة لا يسمح بأن تسلم الجائزة لدولة أو لمن يمثلها».

قال محفوظ: «أما عن أنني لا أهوى السفر فهذا كان صحيحًا في سن الشباب، أما الآن فسني لا يسمح لي بالسفر»، ثم أضاف مازحًا: «ألم يكن من الأسهل طالما أنك تفضلت بالحضور إلى القاهرة أن تحضر معك الجائزة؟!».

فرد ستوري آلين: «إن جائزة نوبل لا تسلم إلا من يد الملك». فقال محفوظ: «إذن سأختار شخصًا آخر لينوب عني في هذه المهمة».

فرد عليه ستوري آلين قائلاً: «إن قانون نوبل ينص على أنه في حالة تعذر حضور الفائز بالجائزة، فإن له أن ينيب أحد أفراد أسرته أو صديق له من نفس مهنته».

ثم روى أن الكاتب الأسترالي الكبير باتريك وايت حين فاز بالجائزة عام 1973 وتعذر عليه الحضور، أناب صديقه المقرب وكان فنانًا تشكيليًا.

فقال محفوظ: «وأنا أنيب صديقي محمد سلماوي..» فقاطعه ستوري آلين قائلاً: «لكن محمد سلماوي يتقلد منصبًا رسميًا، فهو وكيل وزارة الثقافة المصرية»، فرد محفوظ: «في الحقيقة إنني اخترته لصفته الأدبية، فهو أديب معروف وكاتب مسرحي مميز ينتمي لجيل تالٍ لي، وقد يكون من المفيد أن نلفت نظر العالم إلى أن الأدب العربي العريق الذي قلت إنه تم تجاهله طويلاً يتواصل من جيل إلى جيل، كما أن محمد سلماوي لديه المميزات المطلوبة في مثل هذه المناسبات الدولية».

فاستمع ستوري آلين في صمت إلى أن انتهى محفوظ من حديثه، فقال: «إذن فهو محمد سلماوي»، ثم شرح أن الممثل الشخصي للفائز سيكون عليه أن يقرأ خطاب الفائز في الأكاديمية السويدية العريقة، وأن يلتقي بالملك الذي جرت التقاليد على أن يلتقي بالفائزين كل على حدة». وأكد سكرتير الأكاديمية السويدية أن الفائز بجائزة الأدب، من دون بقية الفائزين في الفروع الأخرى من الجائزة، هو وحده الذي يلقي كلمة بهذه المناسبة، وقال: «وتلك الكلمات نعتز بها كثيرًا في الأكاديمية السويدية لأنها وثائق أدبية لأكبر أدباء العالم، ونقوم بنشرها في كتاب يعاد طبعه كل سنة»، ثم سأل: «هل ستكون الكلمة بالعربية أم الإنجليزية؟»، فرد محفوظ على الفور: «بالعربية طبعًا»، فقال آلين: «إذن يجب ترجمتها»، فقال محفوظ: «سيقوم محمد سلماوي بترجمتها إلى الإنجليزية والفرنسية»، فرد آلين: «عظيم ونحن سنترجمها إلى السويدية، لكن الترجمة الإنجليزية ستكون إلى جانب الأصل العربي هي الترجمة المعتمدة».

ثم أضاف: «شيء آخر نهتم به في الأكاديمية السويدية، وهو أنه لا يجوز نشر الكلمة، ولا مقاطع منها، ولا الإفصاح عن مضمونها قبل أن يتم إلقاؤها في ستوكهولم»، فقال له محفوظ: «لك هذا».

وعندئذٍ قال ستوري آلين لمحفوظ: «هل أطلب منك أن تكتب لي ورقة موقعة منك تحدد فيه اختيارك لمن سيمثلك؟».. فتعجب محفوظ قليلاً، فرد عليه آلين: «إنه مجرد إجراء روتيني، لكنه لازم»، فأخذ محفوظ ورقة بيضاء من على مكتبه وكتب عليها: «لقد اخترت الأستاذ محمد سلماوي ممثلاً شخصيًا لي في احتفالات نوبل».

وأخذ ستوري آلين الورقة المكتوبة باللغة العربية، ثم طواها ووضعها في جيبه، وقال لمحفوظ: «إن الاحتفال بجائزة نوبل هو أهم مناسبات الأحداث الثقافية في العالم، وقد كنت أتمنى أن تحضره»، فابتسم محفوظ وهو يقول: «سأتابعه بكل دقة من منزلي على شاشة التليفزيون»، فرد ستوري آلين: «أرجو ذلك لأنني سأوجه لك كلمة في الاحتفال ويسعدني أن تستمع إليها في لحظتها»، فقال له محفوظ: «سأتطلع إلى كلمتك في الحفل» فابتسم ستوري آلين، وقال: «العالم كله يتطلع إلى كلمتك أنت».

نادين جورديمر
كاتبا نوبل يتحدثان عن صعوبة الامتحان

التقت نادين جورديمر كاتبة جنوب إفريقيا البيضاء الحائزة على جائزة نوبل بكاتبنا الأكبر نجيب محفوظ لأول مرة في نفس يوم عيد زواجها وهو 29 يناير، وقالت جورديمر لمحفوظ في مثل هذا اليوم من 51 سنة تزوجت وأخذني زوجي الراحل في رحلة إلى مصر التي كانت أول دولة أزورها في حياتي، والآن أشعر أنني أتلقى بمقابلتك هذه التي كنت أسعى إليها منذ سنوات هدية ثمينة بهذه المناسبة.

كانت نادين جورديمر قد وصلت إلى مصر بدعوة من وزير الثقافة الفنان فاروق حسني، لتكون ضيفة شرف معرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الـ37 عام 2005، ولم تكن أقدامها قد وطأت أرض مصر حتى كانت خلال أقل من ساعتين تتوجه معي إلى بيت كاتبنا الأكبر نجيب محفوظ المطل على النيل بالعجوزة، ودار بين الأديب والأديبة العالميين الفائزين بجائزة نوبل، هو عام 1988 وهي بعده بثلاث سنوات في 1991، حديث إنساني جميل كنت أنا الذي رتب له منذ قمت بالاتصال بالسيدة جورديمر في منزلها بمدينة جوهانسبرج بجنوب إفريقيا، لأنقل إليها دعوة الصديق الفنان وزير الثقافة، فقبلت الدعوة شاكرة، وأردفت على الفور:

لكنـي كنت أود أن ألتقي بنجيب محفوظ منذ فترة، فهل يمكن أن ترتب لي هذا اللقاء؟ وكانت جورديمر قد زارت مصر مرة أخرى منذ بضع سنوات، لكنها لم تتمكن آنذاك من لقاء محفوظ الذي وصفته في إحدى كتاباتها بأنه إحدى أكبر المواهب الإبداعية في عالم الرواية في العالم.

وقالـت لي نادين جورديمر إنها تحتفظ لديها بكل كتب نجيب محفوظ التي صدرت بالإنجليزية، وقالت إنها كلما قرأت كتابًا له دفعها إعجابها به إلى قراءة كتاب آخر، وحين أخبرت الأستاذ نجيب محفوظ بذلك قال: إذن سـأقدم لها كتابي الإنجليزي الأخير، وكان يقصد بذلك كتاب «**أحلام فترة النقاهـة**» التي كانت ترجمته الإنجليزية قد صدرت في نفس العام بمناسـبة عيد ميلاد أديبنا الأكبر الـ93.

وحيـن قدم الأسـتاذ نجيب نسـخة الكتـاب الإنجليـزي لضيفته ونحن جلوس بغرفة الاستقبال بمنزله، أخذت كاتبة نوبل تقلب الكتاب بين يديها وتنظـر إلى غلافـه الأزرق الذي يحمل اسـم The Dreams أي «**الأحلام**» وتقـرأ ما كتب على ظهر الغلاف وما يتضمن الفهرس، ثم قالت: عجبًا أني لـم أر هذا الكتاب من قبل، فشـرح لها الأسـتاذ نجيب أنـه يتضمن ما يكتبه الآن مـن أقاصيص قصيرة يسـتوحيها من أحلامه، فنظـرت الكاتبة العجوز إلـى نجيـب محفوظ، وقالت: هل مازلت تكتب يا مسـتر نجيب في سـنك هـذا؟ فقال لهـا: إني أكتب هـذه الأحلام، ومـاذا عندكِ أنتِ؟ هـل مازلتِ تكتبين؟ قالت: لقد انتهيت لتوي من كتابة رواية لم تنشـر بعد، وإني أشـعر أن تلك ستكون آخر رواية لي، قال الأستاذ: لماذا تقولين هذا؟ قالت: ربما أننـي فقدت في سـني هذه جـذوة الكتابة ، فقـال: لا تنظـري لروايتكِ هذه باعتبارها آخر ما ستكتبين، فما أدراك بما يخبئه لكِ القدر!

قالـت: إنـي أشـعر بأننـي كتبـت كل مـا أسـتطيع أن أكتبـه ولـن يصبح باسـتطاعتي أن أكتـب ثانيـة، قـال: لقـد حـدث لي نفس الشـيء فـي بداية الخمسـينيات بعـد أن انتهيت مـن «**الثلاثية**»، فقد شـعرت أنني أفرغت كل ما كان في جعبتي الروائية ولم يعد لي ما أقوله بعد ذلك، وقد حاولت كثيرًا أن أكتب لكني لم أجد شـيئًا أكتبه لذلك اتجهت إلى السـينما وبدأت أكتب السـيناريوهات، وحيـن انضممـت إلـى نقابة المهن الفنية سـجلت نفسـي ككاتـب سـيناريو وليـس كروائي، ثم بعـد ما يقرب من 6 سـنوات وجدت نفسي أكتب فجأة رواية جديدة هي «**أولاد حارتنا**» التي صدرت عام 1959 والتي جاءني بعدها فيض من الكتابات لم يتوقف لسنوات، لكن أصارحك القول بأنني حين تصورت أن معيني قد نضب أصبت باكتئاب.

فقالـت نادين جورديمر: كم كانت سـنك آنذاك؟ قال: كنـت في أوائل الأربعينيـات، قالت: لو كنت مكانك لاكتأبت أنا أيضًا، وإن كنت أعتقد أن الاكتئاب هو عرض وظيفي لمهنتنا الأدبية، لكني الآن في الـ81 من عمري وأشـعر أنني قـد خلّفت ورائي الكثير وقد لا أكتب ثانيـة، فقال نجيب: إني في سـن الـ93 ومازلت أكتب، فالمسألة في الأسـاس رغبة ودافع قد يشعر بهمـا الكاتـب في وقت ما ولا يشـعر بهمـا في وقت آخر، وفـي حالتي فإن الرغبة في الكتابة مازالت مسـتمرة حتى بعد أن أصبحت قدراتي الجسـدية لا تسـاعدني عليها كما يجب، فقدراتي على الإمساك بالقلم بعد ما أصاب يدي اليمنى قد قلّت كما ضعف أيضًا نظري؛ بحيث لا أسـتطيع تبين بالدقة المطلوبة ما تخطه يدي، وقد تحايلت على ذلك بالإملاء.

قالت: أنا لا أستطيع الإملاء، قال: لقد قاومت فكرة الإملاء هذه طويلاً، لأن القلم كان في يدي دائمًا بمثابة أحد أصابعي، تعودت عليه على مدى أكثر من 60 عامًا ولم أكن أستطيع الكتابة بدونه، لكني رضخت للإملاء في النهاية بعد أن أصبحت قراءة ما أكتب بيدي المرتعشة من الصعوبة بمكان، وقد كانت المسألة صعبة جدًا لأني لا أستطيع الإملاء إلا في أوقات معينة حين يأتيني مساعدي الذي يقرأ لي الصحف، وقد فرض عليّ ذلك أن أحفظ كل واحدة من قصصي الجديدة عن ظهر قلب لكي أتمكن من إملائها عليه حين يأتي.

وصمت الكاتبان الكبيران بعد أن تصارح كل منهما مع الآخر حول وضعه الحالي مع الكتابة، وما يلقاه من معاناة، إلى أن سألت كاتبة جنوب إفريقيا الحائزة على جائزة نوبل زميلها الإفريقي الشمالي الحاصل هو الآخر على نفس الجائزة: متى بدأت تكتب يا مستر محفوظ؟.. فضحك خجلاً وهو يقول: كنت طالبًا صغيرًا في الابتدائية. فصمتت هي ولم تتكلم، فشعر أنها تريد التفاصيل، فقال: كنت في ذلك الوقت أقرأ روايات بوليسية، وكنت كلما انتهيت من قصة أعيد كتابتها بأسلوبي، ثم بدأت بعد ذلك أكتب قصصًا مستوحاة من حياتي، إلى أن أصبحت قادرًا على تأليف أشياء من الخيال، وأذكر أن أحد الأساتذة الذين كنت أُجلّهم وهو سلامة موسى، قال لي: أنت موهوب، لكن قصصك هذه لا تصلح. ومع الوقت والمثابرة بدأت أكتب ما أصبح بعد ذلك يصلح.

ثم نظر الأستاذ نجيب في فضول إلى ضيفته التي جاءته من جنوب القارة وسألها: ومتى بدأت أنت تكتبين؟ قالت: في سن الـ9 أصبت بمشاكل في

القلب فمنعني الطبيب في ذلك الوقت نهائيًا من الرقص، وأعتقد أن الطبيب كان مخطئًا، فقد أمضيت حياة حافلة بالحركة حتى تخطيت الآن الـ80، لكني في ذلك الوقت لم أكن أعرف ذلك فالتزمت بتعليمات الطبيب كما نقلتها لي أمي، ولما كنت أقرأ كثيرًا في ذلك الوقت فقد اتجهت إلى الكتابة بشكل أكبر حتى أصبحت هي حياتي.

ثم سألت نادين جورديمر الأستاذ نجيب: وأنت ألم يداخلك أي طموح لتصبح شيئًا آخر غير الكاتب، فقال: في بداية حياتي كانوا يعدونني لأكون مهندسًا لا لسبب إلا لأنني كنت متقدمًا في الحساب، لكن الكتابة تغلبت في النهاية على الهندسة كما تغلبت عندك على الباليه.

وضحك الاثنان وهما يتبادلان الذكريات ويسأل كل منهما الآخر كيف بدأ الكتابة وكيف أصبح الآن، وكأنهما طفلان خرجا لتوهما من لجنة الامتحان وأخذ كل منهما يسأل الآخر كيف أجاب عن الأسئلة، ثم أخرجت نادين جورديمر من حقيبتها كتابين وقدمتهما لنجيب محفوظ قائلة: الكتاب الأول هو مجموعة قصصية صدرت لي أخيرًا بعنوان: Loot أي الغنيمة، وصدّرته بإهداء للأستاذ، قالت فيه: «إلى نجيب محفوظ تقديرًا لعظمته، وحبًا وعرفانًا بالنور والسعادة التي أدخلتهما في نفسي قراءاتي لأعماله. نادين جورديمر، القاهرة 2005.

أما الكتاب الثاني وكان اسمه Telling Tales ، فقالت الكاتبة إنه لا يحوي إلا قصة واحدة لها ضمن مجموعة من 20 أديبًا، وقالت جورديمر لمحفوظ وهي تقدم له الكتاب: بعضهم من الحاصلين على جائزة نوبل مثلنا، وهم: جونتر جراس الألماني، وجابرييل جارسيا ماركيز الكولومبي،

وكونزابورو أوي الياباني، وخوسيه ساراماجو البرتغالي، والباقين لا يقلون عنهم عظمة، مثل: آرثر ميللر وجون ابدايك وبول ثيرو ومارجريت آتو ود.حنيف قريشي وودي أرين وغيرهم، وقصة هذا الكتاب أنني في العام الماضي فكرت أننا ككتّاب علينا أن نفعل شيئًا من أجل المصابين بمرض فقدان المناعة المكتسبة «الإيدز»، وأرسلت إلى 20 كاتبًا من أكبر كتّاب العالم أطلب إليهم أن يقدموا إليّ قصة قصيرة دون أجر، وقلت إني سأبحث عن ناشر لهذا الكتاب يقبل أن يتبرع هو الآخر بنشره لصالح مرضى «الإيدز»، وتصورت أنني لو تلقيت موافقة من 10 أو 15 كاتبًا فهذا يكفي لنشر الكتاب، لكني فوجئت بأن جميع الكتّاب الـ20 الذين خاطبتهم وافقوا وأرسلوا لي على الفور قصصهم، فكان هذا الكتاب الذي يضم 20 قصة لأكبر كتّاب العالم والذي بيع منه حتى الآن 50 ألف نسخة، كما صدر حتى الآن بـ15 لغة، ويسعدني أن أهديه لك هو الآخر.

فشكرها محفوظ وأخذ الكتاب بين يديه، ثم قال: لو أنكِ طلبت مني التبرع بقصة من قصصي لأعمال الخير لأرسلتها لك، فقالت له جورديمر: «لكنا عرفنا حين حصلت على نوبل أنك تبرعت بالفعل للخير، أليس كذلك؟»، قال: لقد قسمت قيمة الجائزة بيني وبين زوجتي وكريمتي حسب الشرع الإسلامي، وما خصني أنا تبرعت به بالكامل إلى أعمال الخير، وقد ذهب في العام الماضي إلى مرضى الفشل الكلوي الذين يعيشون على عمليات غسيل الكلى وهي مكلفة جدًا في مصر.

ثم أخرجت نادين جورديمر كتابًا ثالثًا من حقيبتها، فقال لها ضاحكًا: لا لن أقبل منك كتبًا أخرى، فأنا لم أقدم لك إلا كتابًا واحدًا، فقالت:

إنـي لن أهديك هذا الكتاب، بل أنت الذي سـتهديه إلـيّ، لقد أحضرته من مجموعتـك الكاملة الموجودة فـي مكتبتي كي توقعه لـي بقلمك فلم أكن أعرف أنك سـتهديني كتاب «**الأحـلام**» وأردت أن آتي معي بأحد أعمالك لأعيـد قراءتها على الطائـرة، وهكذا أكون قد أهديتـك كتابين وتكون أنت قـد أهديتنـي أيضًا كتابين، ووقّع نجيب محفوظ بيد مرتعشـة على الترجمة الإنجليزية لروايته «**رحلات ابـن فطومة**» فأخذته نادين جورديمر ووضعته بسـرعة مع كتاب «**الأحلام**» في حقيبتها وكأنها تريد إخفاءه، حتى لا يأخذه منها أحد.

ولم تشـأ نادين جورديمر أن تثقل علـى زميلها الكبير الذي لاحظت أنه مصـاب برشـح من نزلة برد أصابته اعتذر لها كثيـرًا عنها، فقالت: الآن وقد تبادلنا الهدايا، فإني سـأتركك حتى أعود إلـى الفندق لأقرأ هذه «**الأحلام**» التـي لم أقرأها من قبل، ونظر إليّ الأسـتاذ نجيب محفـوظ، وقال: «وأنت ألـن تقـرأ لي تلـك القصص التـي أهدتها ليناديـن جورديمـر؟»، فوعدته بذلك وخرجت مع ضيفته الكبيرة لأوصلها إلى الباب.

باولو كويللو
البحث عن الكنز

كان أول مـا فعلـه الكاتب البرازيلـي العالمي باولو كويللـو حين دخل علـى نجيب محفوظ في منزله، أن انحنى وقبّـل يده اليمنى المضمومة إلى صـدره، ولمـا لاحظ أن محفـوظ أُخذ قليـلاً، اعتذر كويللو بسـرعة قائلاً: أرجـو ألا أكـون قد آلمتك لكنه كان عليّ أن أقبّل تلـك اليد التي أنتجت لنا بعض أعظم الإبداعات الروائية في العالم.

قال محفوظ لضيفه: لا عليك، لا ألم هناك.

بعـد المقابلـة تحدثنا أنا وباولو كويللو عن ذلـك فقلت له: إنه يضم يده هكذا منذ حادث الاعتداء، فالطعنة التي أصابت رقبته أثرت على يده اليمنى ولم يعد يقوى على استخدامها فأخذ يضمها هكذا.

فقـال كويللو: إنه يضمها إلى صدره وكأنـه يحميها فهي اليد المصابة.. إنها اليد الذهبية التي ليس كمثلها يد!

كنـت قد دعيت باولو كويللو كي يلتقي بكتّـاب مصر في اتحاد الكتّاب فسـألني: هل سـيكون نجيب محفوظ هناك؟ قلت: محفوظ لم يعد يخرج

كثيـرًا، وإذا أردت مقابلته سـأعرض عليه الأمر، وقـد نتمكن من زيارته في منزله.

فرحـب كويللو بذلـك وتهلل وجهه وهـو يقول: سـأكون محظوظًا أن ألتقـي محفـوظ علـى انفـراد، وحيـن عرضت الأمـر على محفـوظ رحب بذلـك، فذهبت إليه مصطحبًـا الكاتب العالمي الكبيـر والمهندس إبراهيم المعلم، رئيس اتحاد الناشرين في ذلك الوقت.

سـادت لحظـة صمـت بيـن الكاتبيـن الكبيرين أخـذ محفـوظ خلالها يتفحـص وجـه ضيفه عن قـرب، ثم قـال: لقد أطلقـت لحيتـك مثلي أنت الآخـر! فرد عليـه كويللو بنفس التلقائيـة: وكما ترى هي بيضـاء أيضًا مثل لحيتـك، وضحك الرجلان وكأنهمـا صديقان قديمان لـم يلتقيا منذ زمن، فقد كسرت تلك الدعابة الشـخصية حاجز الرسمية بين الكاتبين العالميين اللذين احتل كل منهما موقعه على القمة التي لا تتسع إلا للقلة المتميزة.

وصل كل من باولو كويللو ونجيب محفوظ إلى القمة العالمية بطريقته المختلفـة عن الآخر، أما محفوظ فقـد وصلها عن طريق المحلية المصرية التي حوّلها بعبقريته الأدبية إلى مادة إنسانية عابرة للقارات ولكل الثقافات، وأمـا كويللـو فقد وصلها عـن الطريق العكسـي؛ أي بالتحرر مـن المحلية والتوجه إلى النزعات الإنسـانية الأساسـية، خاصة البحث عن الذات التي يرمز إليها في روايته الشـهيرة «الخيميائي» بالكنـز الذي يبحث عنه البطل، وقد قاده البحث من ربوع إسبانيا إلى صحراء مصر.

قال كويللو لمحفوظ: لقد غزت كتبك نفسي بلا مقاومة، فكلما قرأت أحد أعمالك وجدت في نفسـي استسـلامًا كاملاً لها، بينما كثيرًا ما أجدني أقاوم بعض الكتب الأخرى التي أقرأها.

فرد عليه محفوظ المجاملة قائلاً: وأنت غزوت العالم كله بكتبك وعلى ما يبدو بدون مقاومة أيضًا، فأعمالك كما علمت تترجم إلى 56 لغة تزيد مبيعاتها على 60 مليون نسخة.. إن ذلك يعني أن القراء يستسلمون لك في جميع أنحاء العالم.

فقاطعه كويللو قائلا: لكنك أنت حصلت على جائزة نوبل. أما أنا فلا، فقال محفوظ في جدية دون أن يبدو مجاملاً: إني أتنبأ بأنك ستحصل على نوبل أيضًا، فجميع مواصفات الجائزة تنطبق عليك، فأدبك أولاً أدب إنساني من الدرجة الأولى يعلي من قيم المحبة والسلام بين البشر، وهو ثانيًا واسع الانتشار بحيث أثر بلا شك في وجدان الناس.. وهذان شرطان أساسيان من شروط الجائزة.

فقال كويللو ضاحكًا: سأنقل رأيك هذا إلى لجنة نوبل باعتباره ترشيحًا رسميًّا لي، فوفق قواعد نوبل من حق الفائزين بها أن يرشحوا كتّابًا آخرين. فقال محفوظ: هذا صحيح وأنا كان يصلني كل عام خطاب من لجنة نوبل يسألني إذا كنت أريد ترشيح أحد للجائزة، لكنني لم أفعل وبعد بضع سنوات يبدو أنهم يئسوا مني فامتنعوا عن إرسال خطاب الترشيح هذا.

فسأله كويللو: ولماذا لم تكن ترشح أحدًا؟ قال: لأني أعتقد أن مثل هذه الجائزة يجب ألّا تخضع للمزاج الشخصي، لذلك أفضل أن تقوم بذلك الهيئات العامة حتى يكون ترشيحها مصحوبًا بالأسانيد النقدية التي تبرره.

وشغلني سؤال وأنا أستمع إلى حديث الكاتبين العالميين فسألت كويللو: لقد قلت لي إنك قرأت جميع أعمال محفوظ التي ترجمت إلى

لغتك البرتغالية، فما هي في رأيك السمة المشتركة بينكما؟ قال: إننا نسعى لبناء الجسور بين الناس من خلال الاهتمام بالبشر قبل الأفكار أو العقائد أو الأيديولوجيات.. فأنا مثلاً أهم شيء عندي في أي دولة أزورها هو التعرف على شعبها ومخالطتهم، وكلما كان أمامي الاختيار في أي بلد أزوره بين أن أذهب إلى المتحف أو أذهب إلى مقهى، فأنا أختار المقهى بلا تردد.

قلت له: إن للمقهى مكانة مهمة في حياة محفوظ ربما لنفس السبب، فقد عاش حياته كلها وسط الناس وهو مشاء عظيم، مشى في جميع أحياء القاهرة جيئة وذهابًا طوال عشرات السنين؛ لذلك لم يشأ أبدًا أن يمتلك سيارة.

وسأل كويللو محفوظ إن كان قد قرأ رواياته فقال: للأسف إنني لم أعد قادرًا على القراءة في سني هذه، لكن لي صديق طبيب قرأ روايتك الشهيرة «الخيميائي» ورواها لي بكل تفاصيلها فشعرت أني قد قرأتها بنفسي، وقد استحوذت قصة بحث البطل عن الكنز على كل اهتمامي.

فقال له كويللو: لقد قرأت أخيرًا روايتك العظيمة «**الطريق**» ووجدت أنك سبقتني في قصة البحث هذه، فروايتك هي الأخرى تدور حول البحث، فالبطل عندك يبدو أنه يبحث عن والده لكنه في الواقع يبحث عن الحقيقة، ويبحث من خلالها عن نفسه، وهذا هو حال بطلي أيضًا.. فقال محفوظ: لكل إنسان الكنز الذي يبحث عنه، فرد كويللو: وقد يكون الكنز بداخله، فقال محفوظ: إن هذا هو الكنز الحقيقي لأنه إذا وجده الإنسان فهو لا يفقده أبدًا؛ لأنه كنز لا يفنى.

وسأل كويللو محفوظ: هل عالجت قضية البحث هذه في رواية أخرى؟

قال محفوظ: البحث بشكل مباشر تجده أيضًا في «رحلة ابن فطومة».

فقال كويللو: عليَّ أن أبحث عنها إذن.. فأنا مغرم بكتاباتك، لأن بها دائمًا ذلك العمق النفسي الذي لا يتأتى إلا للكتّاب العظام، فصمت محفوظ كعادته كلما امتدحه أحد.

وبعد برهة قال لي باولو كويللو: أتعرف ما هو الشيء الثاني الذي يجمع بيني وبين محفوظ؟ إنه ذلك القرار الصعب الذي ينبغي على كل كاتب حقيقي أن يتخذه، وهو أن يتفرغ للكتابة، وهو قرار شجاع لأنه يعني أن الكاتب سيعيش حياة من الوحدة بحكم اختلافه عن بقية البشر، وأنا أعوّض ذلك بأن ألتحم بالبشر كلما استطعت، وأعلم أن محفوظ كان يفعل نفس الشيء أيضًا.

فعلق محفوظ على الحديث قائلاً: ومازلت، فأنا أحرص على الالتقاء بأصدقائي أسبوعيًّا حتى الآن بالرغم من ظروفي الصحية، ولولا ذلك لصارت حياتي حزينة جدًّا.

ولمح باولو كويللو علبة السجائر في الجيب العلوي لسترة الأستاذ حيث اعتاد وضعها، فقال له: آه إني سعيد أنك مازلت تستمتع بالتدخين، فرد محفوظ في شيء من الانكسار: إنهما سيجارتان فقط في اليوم، هذا هو المسموح لي به الآن، فقال كويللو: أما أنا فأدخن عشر سجائر، فرد عليه محفوظ: أنت سنك 58 عامًا أما أنا فسني 93، فقال: لكنك تملؤني أملاً في أن أظل أدخن إلى ما بعد التسعين، وضحك الكاتبان ثم صمتا، فتدخلت

لتوجيـه دفة الحديث، وقلت لكويللو: وما الـذي تتصوره يفرق بينك وبين محفوظ؟

فقـال: لا أعرف، ربما أنه كتب أكثـر من أربعين رواية، وأنا لم أكتب إلا ربع ذلك العدد أو أكثر قليلاً.

قلت: ربما أن رواياتك كلها مستوحاة من سيرتك الذاتية. فسأل كويللو محفوظ: ألم تكتب سيرتك الذاتية يا مستر محفوظ؟

فقـال له: لا. فسـأله: لماذا؟ قال: لأنـي أكتب بدلاً منهـا روايات، قال: لكـن لك كتاب **«أصداء السـيرة الذاتيـة»**، وقد قرأت ترجمتـه الإنجليزية. قال: إنها مجرد أصداء اتخذتها لكي أبني عليها ذلك الكتاب لكنها ليسـت سـيرة ذاتيـة بالمعنى المفهوم، فقال لـه: ألن تكتب سـيرتك إذن؟ قال: لا. قال: لماذا؟ قال: لأنها ليس فيها ما يهم أحدًا.

ثـم كان دور محفـوظ أن يجيـب على سـؤالي حول ما يمكـن أن يكون هنـاك من فروق بينـه وبين كويللو فقال: في حدود مـا روي لي عن رواياته أتصـور أن مـا يميـز كتبه هو بسـاطة «الحدوتـة» رغم عمق معناهـا. فوافق كويللو على ذلك قائلاً: إنه يتمنى أن تصل كتاباته إلى الحالة التي تشبه فيها الصحـراء في بسـاطتها وأيضًا فـي خباياها، ونظر كويللـو طويلاً لمحفوظ قبـل أن يتركـه، وقال له: لقـد زرت مصر للمرة الأولى عـام 1987 وتأثرت جدًّا لرؤية الأهرامات، وعدت إلى البرازيل لأجد أن رواية «الخيميائي» قد تخلقـت في ذهني، فبدأت على الفور في كتابتهـا. وهذه هي زيارتي الثانية لمصـر، وأعتقـد أن أهم ما فيهـا هو مقابلتي لك التي أشـعر أنها قد تلهمني عملاً جديدًا مثلما فعلت الأهرامات في الزيارة الأولى.

وفي نهاية الزيارة قدم كويللو لمحفوظ نسخة إنجليزية من روايته الشهيرة «الخيميائي»، فقدم له محفوظ بدوره النسخة الفرنسية من «**أحلام فترة النقاهة**» التي تعتبر آخر إصداراته ممهورة بإمضائه، فانحنى كويللو محاولاً للمرة الثانية تقبيل يده التي وقّعت له على الكتاب، فسحبها محفوظ هذه المرة، وانحنى بدوره تحية لضيفه الكريم.

محمد حسنين هيكل
لقاء العمالقة في أسبوع الآلام

لم أكن أتصور وأنا ذاهب إلى أديبنا الأكبر الأستاذ نجيب محفوظ يوم عيد ميلاده الـ93، أن تلك المناسبة الخاصة ستتحول في أثناء زيارتي له في منزله إلى ملتقى ثقافي نادر جمع بين اثنين من عمالقة هذا العصر، هما الأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ محمد حسنين هيكل، اللذان كانا أول من تخطى حدود البلاد، كل في مجاله، وصولا إلى العالمية دون أن يترك أي منهما أرض مصر.

بدأ الأصدقاء والمعارف يحتفلون بعيد ميلاد أديبنا الأكبر نجيب محفوظ الـ93، قبل أن يحل موعده بأسبوع على الأقل، ولرجل في مثل سنه تمثل هذه الاحتفالات عبئًا إضافيًا على نظام حياته المستقر، حتى أنه ما إن حل يوم عيد ميلاده وقد كان السبت 11 ديسمبر حتى قال لي ونحن جلوس بمفردنا في غرفة الاستقبال بمنزله بالعجوزة: ها قد انتهى أخيرًا أسبوع الآلام، فخجلت وأنا جالس إلى جواره، حيث كنت قد تآمرت عليه دون أن يعرف، فاتفقت مع الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل على أن نفاجئ أديبنا الأكبر بحضوره في ذلك اليوم لتهنئته بعيد ميلاده، ولم يكن هذا كل ما في الأمر، فقد طلب الصديق الناشر الكبير إبراهيم المعلم أن

يحضر هو الآخر لتهنئة الأستاذ، كما كنت قد حددت موعدًا في نفس اليوم بالاتفاق مع الأستاذ نجيب للزميل أنور الهواري، وكان في ذلك الوقت رئيسًا لتحرير جريدة «المصري اليوم».

قلت: إن عيد ميلادك يا أستاذ نجيب يكاد يكون مناسبة قومية؛ حيث يشعر جميع محبيك بأنك علم من أعلام الوطن، فقال: إن تلك المشاعر التي يحيطني بها الناس هي أكثر ما يدخل الدفء إلى نفسي في أيامي هذه، لكن الصحة لم تعد تحتمل.

وحين دخل علينا أنور الهواري ومعه المصور المتميز حسام دياب، قدمته كرئيس تحرير واحدة من أفضل الجرائد المستقلة التي ظهرت في السنوات الأخيرة، لكن الهواري اختار أن يقدم نفسه كواحد من قراء نجيب محفوظ، قارئ مازال يجد في أعماله نضارة يفتقدها في أعمال بعض كبار معاصريه، وقال الهواري: إنه يجد نفسه مدينًا لأديبنا الأكبر، لأنه أسهم أكثر من غيره في تشكيل وجدانه من خلال روائعه التي تربى عليها جيل كامل منذ الصغر، وقال: ساعدتني يا أستاذ نجيب على فهم نفسي، فأبطالك كانوا تعبيرًا صادقًا عن الكثير مما كان يعتمل في نفوسنا، وقد كنا نقرأ رواياتك فنشعر بأنك تقوم بتشريح المجتمع، فيزيد بذلك فهمنا لهذا المجتمع ولأنفسنا، ونصير أكثر قدرة على التعامل معه ومع أنفسنا.

وضرب الهواري أمثله واضحة على ذلك من «**الثلاثية**»، ثم أعقب ملاحظته بسؤال تقليدي للأستاذ حول ما يمكن أن يقوله للجيل الجديد من الشباب، فأخرج من أديبنا الأكبر عبارات من أجمل ما قيل في هذا الصدد؛ حيث اختار الأستاذ أن يتراجع عن موقع توجيه النصح للشباب وهو أديب نوبل

الكبير، إلى موقع الاعتذار للشباب نيابة عن المجتمع بأكمله، فقد صمت الأستاذ نجيب محفوظ قليلاً، وأخذ ينظر أمامه إلى ما هو أبعد من حوائط الغرفة التي نجلس فيها، وكأنه وقد تخطى الآن سن التسعين قد ارتفع فوق غشاوة الدنيا وصار يرى الآن الحق مجردًا من كل هوى.

قال نجيب محفوظ: ليس هناك ما يقال للشباب غير الاعتذار.. إننا لم نوفِ الشباب حقهم حتى يصبح بإمكاننا اليوم أن نصحهم.. لقد قدمنا لهم نظامًا تعليميًا بائسًا وإعلامًا حكوميًا ساذجًا، وبعد طول معاناة مع التعليم والتنشئة أخرجناهم إلى حياة البطالة القاسية، فماذا تريدني بعد ذلك أن أقول لهم؟ أن اصبروا؟! إني أخجل من ذلك.

وظل الأستاذ في يوم عيد ميلاده الـ93 ينتقل من لحظة توهج إلى أخرى، وأخذنا الحديث إلى زعماء مصر الراحلين، فوصف سعد زغلول ومصطفى النحاس بأنهما الزعيمان الشعبيان، لأنهما خرجا من صفوف الجماهير، ثم حكى لنا عن رحيل النحاس عام 1964، فقال إنه يذكر أنه كان عائدًا من أحد معامل التحاليل الطبية حاملاً بعض نتائج التحاليل، وإذا به يسمع في أحد أجهزة الراديو في الشارع اسم مصطفى النحاس.

ويصف الأستاذ ذلك فيقول: لقد أدركت على الفور أن اسم النحاس لا يمكن أن يذكر في الإذاعة في ذلك الوقت إلا إذا كان قد مات، فجلست مكاني في الشارع وغلبتني الدموع.

ويترقرق في عيني الأستاذ بعض الدمع الذي لم يرد له أن ينهمر، فأصمت احترامًا، ثم أسأله: هل شاركت في جنازة النحاس؟ فيقول: لا، فقد كنت أتصور أن جنازته في ذلك الوقت لن تكون كبيرة، ولم أكن أرغب

في مشـاهدة النحاس باشا يخرج إلى مثواه الأخير في جنازة مثل أي جنازة أخرى، لكنني في المسـاء علمت من الصديق عمر طوسـون ونحن جلوس على القهوة أن جنازة النحاس كانت مهيبة، فحزنت أني لم أكن هناك!

قلت للأسـتاذ نجيب: وماذا عن بقية الزعماء الراحلين؟ قال: كان هناك بالطبـع جمـال عبد الناصر، وقـد كان عبد الناصر أكثر مَـن أنصف الفقراء، لقد أعطاهم الكثير، وما لم يسـتطع تحقيقـه أعطاه لهم أملاً؛ لذلك فالناس لا تنسـاه أبدًا؛ لأن الأمل لا يموت، وربما كان هذا هو السـبب الذي يجعل اسم عبد الناصر وصوره ترتفع في كل مظاهرة شعبية تخرج حتى بعد مرور أكثـر مـن 30 عامًا على رحيلـه، إن لعبد الناصر حسـابًا آخر مـع الجماهير لا يعتمد على المعارك السياسـية أو العسـكرية التي خاضها وما كسـبه فيها أو ما خسره.

ويصـف الأسـتاذ نجيب أنـور السـادات بأنـه كان زعيمًـا مظلومًا رغم ما حققه من إنجازات.

ومـن الغريـب أن حديـث الزعمـاء هـذا جـرى قبـل وصـول الأسـتاذ محمد حسنين هيكل، والأغرب أنه ما إن حضر هيكل حتى تحول الحديث إلى الأدب والشعر.

كان لقاء الرجلين بالأحضان، فقد فوجئ الأسـتاذ نجيب بقدوم هيكل، وظـل يرحب به بحرارة، وقـد طوّق كل منهما الآخـر بذراعيه وأخذ يربت على ظهره، وبدت على الأسـتاذ نجيب علامات الفرح، وهو يتلقى التهنئة بعيد ميلاده من الأستاذ هيكل ومن المهندس إبراهيم المعلم الذي صحبه، ومـا إن عـاد إلى الجلـوس بعـد الترحيب بضيفيـه، حتى قلت لـه: إنني لم

أخبرك بالزيارة يا أستاذ نجيب لأن الأستاذ هيكل أراد أن يفاجئك هو والمهندس إبراهيم المعلم، فقال الأستاذ: لقد كرمني ولم يفاجئني فقط، ثم عاد إلى ذكرياته القديمة فقال: إن تلك ليست المرة الأولى التي فاجأه فيها الأستاذ هيكل ولا هي المرة الأولى التي يحتفل فيها بعيد ميلاده، فقد حدث ذلك أيضًا منذ أكثر من 40 عامًا، حين رتب الأستاذ هيكل حفلاً خاصًا في الأهرام بمناسبة بلوغ الأستاذ نجيب محفوظ سن الخمسين، حضره لفيف من كبار الشخصيات الثقافية والفنية في ذلك الوقت، كان في مقدمتهم الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزي وصلاح جاهين وأحمد بهجت وغيرهم، وقد حرص الأستاذ هيكل على دعوة أم كلثوم لعلمه بأن نجيب محفوظ يعشقها، حتى أنه أطلق اسمها على كبرى بناته لكنه لم يكن قد التقى بها قط، وكانت تلك هي المناسبة الأولى والأخيرة التي قابل فيها نجيب محفوظ أم كلثوم.

وقفز الحديث بسرعة من الذكريات إلى الصحة، ثم السياسة والتعليق على بعض ما ينشر في الصحف، ثم استقر في النهاية عند الشعر الذي قد لا يعرف البعض أن كلا الرجلين يحفظ منه الكثير جدًّا من الأبيات عن ظهر قلب، وقد اتفق الأستاذ نجيب مع مقولة إن الشعر هو بحق ديوان العرب، وقال إن كتاب الأغاني مثلاً كتاب عظيم لكن أعظم ما فيه هو الشعر.

وقلت: إنك جعلت الرواية في عصرنا هذا تحتل هذا المكان، فكانت هي ديواننا المعاصر، فقد عكست رواياتك أهم الأحداث التاريخية التي مرت علينا في القرن الـ20، في الوقت الذي تراجع فيه الشعر بشكل ملحوظ.

وقال الأستاذ هيكل إنه من بعد شوقي لم نشهد تجربة شعرية عملاقة، لقد عرفنا الكثير من الشعراء الجيدين، وقد كان لعلي محمود طه إسهام شعري لا بأس به، فالصورة الشعرية عنده متميزة حقًّا، لكن أحدًا لم يقترب من التجربة الشعرية المتكاملة التي كانت لأمير الشعراء.

فرد الأستاذ نجيب: لقد أفاد عباس محمود العقاد الشعر العربي كثيرًا، سواء في شعره أو في نقده للشعر، فقال الأستاذ هيكل: إن شعر العقاد في رأيي بناء عقلي بديع، لكن تلك هي نقطة الضعف فيه، فهو عقلاني أكثر من اللازم، ويفتقر كثيرا إلى العاطفة، والشعر في جانب منه العقل لكن في الجانب الآخر هناك الوجدان.

وقال الأستاذ نجيب: لقد كان إبراهيم ناجي أكثر رومانسية من العقاد، لكن العقاد جاء بالكثير من التجديد في الشعر فأخرجه من دائرة المناسبات، وقصيدته العظيمة «الشيطان» لم يكن من الممكن لأحد أن يكتبها إلا العقاد.

وتابعت تعبيرات وجه أديبنا الكبير فوجدت أساريره قد انفرجت بالتدريج وزالت عنه الشكوى من أسبوع الآلام، وأخذته المناقشة الفكرية مع الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى عوالم أخرى شعر فيها بالعافية، فعبر عن حماس يقترن بالشباب وهو يثب في الحديث مع ضيفه الكبير برشاقة من موضوع إلى موضوع، ونحن جلوس نتابع حوار العمالقة ونتساءل فيما بيننا: متى يجود الزمان ثانية بمثل هؤلاء الرجال؟!

إريك إيمانويل شميت
محفوظ وأبو الهول

قال لي الكاتب الفرنسي الشهير إريك إيمانويل شميت صاحب رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن»: لحظتان لي في مصر لن أنساهما أبدًا، اللحظة الأولى كانت وقت زيارتي للأهرامات ووقوفي بين قدمي أبي الهول الذي يجسد تاريخ مصر القديم ومجدها الغابر، واللحظة الثانية حين مثلت بين يدي الأديب العالمي الكبير نجيب محفوظ الذي يجسد ثقافة مصر المعاصرة وضميرها الحي.

كان الأستاذ ينتظرنا في المنزل وهو يرتدي «روب دي شامبر» حريريًّا لا يخرجه إلا حين يكون لديه ضيف كبير يعزه، أما الضيوف الرسميون فهم يضطرونه لارتداء البدلة وهو ما أصبح يشكل للأستاذ جهدًا جسمانيًّا لم يعد قادرًا عليه. ومن «الروب» الحريري عرفت على الفور أن أديبنا الأكبر قد وضع زائره الكاتب الفرنسي اللامع إريك إيمانويل شميت في موضع الأعزاء لديه.

وقد اتضح أن لمحفوظ هو الآخر مكانة خاصة عند شميت، فقد أخبر شميت مضيفه في بداية لقائهما أنه طلب لقاءه؛ لأن معظم كتّابه المفضلين

قد رحلوا عن العالم؛ لذلك فقد انتهز فرصة زيارته الأولى لمصر كي يقابله باعتباره أحد كتّابه المفضلين وهو شيء نادر يعتز به أيما اعتزاز.

فابتسم محفوظ وقال له: إنه هو أيضًا كان يتطلع للقائه، ثم قال: لقد قرأ عليَّ صديقي محمد سلماوي أجزاء مطولة من روايتك «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» وأعجبت بها إعجابًا شديدًا، لقد وجدت بها بعدًا إنسانيًّا قويًّا هزني من الأعماق.. إنه قصة بسيطة جدًّا لكنها كبيرة الدلالة.

ولم أكن أتصور أن هناك الكثير الذي يجمع الأديب الفرنسي الزائر ونجيب محفوظ، فشميت كاتب شاب ولد عام 1960، وقد بدأ كاتبًا مسرحيًّا ثم اتجه بعد ذلك إلى الرواية فكتب روايات تميل إلى القصر ويعتمد على ما يبدو أنه بساطة متناهية في عرض الأحداث وفي اللغة أيضًا، ولقد ظل شميت متمسكًا بالقالب المسرحي حتى بعد أن كتب الرواية، فصار كثيرًا ما يعيد صياغة رواياته لتصبح مسرحيات ويعيد كتابة مسرحياته لتصبح روايات، ولقد عرضت رواية شميت ذائعة الصيت «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» في البداية كمسرحية ونالت نجاحًا ملحوظًا، لكنها حين تحولت إلى رواية زاد انتشارها حتى باعت في فرنسا 300 ألف نسخة قبل أن تتم ترجمتها إلى 20 لغة أخرى كان من بينها أخيرًا العربية.

أقول: إنني لم أكن أتصور أن هناك ما يجمع بين شميت ومحفوظ، إلى أن تقابل الكاتبان فتلاقيا حول الكثير من النقاط المشتركة فيما بينهما، فهناك أولاً ذلك البعد الإنساني العميق الذي يميز رواياتهما، وهناك البعد الصوفي أيضًا، ثم هناك دراسة الفلسفة التي تشكل عن طريقها البعد المعرفي لكل منهما.

قال شميت لمحفوظ: «إن ثلاثيتك بالنسبة لي يا أستاذ نجيب مثل أعلى في عالم الرواية لا يستطيع كاتب أن يبلغه».. فرفع محفوظ حاجبيه قائلاً: «يا سلام؟!» فسأله شميت مستغربًا: «ألم تكن تدرك وأنت تكتب «**الثلاثية**» أنك تكتب عملاً كبيرًا؟!» قال محفوظ بعد لحظة صمت: «لا، كنت أدرك فقط أنها يمكن أن تكون من أفضل ما أكتبه أنا، لأني لم أكن أقرأ آنذاك إلا روائع كبار الأدباء، لذلك فكل ما كنت أكتبه كان يبدو لي متواضعًا بالمقارنة».. فسأله شميت بدوره: «وما هي الأعمال الكبيرة التي قرأتها في ذلك الوقت؟».

فقال محفوظ: «قبل أن أكتب «**الثلاثية**» كنت قد قرأت كل ما وقعت عليه يدي من الأعمال الروائية التي تتعرض أحداثها لتتابع الأجيال، مثل أعمال توماس مان الألماني وجولزورثي البريطاني، لكن أول ما جذبني لقضية الأجيال كانت رواية طه حسين «شجرة البؤس». قال شميت: «إني أرى في «**الثلاثية**» أيضًا بعض تأثيرات كبار الروائيين الروس»، فقال محفوظ: «لقد أحببتهم كثيرًا، خاصة تولستوي وترجنيف وتشيكوف»، فسأله شميت: «كم استغرقت كتابة هذا العمل الملحمي الكبير؟» قال محفوظ: «حوالي أربع سنوات، ولو لم أكن موظفًا يتحتم عليَّ الذهاب يوميًّا إلى العمل لأنجزتها في وقت أقل، فأنا في ذلك الوقت كنت كاتبًا لنصف الوقت فقط ولم أكن متفرغًا للكتابة».

وحلت لحظة صمت بين الرجلين فتصورت أن حديث «**الثلاثية**» قد انتهى، من ناحية محفوظ بدافع ما عرف عنه من تواضع، ومن ناحية شميت لأنه أفرغ ما عنده من أسئلة، لكني فوجئت بشميت بعد برهة من التفكير يبدي ملاحظة أعتقد أنها من أدق وأصدق ما قيل عن «**الثلاثية**» وعن أعمال

محفوظ بصفة عامة؛ حيث قال: «لقد وجدت عندك يا أستاذ محفوظ شيئًا غريبًا جدًّا فأنت تجمع بين الحسنيين؛ لأن هناك في أعمالك اهتمامًا فنيًّا شديدًا بالتفاصيل، لكن هناك في نفس الوقت معمارًا كبيرًا مسيطرًا لا تخطئه العين، وهذا واضح بشكل جلي في «**الثلاثية**»، وفي العادة فإن مَن يولون اهتمامهم للتفاصيل قد تغيب عنهم أبعاد البناء العام، لكنني لم أجد الاهتمام بالاثنين إلا في كتّاب قليلين جدًّا، من بينهم أنت ومارسيل بروست، وأنتما الاثنان من بين كتّابي المفضلين».

قال محفوظ: «إن بروست من بين كتّابي المفضلين أيضًا، ولقد قرأت روايته الضخمة «بحثًا عن الزمن الضائع» في ترجمتها الإنجليزية، وما إن انتهيت منها حتى شعرت أنني أريد قراءتها من جديد»، فسأله شميت: «هل كنت تقرأ الأدب الفرنسي دائمًا بالإنجليزية؟» قال: «لا، لقد قرأت لأناتول فرانس مثلاً بالفرنسية وتصورت وقتها أنني أستطيع أن أقرأ كل الأدب الفرنسي في لغته الأصلية، لكني حين بدأت بعد ذلك قراءة رواية «مدام بوفاري» لجوستاف فلوبير أدركت في الصفحات الأولى أن اللغة الفرنسية أعقد بكثير من أسلوب أناتول فرانس الذي كنت أعشقه»، وبدت على محفوظ علامات الأسى وهو يقول: «وإنه ليؤلمني ألمًا شديدًا اليوم أن كاتبًا كبيرًا مثل أناتول فرانس قد أصبح مهملاً في فرنسا»، فيشاركه شميت أسفه وهو يقول: «هذا صحيح، فإنهم لا يقرأونه كثيرًا الآن في فرنسا، لكن الحقيقة أن الشباب من قراء الأجيال الجديدة بدأوا يكتشفون أناتول فرانس من خلال روح الدعابة التي يتميز لها وسخريته وتشككه، وأنا أعتقد أنه عما قريب قد يعود مرة أخرى ليتبوأ المكانة التي يستحقها في الأدب الفرنسي». وتبدو على محفوظ بعض علامات الارتياح، ثم يسأل

الأديب الفرنسي في شغف: «وماذا عن حركة الرواية الجديدة أو الرواية الضد؟ هل عاد أحد يذكرها الآن في فرنسا؟ وماذا عن بعض كتّابها الكبار مثل ناتالي ساروت؟» فيقول شميت: «إن الرواية الجديدة أصبحت الآن قديمة كما تعرف، أما ناتالي ساروت فهي مازالت كاتبة كبيرة لها مكانتها، ولكن لأسباب شخصية تتعلق بأدبها ولا تتعلق بانتمائها إلى حركة الرواية الجديدة، وهذا وضع سليم في رأيي لأن قيمة الكاتب يجب أن تنبع من خصائصه الشخصية وليس من أنه ينتمي إلى حركة فنية معينة، وتلك هي قيمة الكتّاب الأجانب الكبار الذين عرفناهم في فرنسا الذين أنت منهم يا أستاذ محفوظ، فقد ساهمت رواياتكم في إعادة ثقتنا في الرواية كما نعرفها وفي تذكيرنا بقيمتها بعيدًا عن سطوة الرواية الجديدة».

وأعاد محفوظ دفة الحديث مرة أخرى إلى كتابات ضيفه فقال: «لقد لاحظت مما قرئ لي من روايتك «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» أن بها بعدًا صوفيًّا جميلًا، فهل هذا البعد موجود في أعمال أخرى لك أم أن وجوده هنا كان بسبب أن بطل الرواية كان صوفيًّا»، فقال شميت: «أستطيع أن أقول إن هذا البعد موجود بشكل أو بآخر في الكثير من رواياتي، فإذا كانت الصوفية بمعناها العام هي التوحد مع الكون ومع الخالق، وإذا كانت هي تلك النظرة الحكيمة لما وراء ظهر الأشياء، وإذا كانت هي التكامل بين التعبد والفن وعدم الفصل التعسفي بينهما، فهي بالتأكيد موجودة في أعمالي».

فسأله محفوظ: «وكيف وصلت إلى الصوفية؟» قال: «عن طريق الموت، فقد ضللت طريقي في صحراء الجزائر، وأمضيت الليل ممددًا

على الرمل أنظر إلى السماء وأنتظر الموت، لكني وجدت بدلاً منه الإيمان، فقد دخلت الصحراء ملحدًا وخرجت منها مؤمنًا، ودعني أقول لك صراحة: إن كتاباتك كانت إحدى وسائلي في التعرف على الصوفية، ففي أعمالك بُعد صوفي واضح، فما علاقتك أنت بالصوفية؟»، قال محفوظ: «إنني أقرأها كفن أدبي، قال شميت: «وأنا أيضًا، فقد تعرفت على عالم الإسلام من خلال الصوفية وبالذات من الجانب الأدبي للصوفية، وقد كان دليلي لهذا هو الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي»، فقال محفوظ: «لقد استمتعت أنا أيضًا بشعره، فقد قرأته في السنوات الخوالي، وكنت كثيرًا ما أعود إليه»، ثم التقط محفوظ خيط الأسئلة مرة أخرى فسأل ضيفه: «هل درست الفلسفة؟ إنني أشعر أن وراء أعمالك فيلسوفًا!». فابتسم شميت وهو يقول: «يبدو أن القواسم المشتركة بيننا كثيرة، فقد كانت دراستي الجامعية مثل دراستك في الفلسفة، وتصورت في البداية أني سأعمل بها بقية حياتي، خاصة حين عينت معيدًا بالجامعة، لكني مثلك كنت أكتب أدبًا وأتركه جانبًا متصورًا أنه هواية خاصة لن تصبح هي عملي الأصلي، وأيضًا مثلك اكتشفت الحقيقة بعد ذلك، وهي أن الكاتب يتحرر في النهاية من كل الوظائف الأخرى من أجل كتابته»، قال محفوظ: «معك حق، وهذا هو ما حدث لي بالفعل، ولكن مع فارق واحد وهو أنني حين اتجهت إلى الأدب بشكل نهائي لم أستطع أن أترك الوظيفة الحكومية؛ لأن عندنا من الصعب أن يتعيش كاتب من كتابته وحدها»، ثم يضيف وكأنه يريد أن يطمئن ضيفه أكثر مما يطمئن نفسه: «لكن الوقت الذي أمضيته في الوظيفة لم يكن ضائعًا بالكامل، فقد أعطاني مادة ثرية جدًّا لأعمالي، من حيث الشخصيات والأحداث والعلاقات، وبعضها أشياء ربما لم أكن لأتعرف عليها لو لم أدخل مجال الوظيفة الحكومية».

وهنا تدخلت لأقول لشميت: إن الوقت الذي كان يخصصه الأستاذ نجيب يوميًا للكتابة حين كان موظفًا بالحكومة كان يزيد عن بعض ما يقضيه بالكتابة أدباء متفرغون، فقد كان يمضي ما يتراوح ما بين ثلاث أو أربع ساعات يوميًا جالسًا على المكتب، في يده القلم وأمامه الورقة، وسواء جاءته الكتابة أو لم تجئ فهو لم يكن ينهض من على المكتب، ولاحظ محفوظ حديثنا الجانبي فسألني: «ماذا تقول له؟»، فقلت له، فأضاف: «نعم فقد كنت مثل الموظف، هل يحق للموظف إذا لم يجد عملاً أن يترك مكتبه وينصرف؟».

ثم عاود محفوظ فضوله إزاء زميل المهنة الذي جاء يزوره فسأله: «هل تعيش أنت يا مسيو شميت من دخل كتبك؟» فرد شميت: «الآن نعم، من الكتب والمسرحيات وبعض الأفلام، فقد تحولت رواية «مسيو إبراهيم» إلى فيلم سينمائي، وتم أخيرًا شراء حقوق رواية أخرى لي هي «ابن نوح» كي تتحول هي الأخرى إلى السينما، وهي لا تقارن بالطبع بعشرات الأفلام التي اعتمدت على كتاباتك الروائية والقصصية» فقال محفوظ: «لقد أخبرني أصدقائي الذين شاهدوا فيلمك أنه كان رائعًا، أما أنا فبعض الأفلام المأخوذة عن كتاباتي كنت أود ألا تكون قد رأت النور»، فقال شميت ضاحكًا: «إن الفضل في نجاح فيلمي كان في الحقيقة لعمر الشريف، ووالدتي مثلاً كانت تفضل أن أكون أستاذًا في الفلسفة، لكن حين مثّل عمر الشريف فيلم «مسيو إبراهيم» بدأت أمي تحترمني وتقدر عملي كأديب».

ومن السينما انتقل الحديث إلى المسرح فسأل شميت محفوظ: «لماذا لم تستمر في كتابة المسرح بعد مسرحياتك الخمس ذات الفصل الواحد؟»، فقال محفوظ: «لقد كتبت بعد ذلك قصصًا قصيرة قائمة على الحوار فقط وكأنها مشهد مسرحي»، ثم سأله: «هل أنت في مسرحك أقرب إلى المدرسة الوجودية مثل كامو وسارتر أم أنك تتبع العبثيين من أمثال يونسكو وبيكيت؟» فقال شميت: «لقد تعلمت على يد الاثنين معًا، لكني أحاول ألا أتبع أيًا منهما، لكني أفهم المغزى من سؤالك، ومن هذا المنطلق أستطيع إن أقول إن مسرحي قد يكون أقرب إلى الوجوديين من حيث إن منطلقاته فلسفية إلى حد كبير».

وتستمر لعبة الأسئلة والأسئلة المقابلة بين الكاتبين وكأنها مباراة ودية في تنس الطاولة وأنا جالس بينهما أتابع السؤال من هنا والجواب من هناك، ويكون الدور الآن على الكاتب الفرنسي الذي يسأل محفوظ في شغف: «هل معرفتك بالشخصيات الإنسانية التي ترسمها نابعة من الملاحظة أم من التخيل؟». وأردت أن أعيد هذا السؤال المباغت على الأستاذ، لكن قبل أن أشرع في ذلك كان نجيب محفوظ يرد عليه بلا تردد: «من الاثنين معًا»، ثم يضيف في هدوء: «لقد كنت أجلس في المقهى وألاحظ كيف يتحدث الناس وكيف يتحركون، ثم أتخيل ذلك كله وأتعامل معه بالإضافة والحذف، وقد تأتي الشخصية في النهاية مختلفة تمامًا عن الأصل الذي أوحى بها».

ويصمت أديبنا الأكبر وقد أحنى رأسه ناظرًا إلى أسفل، ويصمت الأديب الفرنسي متأملًا الأديب المصري الكبير، وتمر اللحظات بسرعة

وأبدأ النظر في ساعتي فيتنبه محفوظ لذلك، ويقول: «لا تنظر للساعة!»، لكن موعد الانصراف كان قد حان، فنظر كل من الأديبين إلى الآخر دون كلام، ولاحظت نظرة أسى في عيني الكاتب الفرنسي الذي قال بعد أن خرجنا: «إنني سعيد جدًّا بهذا اللقاء، فأنا أعرف أنني إذا عدت ثانية إلى مصر فسأجد أبا الهول في مكانه، لكنني أخشى ألا ألقى محفوظ ثانية».

رئيس وزراء إسبانيا
حديث الأندلس وأرفع الأوسمة

في شتاء 2001 اتصل بي السفير الإسباني في القاهرة ليخبرني أن رئيس الوزراء خوسيه ماريا آثنار الذي سيقوم بزيارة رسمية لمصر في الأسبوع التالي، قد وضع في برنامج زيارته أن يقوم بتقليد نجيب محفوظ أرفع وسام أدبي في إسبانيا.

وقد عرضت الموضوع على الأستاذ نجيب، وتم تحديد موعد زيارة رئيس الوزراء الإسباني في نفس يوم زيارتي لمحفوظ بعد أن قال لي - كالعادة-: إبقى هاته معاك يوم السبت. وقد تمكنت بصعوبة شديدة وبمساعدة السفير أن أجعل زيارة رئيس الوزراء لمحفوظ في نفس اليوم الذي طلبه بالرغم من مقابلاته الرسمية الأخرى التي ليس من السهل تغيير مواقيتها المحددة سلفًا.

وفي الموعد المحدد حضر رئيس الوزراء الإسباني ومعه زوجته آنا بوتيللا دي آثنار، ومعهما السفير الإسباني المستشار الثقافي للسفارة، الذي حمل معه الوسام الأكبر الذي أحضره معه رئيس الوزراء من مدريد ليقلده محفوظ.

كان اتفاقي مع السفير ألا تطول الزيارة عن نصف الساعة، لكن الحوار امتد بأكثر مما كان مقدرًا له، فاستغرقت الزيارة مع تسليم الوسام ثلاثة أرباع الساعة؛ حيث تحدث آثنار وزوجته طويلًا عن أعمال محفوظ التي قرآها وأبديا ملاحظاتهما على كل منها، خاصة السيدة آنا بوتيللا التي لم تكتفِ بقراءة الروايات المترجمة إلى الإسبانية، وإنما قرأت أيضًا بعض الروايات التي ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية.

وقد بدأ محفوظ الحديث مرحبًا بضيفه وزوجته، وقال: إن زيارتهما تختلف عن زيارة أي مسئول كبير من دولة أوروبية أخرى؛ لأن هناك خصوصية للعلاقات التاريخية الوثيقة التي ربطت بين الحضارة العربية وإسبانيا على مر العصور. وتحدث الأستاذ عن شعراء الأندلس، وقال: إن التكامل الذي حدث بين الحضارتين العربية والإسبانية تشهد عليه مساجد غرناطة وأشبيلية وقرطبة ومبانيها القديمة التي جمعت في معمارها ما بين الشخصية العربية والتقاليد الإسبانية.

ورد آثنار على ذلك قائلًا: إن الشعبين العربي والإسباني تمكنا من الحفاظ على العلاقة الوثيقة التي ربطت بينهما في جميع الظروف، وهو ما جعل إسبانيا تقف دائمًا مع الحق العربي، وأكد آثنار أن إسبانيا تشعر بارتباط وثيق مع الشرق الأوسط والقضية العربية هي قضيتها، لذلك فلم يكن من قبيل المصادفة أن المؤتمر الذي بدأ عملية التسوية للصراع العربي الإسرائيلي كان مؤتمر مدريد عام 1991 ، الذي مازال يعتبر هو المرجعية الرئيسية في محاولات التسوية، وقد انطلق من بعده مسار بوشلونة من إسبانيا أيضًا عام 1995.

ثم انتقل الحديث عن الأدب فتحدث محفوظ عن كاتب إسبانيا الكبير سرفانتس، وقال: إن رائعته العظيمة «دون كيشوت» هي في رأيه أكثر رواية كان لها تأثير على الآداب العالمية، وقال: إنه قرأ كل أعمال «فدريكو جارسيا لوركا» و«خوسيه كاميللو ثيلا» الفائز بجائزة نوبل.

فقال آثنار: والعالم يضعك يا مستر محفوظ في مصاف هؤلاء جميعًا، ثم تحدث عن «**الثلاثية**» التي قال إنها أول ما قرأ لمحفوظ، واعترف أن ذلك كان بعد فوزه بجائزة نوبل عام 1988، وقال: إنه عمل عملاق ليس كمثله عمل آخر.

ثم تحدثت السيدة آنا بوتيلا، فقالت: إن أحدث ما قرأت من أعمال محفوظ هو «**أصداء السيرة الذاتية**»، والذي لم يصدر بالإسبانية بعد، وسألت محفوظ: ماذا يمثل له هذا الكتاب، فقال: هو كما يدل عنوانه نوع من السيرة الذاتية الخفيفة، فهو ليس سيرة حياتي، وإنما صداها. فسألته: ولماذا لم تكتب سيرتك الذاتية كما فعل الكثير من كبار الكتّاب؟

فرد: ربما كان لديهم في حياتهم ما يهم الناس، أما أنا فحياتي عادية ليس فيها شيء خارق يستحق الكتابة، لذلك فقد أخذت بعض اللحظات أو الأفكار ذات المغزى التي مرت عليَّ في حياتي وقدمتها في شكل أدبي، هذا كل ما في الأمر.

قالت: لكنك قدمت بذلك قالبًا جديدًا تمامًا علينا في الغرب، فهل نقلته عن التراث الأدبي العربي مثلاً؟

قال: لا، لم أنقله من أحد.. فسألته سؤالاً مباشرًا: هل ابتدعت هذا الأسلوب الجديد؟

فقال: كل عمل فني، مهما كان ملتزمًا بتقاليد سابقة هو ابتكار جديد، وإلا فهو لا يستحق أن يكون عملاً فنيًا، فالقارئ لا يقبل على رواية أو قصيدة ليقرأ فيها ما سبق أن قرأه من قبل بأقلام كتّاب آخرين، وإنما ليقرأ ما لم يقرأه من قبل، وربما ما لم يكن يتخيله أو يتوقعه.

فقالت: لقد أجمع النقاد في الخارج على أنك أدهشتنا في «**أصداء السيرة الذاتية**»، وقدمت لنا ما لم نكن نتخيله أو نتوقعه.

ثم قالت: لقد سمعنا عن «**أحلام فترة النقاهة**» التي ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية ومازلنا ننتظرها باللغة الإسبانية، لكن مما قرأناه عنها يبدو أنها تعتمد هي الأخرى على المقطوعات القصيرة التي بدأتها في «**أصداء السيرة الذاتية**».

فقال: هذا صحيح، فـ«**الأحلام**» جاءت كتطور طبيعي بعد «**أصداء السيرة الذاتية**»، ولست أعرف متى ستصدر بالإسبانية، فأنا لا أتابع عمليات الترجمة، وإنما تتولاها دار نشر الجامعة الأمريكية التي تعتبر وكيلي الأدبي فيما يتعلق بالعالم الخارجي، وهم يقدمون لي بيانًا بما يتم ترجمته ونشره في الخارج، لكنني لا أعلم به إلا في حينه.

قالت: إذا كانت المرحلة الحالية من حياتك الأدبية قد اعتمدت على المقطوعات الخاطفة التي كثيرًا ما تفصح عن أكثر مما تفصح عنه الصفحات الطوال، فإن كتاباتك الأولى كانت كلها روايات طويلة، فكيف تنظر الآن إلى مراحل كتابتك المختلفة؟

قال: قد كانت كلها سلسلة متصلة من عمل الأديب، فالإنسان يتغير من مرحلة إلى أخرى، وبالتالي تتغير نظرته للحياة، ويتغير بالتالي أسلوبه الفني،

وقديمًا قال فيكتور كوزان: الأسلوب هو الرجل، لذلك فالأسلوب الفني يتغير مع كل تغير يطرأ على الكاتب، وهذا لا يعني بالضرورة أن المرحلة الأولى أفضل من التالية، أو أن المرحلة الأخيرة أفضل من سابقتها، فنحن نتحدث هنا عن تغيير وليس عن ارتقاء.

ثم سأله خوسيه ماريا آثنار: لقد قرأت في سيرتك أنك كنت رئيسًا للرقابة في فترة من الفترات، فكيف تقيّم هذه التجربة؟

قال: إنني راض عنها، فالرقابة كانت موجودة وتصورت أن وجودي فيها يمكن أن يخدم الفن والثقافة أفضل مما يمكن أن يكون لو أتوا بموظف حكومي ليتولاها، وأعتقد أنني خدمت قضية الثقافة وكذلك قضية الأخلاق العامة بقدر استطاعتي.

ثم مال عليَّ الأستاذ وهمس: موش كفايه كده بقى؟.. ونظر رئيس الوزراء إليَّ ينتظر أن أواصل ترجمة ما قاله محفوظ، فقلت: الأستاذ يقول شرفتونا وآنستونا! فرد آثنار على ذلك بكلمات مشابهة، ثم بدأت مراسيم تقليد الوسام، فقرأ رئيس وزراء إسبانيا براءة الوسام وحيثيات منحه التي جاء فيها أن محفوظ أثرى الأدب الإنساني على مدى ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن، وأن تأثيره تخطى حدود مصر والوطن العربي ليشمل العالم أجمع.

روبير سوليه:
«أنت الحكّاء الأكبر»

حضر الكاتب الروائي والصحفي الفرنسـي المعروف روبير سوليه إلى نجيـب محفوظ ليقدم له بعـض مؤلفاته الروائية ممهـورة بإمضائه وبكلمة رقيقـة قـال فيها: «إلى نجيب محفوظ شـيخ الحكائين جميعًـا الذي تعلمنا منه فن الحكي».

كانـت أحدث روايات سـوليه تحمل عنوان: «المملوكـة»، وقد أثارت اهتمامًا أدبيًا في فرنسا باعتبارها تتحدث عن مرحلة غير مطروقة في التاريخ المصـري الحديـث، فالروايات التـي كتبها بعض الروائيين الفرنسـيين من ذوي الأصـول المصرية مثل ألبير قوصيري وأندريه شـديد كانت تدور في معظمها في مصر الحديثة، بينما عاد روائيون فرنسـيون آخرون إلى التاريخ المصري القديم، وأشهر هؤلاء هو كريستيان جاك الذي كتب ما يقرب من 20 رواية مستوحاة كلها من التاريخ الفرعوني.

أما فترة المماليك ومحمد علي، فربما كانت رواية «المملوكة» هي أول رواية في الأدب الفرنسي الحديث تتخذها موضوعًا لأحداثها، وقد سبقت رواية «المملوكة» رواية سـوليه الأولى التي لفتت إليه الأنظار والتي تحمل عنوان: «الطربوش».

وإلى جانب إنتاجه الروائي فقد عمل روبير سوليه في الصحافة منذ أتم دراسته في الإعلام والتي من أجلها ترك مصر في سن الـ17، فعمل بجريدة «لوموند» الغراء محررًا، ثم مراسلاً في كل من روما وواشنطن، وتدرج في المناصب حتى وصل إلى موقع رئيس التحرير.

قدم سوليه نفسه لمحفوظ قائلاً: أنا كاتب يعتبرك أحد أساتذته في الفن الروائي، أصولي مصرية وأنا صديق لمحمد سلماوي، فضحك نجيب محفوظ، وقال له: هل أدرجت هذه التفاصيل في سيرتك الذاتية؟ فرد سوليه بشيء من الجدية: ليس كلها، لكني أحرص دائمًا على أن أقول إن أصولي مصرية، فسأله محفوظ: أصولك مصرية أم أنك ولدت في مصر؟ فقال سوليه: الاثنان معًا، فقد ولدت بالفعل في مصر عام 1946 وتعلمت في مدارس الليسية ثم الجزويت، وعائلتي انحدرت منذ بضعة أجيال سبقتني من أصول شامية مسيحية، لكني مع ذلك أقول إني من أصول مصرية وذلك لسببين: أولاً: لأني أعتقد أن الذي يحدد أصول كل إنسان وهويته هي عواطفه، وأنا أشعر بعواطفي أنني مصري ولست شاميًّا، ثانيًا: أن مصر تمتاز بخاصية غريبة وهي أنها تستوعب كل مَن يعيش فيها وبعد جيل واحد يصبح نسله مصريًّا خالصًا.

فقال له محفوظ: عندك حق، فإذا كنا لا نستطيع أن نقول عن كليوباترا إنها يونانية، ولا عن الملك فاروق إنه ألباني، فلا ينبغي أن نقول عن «روبير سوليه» إلا أنه مصري.

قال سوليه: حين غادرت مصر في عام 1963 وذهبت للدراسة في فرنسا كنت أشعر في البداية أنني فرنسي، فلغتي الأولى هي الفرنسية، ودراستي

سـواء في فرنسا أو في مصر كانت فرنسـية، وثقافتي وأهوائي كلها فرنسية، لكني حين بدأت أكتب وجدت أن رصيدي الحضاري والوجداني مصري، ومنذ روايتي الأولى «الطربوش» عدت إلى هذه الأصول ولم أبرحها حتى الآن، بدأت بالعودة إلى فترة ما بين الحربين، ثم رجعت إلى فترة المماليك ومحمـد علـي وبونابرت، ثم انتهيـت إلى التاريخ القديـم الذي أكتب الآن رواية جديدة مستوحاة من أحداثه.

ويسـتطرد روبير سـوليه: لكن دعني أقول لك يا أستاذ محفوظ إنني في ذلك كله كنت أسـتلهم أدبك الرفيع، وأنا أعتبر كل رواية من رواياتك مثالاً يحتذى.

فقال محفوظ: وأنا في شبابي كنت أنظر نفس نظرة التقدير هذه لعمالقة الرواية الفرنسية. فسأله سوليه عن قراءاته في هذا المجال، فقال: لقد قرأت أناتول فرانس بلغته الأصلية، وتصورت لبسـاطة أسلوبه أنني ملكت ناصية اللغة الفرنسـية، فذهبت إلى رواية «مدام بوفاري» لفلوبير فوجدت نفسـي أمضي مع القاموس وقتًا أطول مما أمضيه مع الرواية.

ويضيف الأسـتاذ: لذلك فحين قررت قراءة مارسـيل بروست وبلزاك، ذهبت مباشـرة إلـى الترجمـات فقـرأت الأول باللغة الإنجليزيـة، وقرأت الثاني في ترجمته العربية، كما قرأت أيضًا راسين وكورني باللغة العربية، أما موليير فقد قرأت بعض أعماله بالفرنسية والبعض الآخر باللغة العربية.

وسـأل سـوليه الأسـتاذ: ما هي الكتب التي قرأتها لأناتول فرانس لغتها الأصليـة؟ فقال: «الزنبقة الحمراء» و«تاييـس» و«العلبة الصدفية» و«الآلهة عطشـى»، كمـا قرأت كتبًـا أخرى باللغة الفرنسـية ولكن مـن خارج مجال

الأدب، خاصة كتب الفلسفة، فقد كان لدينا في قسم الفلسفة بكلية الآداب أستاذ فلسفة فرنسي يدعى مسيو كوريه، وكان أستاذًا في السوربون بفرنسا، هذا الأستاذ كان يدرس لنا الفلسفة باللغة الفرنسية وكانت الكتب التي يقررها علينا بالفرنسية أيضًا، وهكذا أصبح من الأسهل عليَّ أن أقرأ كتب الفلسفة والكتب الأخرى غير الأدبية بالفرنسية، أما الكتب الأدبية فقد وجدت أن لغتها تحتاج لحصيلة لغوية عالية.

ثم يقول الأستاذ: إن عمالقة الرواية الفرنسية ساهموا في إثراء الفن الروائي العالمي بشكل كبير، ولا أتصور أن يتصدى أحد للكتابة الروائية في العالم دون أن يدرس أعمالهم العظيمة.

فيرد الروائي الفرنسي: إنك أنت الحكّاء الأكبر في عالمنا الآن يا أستاذ محفوظ، فقد ظللت تحكي لنا القصص طيلة الجزء الأكبر من القرن العشرين، ومازال العالم حتى الآن يستكشف بعض روائعك من خلال الترجمة.

فقال الأستاذ: لكن مدرسة الرواية الجديدة عندكم في فرنسا أو ما عرف بالرواية الضد Anti-Roman تخلصت من الحدوتة على يد رائدها آلا نروب جرييه وناتالي ساروت ومارجريت دوراس، وأنا لم أتقبل أعمال روب جرييه بينما أعجبتني روايات ساروت ودوراس، ولم أجد في رواياتهما الغموض الذي يستعصي على الفهم في روايات روب جرييه. فرد سوليه: كان ذلك في أواسط القرن الماضي، وقد مضى الآن عهد الرواية الجديدة وأصبحت «موضة قديمة» (نطقها بالعربية) وعاد الناس

الآن يتوقـون لسـماع الحكايـات؛ وهـذا هو سـبب رواج الروايـة الآن في فرنسا، وأحد أسباب إقبال الناس على أعمالك العظيمة.

ثم يسأل سوليه نجيب محفوظ: ألا تعتقد أن الرواية يجب دائمًا أن تروي قصة؟ فيقـول: القصة هي أسـاس الفن الروائي، ومحـاولات اتباع الرواية الجديـدة أفـادت الفن الروائي بلا شـك، وحتـى وإن لم يتبعهـا الجمهور؛ لأنهـا تدخل في باب التجريـب الفني المفيد للكاتب الروائي، لكن سـحر الحكاية لا يقاوم.

ويواصل سـوليه حديثـه قائلاً: إنك أنت لم تحد أبـدًا عن الحكاية حتى فـي أعمالـك الجديدة متناهيـة القصر التـي تكتبها الآن باسـم «**أحلام فترة النقاهـة**»، لقد قرأتها في ترجمتها الفرنسـية التي قدم لها محمد سـلماوي، والتـي صدرت أخيرًا في باريس؛ حيث الحلم لا يزيد على فقرة أو فقرتين، لكنه قد يقدم قصة حياة كاملة.

ويحـاول محفوظ أن يرد تحية ضيفه الفرنسـي، فيقـول: مما أعرفه عن أعمالـك فـإن موضوعاتهـا كلها مسـتقاة من التاريـخ المصري، فهـل تتّبع أسلوبًا فنيًّا معينًا؟

فقال سـوليه: ليس بمقدور كل أديب أن يتجول مـا بين المدارس الفنية كمـا يفعل نجيب محفوظ، فأنت تتميز يا أسـتاذ بيـن الكثير من أدباء العالم بأنـك تكاد تكـون قد كتبت كل الأسـاليب والمدارس الفنيـة المعروفة في الرواية، فرغم أنك برعت في الرواية الواقعية، فإنك قدمت لنا أعمالاً رائعة تنتمـي إلى مذاهب أخرى كالتعبيرية والرمزية والملحمية وحتى التجريبية، فدعني أسألك كيف تسنى لك ذلك؟

فـرد الأسـتاذ: أنا في الحقيقـة لا أفكر فـي المذاهب الفنيـة وأنا أكتب، وإنما أجد نفسـي مدفوعًا في اتجاه معين تفرضه عليَّ طبيعة العمل الجديد الـذي أنا بصدد كتابته، بعد ذلك أجد النقـاد يقولون: هذا العمل ينتمي إلى المدرسة الواقعية أو الرمزية.. وهكذا.

فقـد بدأت أكتب الرواية التاريخية، لكني حين جذبني التاريخ المعاصر وبدأت أكتب عنه اختلف بالضرورة أسلوبي، لأن الأسلوب يتشكل حسب الموضـوع، وهكذا دخلـت في مرحلـة الواقعية لأني كنـت مهتمًا بتصوير تفاصيل الحياة المعيشة، لكن حين قامت ثورة يوليو 1952 وبدأت بإخراج الملـك وإعـلان الجمهورية وتطبيـق قانون الإصلاح الزراعـي، تغيّر ذلك الواقع الـذي كان هو المادة الأساسـية فـي رواياتي ولـم يكـن من الممكن أن أسـتمر فـي الكتابـة عن واقع غيـر موجـود، فتوقفت عـن الكتابة، وبعد خمس سنوات وجدتني ألجأ إلى عمل ملحمي يعتمد على الرمزية أكثر من الواقعية هو رواية «**أولاد حارتنا**».

فقـال سـوليه: تريـد أن تقول إن التطـورات التاريخية كانـت هي الدافع لتحولك من أسلوب فني إلى أسلوب آخر؟

قـال: ربما، فأنا متابع دقيق لكل التطورات التي تحدث في واقعنا الذي نعيشـه، وأجد أننـي مرتبط بالقضايـا العامة التـي يواجههـا مجتمعنا، لكن وسـيلتي فـي النهايـة كأديب هي الأسـلوب الفنـي، وهنا أجد نفسـي ألجأ للأسـلوب الذي يفرضه عليَّ الموضوع، والذي قـد يختلف من رواية إلى أخرى.

أورهان باموك
حديث عن محفوظ الذي لم يقابله

حين زار كاتب تركيا الكبير أورهان باموك الفائز بجائزة نوبل مصر عام 2007، كان كاتب نوبل المصري نجيب محفوظ قد رحل عن عالمنا، والحقيقة أنه رحل في نفس العام الذي فاز فيه باموك بالجائزة وهو 2006.

كانت تلك الحقيقة من الأشياء التي أحزنت «باموك» الذي قال لي إنه كان يتوق للقاء محفوظ، ثم أضاف: هناك كتّاب أقدرهم أكبر تقدير لكني لا أسعى لمقابلتهم، بل قد أفضّل عدم مقابلتهم لما أعرفه عن طباعهم الشخصية، لكن ما أعرفه عن إنسانية محفوظ كان يجعلني أتوق لمقابلة ذلك الرجل العظيم.

قلت: إنني لم أعرف شخصًا في إنسانية محفوظ بطيبته ودماثة خلقه وتواضعه وحبه للبشر واستعداده للعطاء بلا مقابل، سواء من الشباب الذين يسعون إليه للنصح والتوجيه، أو من المواطنين الذين يلجأون إليه في المحن، أو شعوره نحو الوطن وارتباطه بقضاياه، أو حبه للبشرية جمعاء.

ورويت لباموك بعض وقائع لمحفوظ في هذا المجال تعجب لها، وقلت له: لقد كنت أقول دائمًا إنه لو كانت هناك جائزة نوبل للإنسانية لكان نجيب محفوظ أول الفائزين بها.

ثم تحدث باموك عن محفوظ فقال: لقد سعدت جدًّا أن فاز بنوبل كاتب مسلم لأول مرة، وقد فتحت هذه الواقعة الطريق أمامي واسعًا، وقلت لنفسي: ربما يصبح الآن من الممكن أن يفوز بنوبل كاتب مسلم آخر.

فسألته: ماذا يمثل لك نجيب محفوظ؟ قال: بعيدًا عن كونه كاتبًا عالميًّا عظيمًا، فإنني أشعر بتقارب كبير مع نجيب محفوظ، أشعر أنني أعرفه رغم أنني لم ألقه أبدًا!

وسهم باموك قليلاً، ثم عاد يقول: إن محفوظ هو آخر كتّاب الواقعية في القرن العشرين، لذلك لم يكن غريبًا بما حققه في هذا المجال بثلاثيته العظيمة، التي تعتبر من أهم أعمال المدرسة الواقعية في العالم أن يتحول عن الواقعية إلى أشكال جديدة أكثر عصرية وأكثر تجريبية.

قلت: هو مثل كل العبقريات الكبيرة في الفنون والآداب له عدة مراحل في إنتاجه الفني، لكن ربما كان ما يميز محفوظ هو أنه لم يكن يترك المرحلة التي ينتهي منها تمامًا، وإنما كان يتركها ليعود إليها بعد سنوات بعمل جديد، فقد ظل يعود للواقعية بعد أن فرغ من «**الثلاثية**»، كما عاد للمرحلة الفرعونية التي بدأ بها في نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي برواية عن أخناتون في بداية الثمانينيات.

قال: هذا صحيح، لكنه في كل مرة كان يعود بشكل جديد يختلف عن القديم.

ثم قال: وإذا نحينا تلك المدارس والاتجاهات الفنية الغربية جانبًا، فإن محفوظ أول كاتب شرقي استطاع أن يتخطى القالب الغربي في الرواية إلى

أشكال أخرى مستوحاة من تقاليدنا الشرقية القديمة مثل «ألف ليلة وليلة» وغيرها.

ولقد زار أورهان باموك مصر بدعوة من معرض القاهرة الدولي للكتاب، وسعدت أن التقيت به أثناء زيارته عدة مرات، مرة على الغداء وأخرى على العشاء، كما أدرت اللقاء الذي عقده مع جمهور المعرض.

وفي حديث ثنائي قلت لأورهان باموك: لقد كنت كاتبًا معروفًا دوليًّا قبل فوزك بنوبل، وترجمت أعمالك إلى أكثر من 40 لغة، فماذا أضافت لك نوبل؟

قال ضاحكًا: أضافت إليَّ خمس لغات، فقد كانت كتبي مترجمة إلى 46 لغة فأصبحت الآن مترجمة إلى 51 لغة!

ولقد لا يعرف البعض أن الاسم الحقيقي لأورهان باموك هو فريد، وهو اسم يعتز به، لكنه عرف باسمه الثاني وهو أورهان، أما باموك فهو اسم عائلته، وقد ولد فريد أورهان في عائلة متيسرة الحال، وكان والده مهندسًا وكذلك جده، لذلك توقعت عائلته أن يصبح فريد أورهان مهندسًا هو الآخر، لكن ميول الصبي الصغير كانت كلها فنية، وقد بدأ يتجه في سن السابعة إلى الرسم، وكان يتطلع إلى أن يصبح فنانًا تشكيليًّا، لكن عائلته لم تقبل بذلك، وإزاء إصرار الصبي على الاتجاه إلى الفن توصلت عائلته مع الصبي إلى حل وسط، وهو أن يدرس المعمار أولاً من الهندسة فيشبع ميوله الفنية، ويلبي في نفس الوقت رغبة أسرته في أن يكون مهندسًا، وإن كان مهندسًا معماريًّا.

لكن ما إن وصل فريد أورهان إلى سن الـ22 حتى وجد نفسه قد اتجه للكتابة، وكان قد وصل إلى درجة من النضج الشخصي الذي أدرك معه أن اختياره هذا اختيار جاد وليس نزوة طارئة، فترك دراسة المعمار بعد أن وصل في دراسته إلى السنة الثالثة واتجه بشكل نهائي إلى الكتابة.

ويقول أورهان باموك: إني أمضي اليوم ما بين 8 أو 10 ساعات يوميًّا في الكتابة حتى أصبحت المنضدة التي أكتب عليها جزءًا من جسدي والقلم امتداد لإصبعي، وأنا كاتب بطيء لكني مثابر، فأنا أكتب بالقلم وليس بالكمبيوتر، وأشطب وأعيد الكتابة على الطريقة القديمة فأمزق الورقة لأكتبها مرة أخرى ... وهكذا.

قلت لباموك: أول كتبك كان اسمه «الكتاب الأسود»، وأشهر رواياتك تحمل عنوان: «اسمي أحمر»، ولك رواية جميلة اسمها «القلعة البيضاء»، فهل مازال الفنان التشكيلي المغرم بالألوان يعيش في داخلك؟!

قال: لعلمك لقد جمعت بعض مقالاتي، وستظهر قريبًا في كتاب بعنوان: «ألوان أخرى»، فأنا في الحقيقة كاتب بصري Visual Writer أي أنني أرى الأشياء قبل كتابتها، وما أكتبه هو وصف بالكلمات للمشاهد التي أتخيلها، فلا تنسى أنني مارست بالفعل الفن التشكيلي من سن الـ7 وحتى الـ22.

قلت: هل مازال لديك بعض ما رسمت من لوحات؟

قال: للأسف لا، فحين كان يعجب أحد أصدقائي بلوحة من لوحاتي كنت أسعد بذلك وأقدمها له، واليوم لم يبق لدي أي من هذه اللوحات.

ثم يضيف ضاحكًا: ربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أحوِّل رواياتي إلى لوحات ذات ألوان محددة.

قلت: هل كنت تتوقع فوزك بجائزة نوبل؟

قال: لقد كان الصحفيون دائمًا يسألونني كلما حل موعد إعلان جائزة نوبل في شهر أكتوبر من كل عام: هل ستفوز هذا العام بنوبل؟!

لذلك فالجائزة أصبحت جزءًا من حياتي من قبل أن أحصل عليها، ولقد كان هذا السؤال المتكرر يصيبني بالسأم حتى أنني كنت أحاول أن أتحاشى مقابلة الصحفيين طوال شهر أكتوبر، لكن السؤال كان يلاحقني في بقية الأشهر أيضًا، والحقيقة أن أحد أسباب سعادتي بالجائزة هو أنني لن أضطر بعد الآن للإجابة عن ذلك السؤال المتكرر، لكن دعني أقول لك: إن نوبل كانت لمدة ما يقرب من قرن كامل من الزمان بعيدة عن منالنا في الشرق إلى أن فاز بها نجيب محفوظ، ومازلت أذكر جيدًا شتاء عام 1988 حين أعلن فوزه بالجائزة، عندئذٍ شعرت لأول مرة أن محفوظ قربنا جميعًا من الجائزة، لقد غمرتني سعادة فياضة أن وجدت كاتبًا مسلمًا يفوز لأول مرة بنوبل، وربما كان هذا هو ما جعل من الطبيعي أن يسألني الناس: متى ستفوز بنوبل؟ قلت: لكن في الحالتين كان مجتمع محفوظ ومجتمعك الإسلاميان هما اللذان استكثرا عليكما الجائزة فأرجعاها لأسباب سياسية، وكأنكما لا تستحقانها لأدبكما!

قال: هذا شيء مؤسف حقًّا، ولقد دهشت جدًّا حين بدأ الناس عندكم يقولون: إن نجيب محفوظ لم يفز بالجائزة إلا لأنه كان من أنصار السلام،

أو لأنه كتب رواية «**أولاد حارتنا**»، بينما وجد العالم كله في أدبه ما يستحق الفوز بالجائزة، ثم وجدت أن نفس الشيء قد حدث معي أيضًا، وأصبح البعض يقول: إنني فزت بها لأني دافعت عن الأرمن الذين قتلوا في تركيا أثناء الحرب العالمية الأخيرة؛ أو لأنني أدافع عن قضية الأكراد، لكن تلك كلها أحقاد داخلية تأتي للأسف من بعض زملاء المهنة الذين كانوا يتمنون الفوز بالجائزة.

ثم يستطرد قائلاً: لقد وصل الحد بالبعض أن قالوا: إن منحي الجائزة كان ضربة موجهة إلى تركيا لأنني قدمت للمحاكمة بتهمة إهانة تركيا بالحديث عن مأساة الأرمن، وتلك مغالطة تاريخية لأن هذه التهمة كانت قد أسقطت من قبل أن أفوز بالجائزة.

قلت: قيل أيضًا إنك فزت بها لأنك من أنصار انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي.

قال: إن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي كان سيفيد الجانبين فائدة كبيرة جدًّا، ففي الوقت الذي ستحصل فيه تركيا على مساعدات كبيرة كتلك التي حصلت عليها دول أوروبا الشرقية حين انضمت إلى الاتحاد، فإن أوروبا ستستفيد هي الأخرى من وجود دولة مسلمة بين أعضائها، فذلك سيفيد من تنوعها الثقافي وسيثري نظرتها الإنسانية للجاليات التي تعيش داخل حدودها.

لكن للأسف فإنه حدثت مواجهات كثيرة جعلت الطرفين يفقدان حماسهما لهذا الانضمام، فالصوت الأعلى الآن داخل تركيا هو صوت المعسكر الرافض للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

أحمد زويل
لقاء العلم والأدب

لقاء القمة بين محفوظ وزويل تم بمبادرة من الدكتور زويل الذي اتصل بي بعد وصوله إلى مصر بـ24 ساعة، قائلا إنه آسف على أنه لم يكن موجودا في القاهرة وقت عيد الميلاد الـ90 لأديبنا الأكبر، وأنه يود أن يهنئ الأستاذ نجيب بهذه المناسبة برغم تأخره.. ولقد رحب الأستاذ نجيب بزيارة الدكتور زويل الذي لم يكن قد قابله منذ حصوله على جائزة نوبل، وفي منزل أديبنا الأكبر بالعجوزة كان من الطبيعي أن يبدأ اللقاء بتهنئة الدكتور زويل للأستاذ نجيب بعيده التسعين، والذي رد عليه مباشرة قائلا: إنه لا يستحق هذه التهنئة لأن ليس له فضل كبير في الوصول إلى هذه السن.. فضحكنا لدعابة الأستاذ، لكنه قال: أنا لا أمزح.. فقد قرأت أنهم اكتشفوا أن هناك من الجينات الإنسانية جينا خاصا بالشيخوخة هو الذي يحدد طول عمر كل إنسان.

قال الدكتور زويل: هذا صحيح.. فلكل إنسان خريطة جينية، وهي كتاب مفتوح به أبجدية حياته كلها، وأنا أعمل الآن في هذا الموضوع لأنه موضوع القرن، وهو يجمع بين الكيمياء والطبيعة والطب.. والسؤال المطروح الآن هو: لماذا نشيخ؟.. ولماذا لا نعيش300 أو400 سنة؟ أو بمعنى آخر: ما هي العوامل التي تتسبب في أن يشيخ الإنسان ثم يموت؟

ونحـن نحاول الآن أن نفهم تركيبة هذا الجين حتى نتمكن من أن نعدل في تركيبته بحيث نتحكم فيه، وهو موضوع علمي دقيق وعلى درجة كبيرة من الأهمية.

فقـال الأسـتاذ نجيب: إنـه موضوع مهم مـن الناحية الأدبية والفلسـفية أيضا.. لأن ذلك سيغيّر من نظرة الإنسان للحياة بعد أن يجد نفسه متحكما في طولها كما يشاء؛ مما يطرح سؤالا فلسفيا مهما هو الآخر وهو: ما معنى الحيـاة؟!.. إن تلك فتوحات علمية وفلسـفية خطيرة فـي الألفية الجديدة، وإني أتمنى لك التوفيق في هذه الدراسة المهمة.

فابتسـم الدكتور زويل وهو يقـول: لقد تحكمت أنت يا أسـتاذنا الكبير في الجين الخاص بالعمر، على الأقل الجين الذي يوصل الإنسان إلى سن الـ90، ونتمنى لك الوصول إلى سـن الـ100 أو الـ200، وعندئذٍ ستسـتحق جائزة نوبل جديدة؛ لأنك سـتكون قد حققت اكتشـافًا علميًا جديدًا هو أن الجينات المصرية متفوقة على كل الجينات الأخرى.

فرفـع نجيـب محفوظ يده معترضـا وهو يقول: إني أتـرك الوصول إلى سن المائة لأبحاثك العلمية.. أما أنا فيكفيني ما عشته من سنين.

وسألت الدكتور زويل: ماذا فعلت لك نوبل يا دكتور زويل؟

قال: لقد سـألت الأسـتاذ نجيب هذا السؤال بعد فوزه، فقال لي: نصف الوقت امتدحت والنصف الآخر شتمت!!

قال أديبنا الأكبر للدكتور زويل: الحمد لله أنني لم أسـمع أنك قد نلت نفس العقاب!

فرد الدكتور زويل: لابد أن هناك مَن شتموني أنا أيضًا.

ووجهت حديثي للدكتور زويل قائلاً: لا أظن ذلك.. فالعلم يختلف عن الأدب في أن الإنجاز فيه لا يثور حوله الجدل، بعكس أي قضية فكرية أو ثقافية، فالفكر بطبيعته حمّال أوجه، فإذا توصل عالم عظيم مثلك إلى تمديد أدق عناصر الزمن، وهو ما سميته الفيمتو ثانية فلا سبيل لإنكار هذا الإنجاز الضخم، أما في الأدب أو الفكر فالمسائل كلها نسبية؛ لأن الفكرة قد تروق للبعض ولا تروق للبعض الآخر، والرواية مهما تكن ذات قيمة أدبية في رأي البعض، قد لا تجيء على هوى البعض الآخر؛ لذلك فالأحقاد الشخصية في الوسط الأدبي يمكن أن تلبس ثوب الموضوعية بمحاولة تفنيد العمل الأدبي مهما تكن روعته، أما في حالة العلم فلا يمكن إنكار قيمة الاختراع العلمي الجديد.

ثم قلت للأستاذ نجيب محفوظ: لقد كنت أنت يا أستاذ نجيب أول مَن تنبأ بفوز الدكتور أحمد زويل بجائزة نوبل، كما كان عباس محمود العقاد هو أول من تنبأ بفوزك أنت بالجائزة.. لكن بينما كان العقاد أديبا يتنبأ بفوز أديب آخر بالجائزة، فقد كنت أنت أديبا تنبأ بفوز رجل علم، فما هي قصة هذا الموضوع؟

قال: سعدت جدًّا بما حققه أحمد زويل من إنجازات وكتبت في «الأهرام» أحييه، وقلت إنه يستحق جائزة نوبل، وفي أول زيارة له لمصر بعد حصوله على الجائزة، كنت جالسًا مع الأسرة في فندق سميراميس حين أقبل عليَّ رجل في منتصف العمر لم أكن أعرفه، على وجهه ابتسامة بشوش، وعرفني بنفسه ليشكرني على أنني كنت أول من تنبأ له بالحصول على نوبل التي احتفلنا بها على كل المستويات.

لكن ما أريد أن أقوله هو: ماذا نحن فاعلون بعد الاحتفالات والتكريم؟ هل سينفض المولد ويعود كل شيء كما كان؟ إنني أقترح أن نحاول الاستفادة من أحمد زويل الذي أقر العالم بعبقريته العلمية، والذي يقول أنا مصري، بأن نطلب استشاراته في كيفية وضع قاعدة علمية في مصر تهيئ لأصحاب المواهب أن ينموا مواهبهم ويقدموا لمصر عطاء، وذلك بما له من خبرة في هذا المجال، فلماذا لا تكون هناك لجنة قومية علمية يشارك فيها زويل وسائر علمائنا الموجودين في الخارج، والذين برعوا في مختلف الجوانب العلمية مثل الدكتور مجدي يعقوب في جراحة القلب والدكتور فاروق الباز في أبحاث الذرة، وغيرهما، وذلك مع علمائنا في الداخل، على أن تكون مهمة هذه اللجنة هي وضع استراتيجية عامة للنهوض بالعلم في مصر؟.. صحيح أن الأبحاث العلمية يمكن أن تصل بتكاليفها اليومية إلى ملايين الدولارات كما شرح الدكتور زويل، لكن مهمة هذه اللجنة يجب أن تكون وضع الخطة التي تتفق مع إمكانياتنا، وإذا كانت كل من الهند وباكستان بكل ما لهما من مشاكل اقتصادية قد تمكنت كل منهما من أن تصبح دولة نووية، فلابد أنه باستطاعتنا نحن أيضًا أن نضع البلاد على أعتاب التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث، ولاشك أن إسهام أحمد زويل وغيره من علمائنا في الخارج سيكون مفيدًا للغاية.

ثم قال: إن ما يدفعني لهذا القول يعود إلى أن العلم أصبح له في حياتنا أهمية عظيمة، والحضارة الحديثة هي في الأساس حضارة علمية وليست قائمة على الفكر مثلا أو الدين كبعض الحضارات القديمة، والعلم لذلك له أهمية قصوى في حياتنا اليومية، تتعدى تخصص الإنسان.

فتدخل الدكتور زويل قائلا: الحقيقة أن أحد الأسباب في موقف أستاذنا الكبير يعود إلى أنه رجل اتسم طوال حياته بالموضوعية، فلم نعرف عنه الحقد أو الضغينة في مجتمع لا يترك الناس في حالهم.

ثم أضاف: صحيح أن حضارتنا الحالية هي حضارة العلم والتكنولوجيا.. لكني أقول إن العلم لا نستطيع أن نرتفع به إلى مستوى الحضارة إلا إذا كان لدينا ثقافة أدبية، فلا يمكن أن يكون المجتمع مجتمعا متحضرا ومجتمعا واعيا، إلا إذا كانت لديه ثقافة أدبية وفلسفية وأخلاقية تؤهله للتعامل مع العلم والتكنولوجيا، فإذا أخذنا مثلاً موضوع الاستنساخ، فسنجد أنه باستطاعتنا الآن علميًا أن نستنسخ إنسانًا داخل المعمل مثلما استنسخنا نعجة.. لكن ما الذي سيحدد لنا أي إنسان نستنسخ: نجيب محفوظ أم هتلر؟ يجب أن يكون هناك معيار أخلاقي حسب فلسفة المجتمع ومستواه الثقافي، وإلا انهارت النهضة من أساسها برغم تقدمها العلمي.

فقال محفوظ: إن هذا هو التكامل بين النهضة العلمية والنهضة الأدبية، وهو الذي يصنع الحضارة، لكن كل حضارة لها جانب هو المميز لها، مثل الدين في العصور الوسطى أو العلم في العصر الحديث.

ثم صمت الأستاذ قليلا وعاد ليقول: لكن كان من رأيي دائمًا أن يكون العالِم في معمله غير مقيد بأي قيود.. فيجب ألا نقف في وجه العلم بحجة المشروعية الأخلاقية.. لأن لكل شيء جانب الشر وجانب الخير، وأن نمنع التقدم متصورين أننا بذلك نمنع الشر، فهذا غير صحيح لأننا سنفقد التقدم دون أن نتمكن من القضاء على الشر.

قال زويل: إن الاعتبارات الأخلاقية خاصة بالمجتمع وليس بالباحث العلمي، فالمجتمع المتحضر هو الضامن الوحيد لأن تتحول الإنجازات العلمية إلى ما فيه خير المجتمع ولا تسخّر لأغراض الشر.

فقال محفوظ: هذا صحيح.. فالمجتمع هو الذي يحدد ما إذا كانت الذرة مثلا ستستخدم في الطب أم في صنع القنبلة، لكن العالِم في جميع الأحوال يجب أن يستمر في أبحاثه الخاصة بالذرة.

وعَنَّ للعالِم سؤال للأديب فقال: إذا كانت الحضارة- كما اتفقنا- هي تكامل مختلف جوانب المعرفة الإنسانية.. فهل أكون محقّا لو قلت إنه في جيلكم يا أستاذنا كانت النهضة الأدبية لها مكان الصدارة على النهضة العلمية؟

قال محفوظ: نعم.. لقد كان للأدب تأثير أكبر في المجتمع، لأن النهضة العلمية كانت مجرد إرهاصات، برغم أن بعضها كان عظيما، فلا يمكن مثلا أن نتجاهل قيمة علمية كبيرة مثل الدكتور علي مصطفى مشرفة ومراسلاته المعروفة مع أينشتاين وغيره، لكن تلك كانت بدايات.. أما الأدب فكانت أقدامه راسخة وأعلامه عظيمة.

فسألت أديبنا الأكبر: وهل ترى أننا وصلنا في الجيل الحالي إلى ما يشبه النهضة العلمية؟

قال: ولا الأدبية!!

قلت: لكنني الآن في حضرة قمة أدبية وقمة علمية.. فهل ينبئ ذلك بقدوم نهضة جديدة يتكامل فيها الجانبان؟

قال الأستاذ: إن اللحظة الراهنة في تاريخنا لحظة مأزومة؛ لذلك فإنني أحب أن أتنبأ بالمستقبل انطلاقا من مثل هذه اللحظة التاريخية.

فأخذ الدكتور زويل يتمتم لنفسه: تمام.. تمام.. ثم أضاف: إن الأمل يكمن في ضرورة وضع مصر على الخريطة العلمية في العالم.. إننا لن نستطيع التعامل مع المعطيات الجديدة من العلم والتكنولوجيا إلى العولمة إلا بأن يكون لنا مكان على الخريطة العلمية.

قال محفوظ: علينا في ذلك أن نساير التقدم العلمي في العالم، وأن نستلهم في الوقت نفسه تراثنا في هذا المجال، وهو ما أرى أن الدكتور زويل قد فعله، فالاهتمام بالزمن كان الشاغل الأول للمصريين القدماء قبل أي حضارة أخرى، كذلك فإن الحضارة العربية لها هي الأخرى منجزاتها العلمية.

فتابع الدكتور زويل: هناك «الحسن بن الهيثم» مثلا الذي كان أول مَن عرف فكرة انعكاس الضوء، فقد كان الاعتقاد السائد في أوروبا هو أن الطريقة التي نرى بها الأشياء تعتمد على أن هناك شعاعا من الضوء يخرج من أعيننا إلى الشيء الذي أمامنا فنراه، أما «الحسن بن الهيثم» فقال: لا.. إن الذي يحدث هو أن الضوء ينعكس على الشيء الذي أمامنا ويدخل العين، وبالتالي نرى.. والآن أحدث نظرية في الرؤية هي التي تطابق نظرية «الحسن بن الهيثم».

فقال الأستاذ نجيب: لقد عاش «الحسن بن الهيثم» هو الآخر في مصر.

فـرد عليه الدكتور زويل: وكتب كتبه فـي البصريات هنا أيضًا في مصر، وقـد كان ذلك في عصـر الحاكم بأمر الله، لأنه في الوقـت الذي كانت فيه الحضـارة العربية والحضارة الإسـلامية متوهجة كانت هي حضارة الأدب والعلـم فـي آن واحد، محققـة بذلك التكامل الـذي تتحدث عنه يا أسـتاذ نجيب.

قلـت: لقد نهلـت يا دكتور زويـل من حضـارة المصرييـن القدماء كما نهلـت أيضا من الحضارة العربية.. وقد عرّف أديبنا الأكبر نفسـه في كلمته التـي ألقيت في احتفالات نوبـل عام1988 بأنه ابـن حضارتين.. الحضارة المصريـة القديمـة والحضـارة العربيـة الإسـلامية.. وها همـا الحضارتان تظهران في أبحاثك العلمية كما ظهرتا في روائع الأستاذ الأدبية.

وفي نهاية اللقاء سألت الدكتور زويل: هل استثمرت نوبل أم أن الجائزة هي التي استثمرتك؟

قـال: لقد كان من حسـن حظي أننـي فزت بنوبل وأنـا مازلت في أوائل الخمسـينيات.. لذلك فأنـا مازلت قادرا على العطاء، وقد اتخذت لنفسـي ثلاثـة أهداف: أولا: قررت أن ألتزم بعملـي في مجال العلم ولا أحيد عنه، برغـم ما عـرض عليّ من مناصـب إداريـة وتنفيذية كبيرة. ثانيـا: قررت أن أسـتخدم موقعـي فـي خدمة بلـدي لأن الجائـزة أتاحت لي فرصـة لخدمة قضيـة العلـم في مصر بشـكل لم يكن متاحـا لي قبل نوبـل.. وذلك بهدف أن توضـع مصر على الخريطة العالمية بالنسـبة للبحث العلمي. أما الهدف الثالث: فهو تشجيع الشباب ليس في مصر وحدها، وإنما في العالم أجمع، فأنـا لا أتقاعس أبدًا عن لقاء الشـباب في المحاضـرات واللقاءات العلمية المختلفة، لأني أعتبر ذلك واجبي تجاه الأجيال القادمة..

فقــال الأســتاذ نجيــب محفوظ: أمــا أنا فقد قــرر البعض اســتثمار نوبل فأرسلوا إليّ مَن حاولوا اغتيالي!

فقــال الدكتــور زويل: لــو علموا بما صنعْتــه لمصر والعرب فــي العالم لقتلوا أنفسهم ندما.. إنك فخر لكل عربي يا أستاذ نجيب.

السفير الفرنسي
«أنت قائد بأمر نابليون»

اتصل بي الأستاذ ليقول لي: لقد أرسل لي السفير الفرنسي بالقاهرة خطابًا يخطرني فيه أن فرنسا منحتني وسام الفنون والآداب بدرجة «قائد» فما معلوماتك عن هذا الوسام؟!

فقلت في فرحة لم أخفها: إن هذا هو أعرق وسام في فرنسا يا أستاذ نجيب، لقد أنشأه نابليون بونابرت نفسه، وعلى حد علمي فإن قليلين جدًّا الذين فازوا بهذا الوسام الرفيع، وللفائز به أن يختار إما أن يتسلمه في فرنسا أو في السفارة الفرنسية ببلده.

فقال الأستاذ: وأنا لا أستطيع أن أذهب إلى فرنسا ولا إلى سفارتها.

وبمجرد أن علم السفير الفرنسي باتريك لوكلير بقبول نجيب محفوظ الوسام قرر أن تجرى مراسم تقليد الوسام- لأول مرة- بمنزل المكرم نفسه.

وقد قَبِل الأستاذ نجيب هذه اللفتة الكريمة من جانب السفير على أن تتم العملية في إطار من الأسرة وبعض الأصدقاء المقربين، وقد قَبِل السفير جميع «شروط» الأستاذ نجيب، وقال إنه لم يحضر معه إلا القائم

بأعمال السفارة ستفان جومبرتز الذي سبق أن قابل كاتب مصر الكبير منذ ثلاث سنوات.

ولكن خلال أسبوع واحد كان السفير قد اتصل بي عدة مرات ليخبرني أولاً بأن زوجته تصر على الحضور معه فهي من المعجبين بأعمال محفوظ، ثم إن الملحق الثقافي جيل تيوديه سيحضر هو الآخر باعتبار المناسبة ثقافية وتقع في دائرة اختصاصه، ثم إن مدير المركز الثقافي الفرنسي يرى أنه لا بد أن يكون موجودًا هو الآخر، ثم أخيرًا إن جميع الزوجات يصررن على الحضور.

وفي كل مرة كنت أتصل «بالأستاذ» فيبدأ في عدّ المدعوين، وينتهي به الأمر إلى اختصار في العدد من جانبه حتى يترك الفرصة للذين سيأتون لتكريمه بأن يتسع لهم منزله.

وقبل الساعة السادسة من مساء يوم السبت الأخير من شهر مارس 1995، وهو اليوم المحدد لمراسم تقليد الوسام، كان «الأستاذ» جالسًا في صالون منزله ومعه أصدقاؤه المقربون: المخرج السينمائي الكبير توفيق صالح والطبيب النفسي المعروف يحيى الرخاوي والكاتبان جمال الغيطاني ويوسف القعيد وأنا وبعض أفراد أسرته، بالإضافة إلى قرينته وكريمتيه أم كلثوم وفاطمة، أو هدى وفاتن كما يناديهما المقربون للأسرة.

وقال «الأستاذ» بكرمه الشرقي المعروف: ألا يجب أن يجد السفير أحدًا في استقباله في الخارج عند وصوله؟ فقلت له إنه لن ينتظر ذلك، وقال توفيق صالح: إنه قادم لزيارتك بمنزلك ومنزلك يبدأ من باب الشقة.

وفي تمام الساعة السادسة دق جرس الباب ودخل السفير ومعه الوفد الفرنسي، وبعد دقائق من كلمات الترحيب المتبادلة دار حديث بين الأديب الكبير وضيوفه، قال السفير خلاله إنه قرأ معظم أعمال نجيب محفوظ التي ترجمت إلى الفرنسية، وقالت زوجته ماري أليس: إن كتابها المفضل هو «**أولاد حارتنا**»، وقال «الأستاذ» إنه قرأ للكثير من الكتّاب الفرنسيين مثل بروست وفلوبير وأناتول فرانس، وبعضهم كان يقرأ أعمالهم مباشرة مثل إميل زولا الذي أعجب كثيرًا بروايته «نانا» التي قرأها بالفرنسية.

ثم جاء وقت تقليد «الأستاذ» الوسام فانتقلنا جميعًا بأوامر صريحة من ثلاثة طغاة هم: مصورو «الأهرام» و«الأخبار» و«المصور» محمد القيعي ومكرم جاد الكريم وشوقي مصطفى الذين تصوروا أنفسهم «قادة» في معركة.. وقد أطاع نجيب محفوظ أوامرهم قائلاً بروح دعابته المعروفة: حاضر لغاية ما آخذ الوسام وبعد كده أنا سأكون «القائد»!!

وانتقلنا جميعًا إلى الموقع الجديد الذي اختاره رؤساء أقسام التصوير في الدور الصحفية الثلاث؛ حيث ألقى السفير الفرنسي كلمة عظيمة في أربع صفحات باللغة الفرنسية وجّه خلالها الحديث لنجيب محفوظ باسم «ميتر» أي «الأستاذ» وقال فيها:

إنه لمن عظيم الشرف لي شخصيًا أن أقوم بتقليدكم هذا الوسام الذي منحته لكم فرنسا تكريمًا لكم على مكانتكم الأدبية «العالمية»، إلا أن حصولكم عليه هو في الوقت ذاته تكريم للوسام نفسه الذي تعتبر درجة «قائد» فيه هي أعلى درجة في فرنسا.

وتحدث السفير في كلمته عن مكانة نجيب محفوظ عند القراء الفرنسيين فقال إنه أقرب كاتب عربي إلى قلوبهم، وقال: إن محفوظ ينتمي إلى مجموعة من أعظم أدباء العصر في العالم.

كما أشاد السفير في كلمته بالجانب الآخر لنجيب محفوظ، وهو جانب المحلل الاجتماعي من خلال مقالاته الصحفية في «الأهرام»، والتي قال إنهم يقرءونها مترجمة كل أسبوع.

ثم أشار إلى واقعة الاعتداء على الكاتب الكبير، فقال: إن هذا القدر الهائل من التعاطف الذي حزتم عليه بسبب تلك الواقعة الغاشمة كان خير دليل للمتابعين للشئون المصرية في العالم على أن الاتجاه الإرهابي المتطرف معزول تمامًا في المجتمع.

واختتم السفير كلمته قائلاً: أيها «الأستاذ» إنه لشرف عظيم بالنسبة لي اليوم أن أشغل وظيفتي تلك كممثل لفرنسا؛ لأنها سمحت لي أن أقوم بتقليدكم هذا الوسام الرفيع.

ثم قام القائم بالأعمال بإخراج الوسام من علبته وقدمه للسفير الذي قال: الأستاذ نجيب محفوظ.. إنني أعلن رسميًّا باسم حكومة فرنسا منحكم رتبة «قائد» في وسام الفنون والآداب، ثم قلده الوسام المصنوع على شكل نجمة من الذهب الخالص عيار 24 قيراطًا ومطعمًا «بالمينا» الخضراء وسط تصفيق الجمهور.

وهنا وقف «الأستاذ» ليرد التحية، فقال:

سيدي السفير.

أشكركم أولاً على تفضلكم بالموافقة على الحضور إلى بيتي الصغير مراعاة لحالتي الصحية.

وأشكركم ثانيًا على حملكم إليَّ هذه الهدية السامية التي أعتز بها.

ثم أشكركم أخيرًا لكلمتكم الجميلة الرقيقة الشاملة التي أعتقد أن الدافع الأول وراءها هو عواطفكم النبيلة.

فشكرًا لكم وشكرًا للحكومة الفرنسية التي قررت منحي وسام الفنون والآداب الفرنسي، وهذه فرصة أحيي فيها الثقافة الفرنسية، فقد ساهمت في تكويني الثقافي بسهم وافر عن طريقين: طريق مباشر هو القراءة للأدباء والفلاسفة الفرنسيين، وطريق غير مباشر وهو أن جزءًا كبيرًا من أساتذتي كان ممن أتم تعليمه بفرنسا، مثل: مصطفى عبد الرازق وطه حسين ومنصور فهمي وزكي مبارك ومحمد حسين هيكل.

ولن أنسى الدور الذي قام به بعض الفرنسيين وبعض المؤسسات الأدبية الفرنسية في ترشيحي لجائزة نوبل عام 1988.

وإن ما أرجوه هو أن أكون دائمًا وأبدًا جديرًا بهذا الوسام الرفيع.

وما إن انتهت مراسم تسليم الوسام حتى اختفت كريمتا الكاتب وزوجته ليعدن بالمرطبات والحلوى، وتحوّل الجو على الفور إلى جو حميمي.

فعاد «الأستاذ» إلى دعابته ليسأل السفير إن كان بإمكانه أن يخلع الوسام حين يذهب للنوم، فضج الجميع بالضحك، وهنا قالت حرم السفير: إن هناك مع الوسام شارة صغيرة توضع في عروة «الجاكت» حتى لا يضطر حامل الوسام إلى ارتدائه أينما ذهب. ثم قامت بوضع الشارة بنفسها

في عروة «جاكت» الأستاذ قائلة: ها قد حزت أنا الأخرى بتقليد نجيب محفوظ بشارة الوسام، ولعلي أول زوجة سفير تحوز هذا الشرف.

وما هي إلا دقائق حتى غادر الفرنسيون منزل الكاتب الكبير متصورين أنه سيأوي إلى فراشه مبكرًا، لكن الجلسة امتدت بين الأسرة والأصدقاء إلى وقت متأخر؛ حيث أخذ «الأستاذ» يقص علينا ذكرياته مع الجوائز والأوسمة، ثم ودعنا الأستاذ قائلين له: كل وسام وأنت طيب.

ماريو بارجاس يوسا

اللص اللعين

قــال لــي كاتب بيـرو الكبير الحائـز على جائـزة نوبل عــام 2010 ماريو بارجــاس يوســا: إن أول مــا تذكّره حين علــم بفوزه بنوبل هــو أديبنا الأكبر نجيب محفوظ ، ولذلك حكاية تفاصيلها كالتالي :

في عام 2000 قام ماريو بارجاس يوسا بزيارة لمصر مع زوجته، وطلب لقــاء نجيـب محفوظ ، لكنني لــم أتمكن من أن «آتي به معي يوم الســبت» ؛ لأن الأستاذ نجيب كان متوعكا في ذلك اليوم فألغينا موعدنا، وحين تعافى الأســتاذ بعد ذلك كان يوســا في الأيام الأخيرة من زيارته ، فاقترحت على الأستاذ أن يستقبله في أحد لقاءاته الأسبوعية مع الأصدقاء، فقال: إن اللقاء القادم ســيكون في فندق «سوفتيل» بالمعادي ، وقد يكون ذلك بعيدا بعض الشيء على الضيف الزائر .. لكنني حين عرضت الأمر على بارجارس يوسا قال ضاحكا : أنا على استعداد أن ألقاه على سطح القمر!

ويعتبــر ماريــو بارجــاس يوســا وجابرييــل جارســيا ماركيــز وكارلوس فوينتــس وخورخــي لويــس بورخيــس ويوليــو كورتــازار ، أعمــدة الأدب المعاصــر الخمســة في أمريكا اللاتينية ، لكن بارجاس يوســا كان أســبقهم إلــى الشــهرة عالميا ، ولـم يتفـوق عليه في شــهرته إلا ماركيز بعد أن حصل

علـى جائزة نوبل ، كما أن بارجارس يوسـا كان أكثرهم انخراطا في العمل السياسـي ؛ ومن ثمّ أكثرهـم خلافية ، فقد كانـت أعماله الروائية إلى جانب تفوقها الفني بمثابة مدافع مدوية ضد الحكم العسكري في بيرو ؛ مما سبب له مشاكل كثيرة اضطرته للعيش فترة من حياته خارج بلاده .

وقد خاض ماريو بارجاس يوسا تجربة الانتخابات ، حين رشـح نفسه للرئاسـة عام 1990 بعد سـقوط الحكم العسـكري ، لكنه مُني بالفشل رغم كونه أحد أهم كتّاب أمريكا اللاتينية ، بل إن بعض مؤرخي الأدب العالميين يقولون إن أدب أمريكا اللاتينية الذي بدأ بأديب بيرو الكبير ألانكا حاثيلايو دي لافيجا في القرن الـ19 بلغ قمته في العصر الحالي بأديب من بيرو أيضا هو ماريو بارجاس يوسا .

ولقد روى لي بارجاس يوسا تفاصيل لقائه مع محفوظ الذي جرى يوم 31 ينايـر 2000 ، والذي لـم أحضره لارتباطات أخرى لـم أسـتطع الاعتذار عنهـا ، فقال : مسـاء ذلك اليـوم اصطحبني مدير المركز الثقافي الإسـباني «معهـد سـربانتس» ، والـذي يتولى النشـاط الثقافي لكل الـدول المتحدثة بالإسـبانية ، إلى ضاحيـة هادئة تقع على النيل جنـوب القاهرة ، وكان معنا عـدد من كبار المثقفين المصرييـن (علمت فيما بعد أنه كان يقصد الدكتور جابر عصفور والدكتور أحمد مرسي والدكتور محمد أبو العطا) .

أما عن وصفه للقاء ، فقال يوسا : كان محفوظ يجلس على أريكة تحيط بها مقاعد وثيرة جلس عليها عدد من أصدقائه ، وقد دهشـت لضآلة حجم الكاتب المصري العجوز الذي كانت صوره القديمة تظهر جسـده أكبر من ذلك ، لكني أدركت أنه الزمن ، ذلك اللص اللعين الذي يسـتولى على كل

متاعنا بالتدريج دون أن نلحظ، إلى أن نكتشف يوما أن أجسادنا لم تعد هي أجسادنا التي كانت تظهر في صورنا القديمة .

وبمجرد دخولنا على محفوظ نهض من مقعده دون أن يبرح مكانه ومدّ لي يده مرحبا، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ، فقلت له: إنه لشرف عظيم أن أجالس كاتب العربية الأول الحائز على جائزة نوبل، فشكرني ، وقال إنه هو السعيد بلقائي ، وقد اكتشفت أنه يعرف الكثير من أعمالي ، وأن له في بعضها آراء نقدية ثاقبة حقا ، أما أنا فقلت له : إن **«الثلاثية»** تعتبر من الروائع العالمية للمدرسة الواقعية في الرواية، وقلت له : إن ملحمة **«الحرافيش»** هي الأخرى تعتبر أحد أعماله المفضلة بالنسبة لي .

ثم يقول بارجاس يوسا إنه اكتشف أن إلمام محفوظ بأدب أمريكا اللاتينية - عامة - واسع جدا ، وأنه حين أبدى تلك الملاحظة لمحفوظ رد عليه قائلا : إن أدب أمريكا اللاتينية هو أقرب الآداب العالمية إلى أدبنا العربي ، فنحن ننهل من معين واحد .. ورائعة **«ألف ليلة وليلة»** كان لها تأثير في أمريكا اللاتينية يماثل تأثيرها في الأدب العربي .

ويروي كاتب بيرو الكبير أنه تأثر جدا لكلمات محفوظ حين تطرق الحديث إلى السياسة، فما كان من محفوظ إلا أن قال له إنه سعيد لأنه لم ينجح في انتخابات الرئاسة في بلاده ؛ لأن ذلك كان سيأتي على حساب إنتاجه الأدبي . وقال له محفوظ : أنت أكبر من كل رؤساء بيرو الذين لا أعرفهم ، لكنني أعرف اسمك ويعرفه العالم أجمع .

ثم قال له : إن ما سيبقى من الكاتب هو كتبه وليس المناصب التي تقلدها .. والكتب خالدة أما المناصب فزائلة .

ويقـول ماريـو بارجاس يوسـا : رغم أنني لـم أكن أشـعر بالحزن لعدم نجاحي في انتخابات الرئاسـة، فقد كنت قد تخطيتها قبل عشـر سـنوات ، إلا أن حديث محفوظ أثّر فيّ لأني أحسسـت فيه بالصدق ، وبأنه كان معنيا بالفعل بصالحي .

ويواصـل بارجـاس يوسـا حديثه عن اللقـاء، فيقول : حيـن تحدثنا عن نوبـل قلـت لمحفـوظ إن نجاحه في الفـوز بالجائزة يجـب أن تقاس قيمته بأضعاف ما يُقاس به فوز أي كاتب من الغرب ، ذلك أنه لم يكن من السهل أن يمنحـوا هذه الجائـزة القيمّة لكاتب عربي ؛ لذلك لـم يحصل عليها أي كاتب عربي آخر منذ فاز بها محفوظ .

ويقول ماريو بارجاس يوسا إن اللقاء استمر أكثر من ساعة ، وإن محفوظ في أثناء توديعه له همس في أذنه قائلا : دعني أقول لك صادقا إنك تستحق نوبل ، وإنك حتما ستفوز بها!

ويقـول : رغـم أننا ضحكنا سـويا على مقولته هـذه ، إلا أنها كانت أول ما تذكّرتـه حين فزت بالفعل بالجائزة بعد هذا اللقاء بعشـر سـنوات ، وكم كنـت أود أن أسـمع تهنئـة محفوظ لي آنـذاك ، لكن اللـص اللعين كان قد استولى هذه المرة على حياته ذاتها ، فحرمنا من هذا الرجل العظيم!

كلود سيمون
الكاتبان الضد

في عام 1990 دعا الدكتور سمير سرحان كاتب فرنسا الكبير كلود سيمون الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1985 إلى معرض القاهرة الدولي للكتاب، ولقد عجبت حين أخبرني الدكتور سمير برغبة الكاتب الفرنسي الكبير لقاء أديبنا الأكبر نجيب محفوظ لما هناك من اختلاف هائل بينهما، بل أكاد أقول إنه ليس هناك في العالم من كاتبين يختلف كل منهما عن الآخر مثل كلود سيمون ونجيب محفوظ، ولكن طرأت لي فكرة فقلت لسمير رحمة الله عليه: لماذا لا يكون لقاء الكاتبين في المعرض فتنظم لهما مناظرة تحقق رغبة الكاتب الفرنسي الزائر وتثري في نفس الوقت فاعليات المعرض، فأعجب بالفكرة ووضعها ضمن برنامج المعرض في ذلك العام.

وقد ولد كلود سيمون في مدغشقر عام 1913 ؛ أي بعد محفوظ بسنتين وتوفي عام 2005 ؛ أي قبل محفوظ بسنة، وعاش مثل محفوظ حياة طويلة تخطى فيها سن التسعين، كما فاز بجائزة نوبل عام 1985 ؛ أي قبل محفوظ بثلاث سنوات، ووهب حياته الأدبية- مثل محفوظ- للرواية.

فيما عدا ذلك فإن الاختلاف بين محفوظ وكلود سيمون يطغى على أي تشابه بين الروائيين الكبيرين، فكلود سيمون هو أحد فرسان ما عرف

في فرنسا في أواسط القرن الماضي بـ«الرواية الجديدة» Le Nouveau Roman أو «الرواية الضد» Anti- Roman، والتي تزعمها الروائي الكبير آلان روب جرييه، وقد عمدت هذه الحركة إلى تحطيم كل ما قامت عليه الرواية التقليدية في العالم من الحبكة والشخصيات والتسلسل المنطقي للأحداث، وهكذا لا تجد في رواية كلود سيمون الشهيرة «الريح» 1957 على سبيل المثال أي اثر للحدوتة التي قامت عليها الرواية منذ نشأتها، كما أن رواية «الميدان» لمارجريت دوراه، وهي إحدى فارسات «الرواية الجديدة»، تصور حوارًا غير متسلسل بين رجل وامرأة يجلسان على مقعد عام بأحد الميادين، ويستمر الحوار بلا أي أحداث من أول الرواية إلى نهايتها.

أما محفوظ فقد برع في الحبكة الروائية، كما أن شخصياته اكتسبت أبعادًا غير عادية؛ حيث أصبح لها استقلالية حتى خارج إطار الرواية التي ظهرت فيها، مثل سي السيد في «**الثلاثية**» ومهران في «**اللص والكلاب**» وزهرة في «**ميرامار**» وغيرهم، وهو الاتجاه الذي عادت إليه الرواية العالمية بعد تجربة «الرواية الجديدة»، وحين التقى محفوظ بكلود سيمون في يناير 1990 كان الاتجاه الذي يمثله الكاتب الفرنسي الكبير في أفول، بينما كان الاتجاه الصاعد في العالم هو الذي يمثله نجيب محفوظ.

والحقيقة أنك لا تكاد تجد الآن في المكتبات الفرنسية نفسها روايات كلود سيمون، بينما يلفت نظري في كل مرة أسافر إلى الخارج وجود ترجمات جديدة لروايات محفوظ، والتي كان آخرها الروايات الفرعونية التي اكتشفها الفرنسيون لأول مرة بعد حصول محفوظ على نوبل بعقدين

مـن الزمان فقامـوا بترجمتها لأول مـرة؛ حيث حققت رواجًـا كبيرًا ينافس رواج روايات كريسـتيان جاك الأثري الفرنسـي الشـهير الذي تخصص في كتابة الروايات المستوحاة من تاريخ مصر القديم.

اصطحبت الأستاذ نجيب محفوظ إلى معرض الكتاب في يوم مشمس مـن شـتاء 1990، وفي الطريق قال لي: «حا أقول إيـه للراجل ده؟ أنا قريت رواياتـه ومـا فهمتـش حاجـة!» قلت لـه: «إن ما سـيغضبه إن قلـت له إنك فهمـت، فهو يعتقـد أن الرواية يجب ألا تفهم، وإنمـا تحس مثل المقطوعة الموسيقية أو اللوحة التجريدية».

فرد محفوظ: ليس هذا بغريب عليه، فقد بدأ حياته مصورًا قبل أن يكتب الأدب.

وتسـاءلت بيني وبين نفسي بالفعل: كيف سيدور الحوار بين الرجلين؟ بيـن كاتب مصـري مقتدر برع في تصويـر الواقع وآخر فرنسـي لا يقل عنه اقتدارًا. من بين أقواله: إن الرواية يجب ألا تعبر عن الواقع!

وحيـن وصلت إلى المعـرض اتفقت مـع مديرة اللقـاء الدكتورة هدى وصفي على أن تكون الندوة في شكل أسئلة موجهة من الجمهور لكل من الضيفيـن فيجيب كل منهما على السـؤال بطريقته، وهكـذا نتفادى الحوار الثنائـي بين الكاتبين اللذين لا يبدو أن هناك قاسـمًا مشـتركًا يجمعهما، بل هما في الحقيقة «كاتبين ضد»!

وفـي الصالـون الملحق بقاعة الندوة تقابل محفـوظ لأول مرة مع كلود سيمون في حضور الدكتور سمير سرحان والدكتور محمد عناني والدكتورة

هدى وصفي والدكتور غالي شكري، ودار بينهما حديث ودي بدأه كلود سيمون قائلاً: إني سعيد أن صحتك جيدة، فقد قلقت عليك حين علمت أن ظروفك الصحية حالت دون سفرك لاستلام جائزة نوبل. فابتسم محفوظ وقام برد التحية للروائي الزائر، فقال: الحقيقة أن السعادة سعادتي أنا؛ إذ ألتقي بكاتب كبير مثلك كان له تأثير لا يمكن إنكاره على الرواية العالمية.

وهنا تدخل الدكتور غالي شكري، فقال للروائي الزائر: ما هو في رأيك السبب في تراجع تيار «الرواية الجديدة» الآن؟

فرد كلود سيمون: إن الرواية شأنها شأن الفنون جميعًا تمر بمراحل مختلفة في تاريخها، وكل مرحلة تترك أثرها بشكل أو بآخر على الفن الروائي، لكنها لا تتوقف عند مرحلة واحدة، وأنت يا مسيو محفوظ أكثر مَن يفهم ذلك، فقد انتقلت الرواية على يديك من مرحلة إلى أخرى في إطار الإنتاج الروائي الخاص بك، وتلك خاصية تتميز بها، بينما أنا مثلاً لا أملكها، لقد كتبت الرواية الواقعية حتى برعت فيها، ثم انتقلت منها إلى أساليب أخرى، أما أنا فإن لي أسلوبًا فنيًا واحدًا قد يتطور من رواية إلى أخرى لكنه يظل نفس الأسلوب.

فرد محفوظ: إن رواياتك صعبة لكن ينبغي الاعتراف بأن تيار «الرواية الجديدة» كان له تأثير بالفعل على الرواية العالمية، وحين عادت الرواية مرة أخرى إلى الحبكة والشخصية لم تعد تقدم رواية القرن الـ19 التقليدية، وإنما استفادت بالطبع من التجارب التي مرت عليها، والتي كان من بينها «الرواية الجديدة».

وقال كلود سيمون: إن بعض كتّاب الرواية الجديدة تطورت كتاباتهم كثيرًا منذ مرحلة الخمسينيات، وبعضهم أصبح يكتب اليوم بطريقة مختلفة بعض الشيء.

قلت: لكنك أنت ظللت الأكثر وفاء لما بدأت به.

قال: هذا صحيح، ربما لأني لا أعرف كيف أكتب بطريقة أخرى، وقد كنت أكتب هكذا حتى قبل أن يصنفني النقاد على أني من كتّاب الرواية الجديدة.

ثم روى كلود سيمون أنه كتب روايته الأولى «الغشاش» (1938) قبل أن يسمع عن الرواية الجديدة، وأن آلان روب جرييه حين قرأها دفع بها إلى النشر قائلاً له: إنك واحد منا!

وسأل محفوظ سيمون عن رؤيته للرواية، فقال: إن تأثيرها في رأيه يجب أن ينبع من اللغة مثلما ينبع تأثير الموسيقى من النغم، وهي في سبيل ذلك يمكن أن تستخدم كل الأدوات الأدبية المتاحة بما في ذلك الحدوتة، ولكن أسلوب تناول القصة يجب أن يختلف عن أسلوب رواية قصص الأطفال، أو طريقة سرد الرجل العادي لواقعة شاهدها في الطريق؛ أي يجب أن يبتعد عن التسلسل التتابعي للأحداث.

وهنا قال الأستاذ نجيب: إن ذلك لا يختلف كثيرًا عن أسلوب القرآن الكريم في سرد القصة؛ حيث نجد من قصة مريم ما يرد في سورة ثم بعد عدة سور يرد جزء آخر وهكذا، ونفس الشيء مثلاً بالنسبة لقصة يوسف عليه السلام.

فبدت على وجه كلود سيمون علامات الدهشة، وهو يقول: أول مرة أسمع ذلك، لكن علينا ألا ننسى أن القرآن هو عمل أدبي إلى جانب كونه كتابًا مقدَّسًا.

ثم حان وقت لقاء الجمهور، فانتقلنا جميعًا إلى قاعة الندوات الكبرى بالمعرض.

تد هيوز

محفوظ شاعرًا

كانت تجمعني بالشاعر البريطاني الكبير تد هيوز، والملقب بأمير الشعراء البريطانيين، صداقة قديمة تعود لأيام دراستي في إنجلترا في أواخر الستينيات الماضية. وفي زيارة لي إلى لندن في أواخر التسعينيات قال لي هيوز إنه معجب جدًّا بـ«المضمون الشعري» على حد قوله، في أعمال نجيب محفوظ الروائية، وقال: إني أكاد أجزم أن محفوظ شاعر خفي. قلت: أنا أعلم أنه يعشق الشعر ويحفظ الكثير منه عن ظهر القلب، قال: أرجوك أن تسأل محفوظ في هذا الموضوع. وحمّلني بعض الأسئلة حول الشعر في حياة محفوظ، فقلت له: إنني سأرسل له إجاباتها بمجرد أن أطرحها على محفوظ.

ثم عدت إلى القاهرة وأخذتني مشاغل الحياة فنسيت الموضوع تمامًا إلى أن وصلني خبر رحيل الشاعر البريطاني في أكتوبر 1998 ، فتذكرت فجأة أسئلته لمحفوظ، وفي أول لقاء لي بعد ذلك مع أديبنا الكبير رويت له القصة وطرحت عليه الأسئلة، فكان هذا الحوار:

سألت الأستاذ نجيب محفوظ عن مكانة الشعر في حياته الأدبية، وهو الروائي العربي الكبير، لكن ماذا كانت علاقته بالشعر؟

قال: العلاقة بين الأدب والشعر علاقة وثيقة، فأعظم الأعمال الأدبية هي تلك التي تقترب في طبيعتها من الشعر، وهناك نظرية تقول: إن الأدب كله يطمح إلى حالة الشعر، والشعر من الناحية التاريخية هو عنوان الأدب، وحين نعود إلى أصول الأدب كلها- عربية كانت أو غير عربية- نجدها كانت في الأصل شعرًا، مثل المسرح الذي بدأ بالشعر وحين انتقل إلى النثر كان ذلك ثورة كبرى.

أما في حالتي الشخصية فقد عرفت الأدب على أنه الشعر، وحتى حين كنت أقرأ كتبًا في غير الأدب مثل كتاب «الكامل» للمبرد، وهو في النحو كنت أجده يستشهد بأبيات شعرية، فإن ما كان يهمني من قراءتي كان هو هذه الاستشهادات، والحقيقة أنه لو كانت لي ذاكرة حافظة لكان عندي الآن مخزون شعري عظيم جدًّا لأنني قرأت آلاف الأبيات الشعرية، وكنت في مطالعاتي للتراث أنتقي بعض المختارات الشعرية وكنت أدونها في كراسة خاصة أحتفظ بها، وكلما أردت أن أروّح عن نفسي قرأت ما قد تقع عليه عيني في هذه الكراسة، لأبي العلاء المعري أو البحتري أو أبي نواس أو غيرهم، ومما آسف له الآن أنني لم أعد قادرًا على استعادة هذه الأشعار بعد ضياع الكراسة وبعد عجزي عن القراءة.

قال: لقد حاولت الشعر وأنا في سن المراهقة، وربما كنت آنذاك في السنة الأولى بالمرحلة الثانوية، وكانت لي كراسة أخرى ملأتها بالشعر الذي كنت أكتبه، والذي في معظمه لم أكن أستطيع وزنه؛ لذلك فقد اعتبرت نفسي من المجددين في الشعر؛ لأني سبقت كل المجددين بهذا الشعر المكسور، ومع ذلك فقد كانت به بعض الأبيات الجميلة الموزونة،

لكنهـا كانـت الاسـتثناء، أمـا الباقي فـكان كله مما لـم أرض عنـه، فأنا من عشـاق الشعر، وخاصة الشـعر العربي القديم، لذلك لم تكن ترضيني تلك المحاولات الصبيانية الأولى في حياتي، وأذكر في تلك السنوات من صبايا كتابًا كان مقررًا علينا في الدراسة وأعتقد أن اسمه كان المختار، وكان الذي جمعه هو الدكتور طه حسـين والشـيخ الإسكندري. كان هذا الكتاب يضم مقتطفـات من أعمال جميع شـعراء العربية من أجهـل الجاهلية إلى العصر الحديث، وكان يصاحب هذه المختارات الشعرية نبذة عن الشاعر وحياته، ولقـد احتفظـت بهذا الكتاب مدة طويلة، وأذكر أننـي قمت ذات مرة بعمل مختاراتـي الخاصة من هـذا المختار، وكنت أعود إليها كما يعود الإنسـان لسماع الموسيقى التي يهواها.

ويواصـل الأسـتاذ نجيب محفوظ حديثه عن الشـعر فـي مراحل حياته المختلفـة فيقـول: بعـد سـنوات الصبا التي عشـقت فيها الشـعر وحاولت كتابته اتسـعت دائرة اهتمامي بالشعر فبدأت أقرأ للشعراء الأجانب، وأذكر علـى وجـه التحديد ديوان الشـاعر الفرنسـي الكبير شـارل بودليـر «زهور الشـر» الذي كانت له ترجمة عربية عظيمة لست أعرف لماذا لا يعاد طبعها هـذه الأيام، فهذا الديوان هو من أمهات الشـعر في العالم ويجب أن يكون متوافرًا لشباب اليوم.

كذلك قرأت في شبابي الشعر الصوفي بجميع اتجاهاته، وكان يستهويني كثيـرًا شـعر جلال الدين الرومي الذي كنت أحفظ لـه الكثير من أبياته، كما قـرأت أيضًا رباعيـات عمر الخيـام بترجمتيها تلك التي كتبهـا أحمد رامي والأخـرى التي قام بها السـباعي، وقد كانت ترجمة رامـي هي الأدق؛ لأن رامي كان يجيد الفارسية، أما ترجمة السباعي فكانت في نظري الأجمل.

واستمر معي هذا الاهتمام بالشعر في سنوات النضج حتى بعد أن أقلعت تمامًا عن كتابته.

وقلت: لكنك في رواية «**الشحاذ**» كتبت بعض الشعر على لسان بطل الرواية.

فرد ضاحكًا: لقد قال لي الدكتور عبد القادر القط - آنذاك - إنه كان أجدر بي أن أستعين بأحد الشعراء لكتابة هذه الأشعار.

قلت: أذكر أن تد هيوز قال لي إنه بعيدًا عن الجانب الواقعي في رواياتك، والذي كثيرًا ما يتوقف عنده النقاد في الغرب، فإن هناك في أعمالك جانبًا آخر روحيًا، وهو جانب يعكس الحس التصوفي الذي عرف به الشرق، فهل تعي ذلك وأنت تكتب؟!

قال الأستاذ: بالطبع إنني أعيه لكني لا أقصده بشكل مباشر، فأنا أحاول تصوير الواقع كما أراه، لكن الواقع المصري ليس كله واقعًا اجتماعيًّا؛ لأن الجانب الروحي هو جانب أساسي في الشخصية المصرية منذ بداية التاريخ، فالمصري هو الذي اخترع الدين قبل أن تعرف البشرية الأديان السماوية، وقد دفعه إلى ذلك إحساسه الروحاني المرهف، الذي وجد أن حياته تكون فارغة بدونه وبلا معنى، وقد استمر الجانب الروحي يشكل ركنًا أساسيًّا في الشخصية المصرية حتى يومنا هذا، فكيف لي أن أنقل الواقع الحالي بأن أكتفي فقط لتصوير الحارة بمبانيها وأزقتها دون أن أصور روح الشعب الذي يسكنها.

أما عن الجانب الشعري الذي تتحدث عنه، فقد تكون تلك هي سمة الأدب كله، فالأدب الذي لا يرتقي إلى مرتبة الشعر - حتى لو لم يكن منظومًا - ليس من الأدب في شيء.

آرثر ميللر

الأسطورتان تلتقيان

روى لي نجيب محفوظ أن من أكثر الأدباء العالميين الذين سعد بلقائهم الكاتب المسرحي الأمريكي آرثر ميللر، رغم أنه لم يجلس معه إلا لمدة 30 دقيقة حين زار مصر في ديسمبر من عام 1988، وهو نفس العام الذي جرى فيه تسليم جائزة نوبل الخاصة بنجيب محفوظ في احتفال كبير بالعاصمة السويدية ستوكهولم.

وكنت قد وجهت الدعوة لآرثر ميللر في أكتوبر من نفس العام لحضور حفل التكريم الكبير الذي أقامته رئاسة الجمهورية - آنذاك - تكريمًا للأديب الكبير بمناسبة حصوله على جائزة نوبل في الأدب كأول أديب عربي يفوز بها، وتم خلال الحفل منحه قلادة النيل التي هي أرفع الأوسمة المصرية.

في ذلك الوقت كنت أشغل منصب وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية؛ لذلك عهد إليَّ بترتيب ذلك الاحتفال ووضع قائمة الشخصيات الدولية التي ستحضره.

وكان الأستاذ سعيدًا بهذا التكريم المصري قدر سعادته بالجائزة العالمية، وقال لي: قلادة النيل المصرية الآتية من بلدي لا تقل في نظري

عـن جائزة نوبل ، ثم سـكت قليلاً، وعاد يقول: مع إنها جائزة «بلوشـي».. لكن يكفي أنها تحمل اسـم النيل الخالد، وأنها لا تمنح إلا لرؤسـاء الدول وكبار الشخصيات.

أما أشد ما كان يقلق نجيب محفوظ، فكان اضطراره لارتداء ربطة عنق في مثل هذه المناسبة الرسمية، وقال: سأظل دائمًا مدينًا لك لأنك ستنوب عني في احتفالات نوبل بالسويد، والتي تعلل لعدم حضورها بمشقة السفر وبحالتـه الصحية، قلـت: لا أتصور أنـك تريدني أن أنوب عنك في تسـلم قـلادة النيل هنا في القاهرة؟! وكان جالسًـا معنا في مكتب الأسـتاذ نجيب بجريـدة «الأهـرام» الكاتب الصحفي إسـماعيل الحبروك الـذي قال بخفة دمـه المعهودة: اترك لي أنا قلادة النيل يا أسـتاذ نجيـب! وضحكنا جميعًا، لكن الأسـتاذ ظل منشغلاً بالرسميات التي ستفرضها عليه المناسبة، فقلت له: ماذا يحدث لو ارتديت ربطة عنق لمدة ساعتين فقط؟ لقد شاهدت لك صـورًا قديمة كنت ترتدي فيها «البابيون» وصـورًا أخرى بالطربوش، قال: لقـد أقلعت عـن الاثنين، وظل رافضًا رفضًـا باتًّا ارتداء ربطـة العنق، وبعد تفكيـر طويـل قال: تقديرًا لهذه المناسـبة الرسـمية لن آتـي بقميص مفتوح وإنما سأقفل أزراره حتى العنق، وهذا أقصى ما أستطيعه.

وبالفعـل حضـر نجيب محفـوظ الحفـل ببدلة سـوداء تليق بالمناسـبة وبقميص أسود أغلق أزراره حتى الرقبة.

كان سـبب زيارتـي للأسـتاذ فـي ذلك اليـوم هو تسـليم رد آرثـر ميللر علـى دعوته للحضـور، والتي طلـب أن أطلع محفوظ عليهـا، وكان نصها كالآتي:

«آسف لعدم إمكاني الحضور إلى القاهرة لحضور الاحتفال المقام لتكريمكم بمناسبة حصولكم على جائزة نوبل في الأدب؛ وذلك بسبب عدد من الارتباطات السابقة، والتي لم أتمكن من التخلص منها.

على أني أنتهز هذه الفرصة لأبعث لكم بتهانيّ القلبية على هذا التقدير العظيم، وأعرب لكم عن عميق تقديري، وأتمنى لكم مزيدًا من الإنجازات العظيمة».

آرثر ميللر

وحانت الفرصة لآرثر ميللر أن يزور مصر بعد ذلك بشهرين تقريبًا هو وأسرته لقضاء إجازة عيد الميلاد ورأس السنة بين الأقصر وأسوان، وقد انتهز ميللر فرصة وجوده في القاهرة في بداية شهر يناير 1989 بعد العودة من صعيد مصر ليقابل أديبنا الأكبر نجيب محفوظ، وهذه المرة كان ميللر هو الذي طلب لقاء محفوظ، فقد اتصل أحد موظفي السفارة الأمريكية العاملين بالقسم الثقافي بالأستاذ نجيب وأخبره برغبة ميللر في أن يلتقي به في المكان الذي يحدده، فقال محفوظ إنه سيذهب إليه بنفسه.

وفي يوم 3 يناير 1989 وقبل ساعات من مغادرة ميللر لمصر كان نجيب محفوظ بصحبة موظف السفارة يدق باب غرفة آرثر ميللر بفندق النيل هيلتون حسب الموعد المحدد.

وقد روى لي الأستاذ نجيب أن فتاة صغيرة فتحت له الباب فوجد نفسه أمام فراش ترقد فيه سيدة أجنبية فظن أن هناك خطأ في رقم الغرفة، لكنه اكتشف أن ميللر ينتظره في الصالون الملحق بالغرفة، وأن السيدة الممدة على السرير هي زوجة ميللر المصورة النمساوية إنجي موراث، وأن الفتاة

الصغيرة هي ابنة ميللر. ولم يكن محفوظ يعرف أن ميللر تزوج بعد مارلين مونرو أو أن له ابنة من زواج سابق.

وبعد الترحيب جلس الكاتبان في صالون الغرفة، وكان محفوظ هو الذي بدأ الحديث قائلاً لميللر: لقد كنت أسطورة بالنسبة لي يا مستر ميللر منذ قرأت مسرحيتك الأولى «وفاة بائع متجول»، وأدركت التحول الذي أحدثته في المفهوم العصري للتراجيديا.

فقال ميللر: وأنت الآن أسطورة، وها قد التقت الأسطورتان! ثم سأل ميللر محفوظ: هل قرأت المسرحية بالإنجليزية؟ فرد محفوظ: لا للأسف فلم يكن النص الإنجليزي متاحًا، لقد قرأتها مترجمة إلى العربية، ثم تابعت جميع أعمالك بعد ذلك فقرأت البعض بالعربية والآخر بالإنجليزية.

ورد ميللر قائلًا: إنك تخجلني، فأنا أعرف الكثير الآن عن أعمالك الروائية، لكني لم أقرأ أيًا منها بعد؛ لأني عند فوزك بالجائزة سألت عن أعمالك في المكتبات في نيويورك فلم أجدها، لكن قيل لي إنها الآن أصبحت متوفرة، وسأحصل عليها فور عودتي للولايات المتحدة.

ثم سأل ميللر محفوظ عن مكانة الآداب الأجنبية في مصر، فقال محفوظ: إننا نعرف الآداب الأجنبية أكثر مما تعرفون أنتم آدابنا، فقال ميللر: أرجو أن يغيّر فوزك بنوبل من هذا العوار.

وتوالت أسئلة ميللر فسأل محفوظ إن كان هناك كاتبًا أجنبيًا أثر فيه تأثيرًا كبيرًا؟ أو إن كان قد تأثر بأحد من أفراد أسرته؟، فقال محفوظ: لا أستطيع القول إن هناك كاتبًا واحدًا تأثرت به بشكل خاص، أما عائلتي فلم يكن بها أدباء، لذلك لم أتأثر بأحد من عائلتي ولم يتأثر أحد من عائلتي بي.

وقال لي محفوظ إنه أعجب جدًّا برأي ميللر في مسألة الجوائز؛ حيث لم يبدو أنه يعيرها اهتمامًا كبيرًا، وقال إن من رأيه أن الجوائز في حياة الكاتب هي شيء عارض قد يأتي وقد لا يأتي، وقيمتها الحقيقية تكمن فقط في أنها تلفت النظر للكاتب، خاصة إذا لم يكن معروفًا عالميًّا، لكن قيمة الكاتب نفسه لا تحددها الجائزة، وإنما هي تبقى كما هي لا تزيد ولا تنقص رغم الجائزة، ومن ثمّ فالجائزة في النهاية هي شيء رمزي ليس أكثر.

وقال ميللر لمحفوظ إن نوبل حصل عليها كتّاب لم نعد نسمع عنهم الآن، بينما هناك كتّاب خالدون، مازالوا ملء السمع والبصر لكنهم لم يحصلوا عليها، مثل: تولستوي وفوكنر وجراهام جرين.

ثم انتقل الحديث إلى مصر القديمة وتاريخها، وقال ميللر إنه سعد أن عرف أن محفوظ له روايات مستوحاة من ذلك التاريخ المجيد، وقال إنه استمتع جدًّا بما شاهده من آثار أثناء زيارته لمصر، لكنه الآن يتطلع إلى التعرف على مصر الحديثة، وخاصة أدباءها الذين لفت محفوظ نظر العالم لقيمتهم.

كان لقاء محفوظ بميللر لقاء عابرًا لم يستغرق طويلاً، لكنه قال لي إنه كان سعيدًا جدًّا به، فقد ارتاح إلى شخصية ميللر الذي وجده جادًّا وودودًا في الوقت نفسه، وقال إنه أثناء نزوله في مصعد الفندق شعر بأنه ازداد ثراء لأنه التقى بكاتب كان يُكن له منذ سنوات تقديرًا كبيرًا.

أما الشيء الذي أحزن محفوظ في المقابلة- حسبما قال لي مداعبًا- فهو أن السيدة الممدة على فراش ميللر لم تكن تشبه مارلين مونرو في شيء!

الشاب محمد ناجي
حديث بين محفوظ وقاتله

هذا حديث غير مباشر كنت أنا أداته بين نجيب محفوظ والشاب عضو الجماعة الإسلامية الذي حاول اغتياله، فلم يحدث أن التقى محفوظ أو تحدث إلى ذلك الشاب الذي غرس السكين في رقبته مساء تلك الجمعة الحزينة من شهر أكتوبر عام 1994، كما لم يحدث أن وجه الشاب أية كلمات للأديب الأكبر أثناء اعتدائه عليه، لكني التقيت بالاثنين فتحدث إليَّ كل منهما عن الآخر.

لقد كنت أول من التقى بأديبنا الأكبر في مستشفى الشرطة في اليوم التالي مباشرة للحادث الآثم الذي أرادوا به اغتيال أحد أكبر الأعلام العربية التي ترفرف في الفضاء العالمي فخرًا وكبرياء للعرب جميعًا، وقد ارتكبوا إثمهم باسم الدين الذي هو منهم براء، وباسم الله الذي أفشل مخططهم حيث أراد عز وجل غير ما أرادوه، فكانت إرادته هي النافذة، ونجا نجيب محفوظ من الاغتيال.

كنت جالسًا في استراحة المستشفى مع أسرة الأديب الأكبر حين شاهدت اللواء وجيه عيسى مدير الخدمات الطبية بوزارة الداخلية خارجًا من غرفة العناية المركزة التي يرقد بها الأستاذ نجيب، وكنت قد قابلت

اللواء وجيه عيسى عند حضوري في ذلك الصباح؛ حيث طمأنني إلى أن الأستاذ قد تخطى مرحلة الخطر بعد أن تم إسعافه في الوقت المناسب، وقبل أن يتمكن منه ذلك النزيف الحاد الذي تفجر من الجانب الأيمن لرقبته حيث غرس الشاب سكينه.

وقال لي اللواء وجيه عيسى إنه سيعطيني تقريرًا مفصلاً عن حالة الأستاذ بمجرد أن يوقع عليه كشفه في غرفة العناية المركزة؛ لذا ما إن لاح طيفه في الأفق حتى هرعت إليه أسأله عن حالة الأستاذ، ففاجأني بقوله: ستشاهد حالته بنفسك فهو ينتظرك.

بمجرد سماعي ذلك انطلقت صوب غرفة العناية المركزة، لكن اللواء وجيه عيسى استوقفني قائلاً: أنت تعرف أن الزيارة ممنوعة تمامًا إلا لأسرته، وهم يدخلون فرادى ولمدة لا تزيد عن ثلاث دقائق، لكن حين أخبرنا الأستاذ أنك في الخارج طلب أن يراك، ورغم أن الزيارات ترهقه صحيًا فإن تقديري أنها ستفرحه نفسيًا، وهذا عامل مهم؛ لأن الحالة النفسية هي التي تدفع المريض إلى الشفاء؛ لذلك أرجو ألا تزيد زيارتك له عن ثلاث دقائق.

وعدت الرجل بذلك ودخلت على الفور إلى غرفة العناية المركزة، وكأن العد التنازلي للدقائق الثلاث المسموح لي بها بدأ بالفعل منذ نطق به مدير الخدمات الطبية بوزارة الداخلية.

انطلق صوت الأستاذ مجلجلاً بمجرد أن رآني: «أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً»، ولولا الضمادات التي أحاطت رقبته ورداء المستشفى ذي اللون الأخضر الداكن لما لاحظت أن حادثًا قد وقع.

كنت أنوي أن أتحدث إليه بصوت خفيض، لكن صوته في المستشفى كان هو صوته الذي اعتدناه خارج المستشفى.

اقتربت من سريره فمد يده إليَّ وقبض بشدة على يدي فانحنيت أقبّل جبهته وفي حلقي غصة تمنعني من رد السلام، لكن ابتسامته البشوش أكدت لي أن حالته بخير، فزالت عني رهبة الموقف وقلت له: إنني لا أصدق ما يقال يا أستاذ نجيب (لم أجرؤ على نطق كلمة الحادث)، فها أنت سليم معافى كما عرفتك دائمًا، صوتك مازال مجلجلاً وابتسامتك لم تفارقك»!

قال في اقتضاب: «الحمد لله!» وكررها ثانية: «الحمد لله!».

وقفت إلى جوار سريره ممسكًا يده دون أن أتكلم، كنت أبحث عن موضوع أتكلم فيه غير الحادث، لكنني فوجئت به يروي لي ما حدث كأنه يجيب على أسئلة لم أسألها له.

قال: «أنا لم أر الشاب الذي اعتدى عليَّ.. لم أر وجهه... الذي حدث هو أنني وأنا أهُم بركوب السيارة لأذهب لموعدي مع أصدقائي في الندوة الأسبوعية، وجدت شخصًا يقفز بعيدًا، وكنت قد شعرت قبلها بثوان معدودة وكأن وحشًا قد نشب أظافره في عنقي، وقد دهشت ولم أدرك بالضبط ما حدث»!

وأضاف الأستاذ نجيب محفوظ: «لكني حين شاهدت هذا الشخص يرمي خنجرًا كان في يده فهمت على الفور ما حدث وعرفت أن هذا الخنجر هو الذي كان في عنقي، وبدأت أشعر بالدماء تنزف من عنقي،

فوضعت يدي على رقبتي لأوقف النزيف، بينما انطلق صديقي الدكتور هاشم فتحي بالسيارة إلى مستشفى الشرطة الملاصق لبيتي».

وأسأل الأستاذ نجيب محفوظ: وماذا كان آخر شيء تتذكره؟ فقال: عند وصولنا إلى المستشفى نزلت من السيارة وأردت أن أصعد السلم الذي توقفت السيارة عنده، لكن بعض الناس الذين لا أعرف مَن هم أصروا على حملي، وأصررت أنا على السير، ولا أكاد أذكر ما حدث، بعد ذلك.

وابتعدت بالحديث عن التفاصيل الدامية للحادث لأسأل الأستاذ نجيب عن مشاعره تجاه ما حدث، فيقول على الفور: «إن شعوري مزدوج، فمن ناحية أشعر بالأسف لتكرار جرائم الرأي، فهناك الشيخ الذهبي والأستاذ مكرم محمد أحمد والسيد فرج فودة، وأقول إن هذا ليس الطريق للتعامل مع الرأي.

إنه لشيء مؤسف جدًّا ومسيء جدًّا لسمعة الإنسان في العالم أن يؤخذ أصحاب الرأي.. أصحاب القلم هكذا ظلمًا وبهتانًا.

ومن ناحية أخرى، فإنني أشعر بالأسف أيضًا من أن شبابًا من شبابنا يكرس حياته للمطاردات والقتل فيطارد ويقتل، وذلك بدلاً من أن يكون في خدمة الدين والعلم والوطن». ثم يسرح الكاتب الكبير ببصره بعيدًا مسترجعًا مرة أخرى تفاصيل ما حدث، ويقول:

«إن الشاب الذي رأيته يجري كان شابًا يافعًا في ريعان العمر.. كان من الممكن أن يكون بطلاً رياضيًّا.. أو عالمًا.. أو واعظًا دينيًّا.. فلماذا اختار هذا السبيل؟ لست أفهم».

وشجعني حديثه أن أسأله: «ما هو شعورك تجاه ذلك الشاب؟».. قال على الفور: «إنه ضحية، لذلك.. فشعوري نحوه هو شعور الأب تجاه الابن الذي ضل الطريق، إنه شعور أكثر إيلامًا مما يمكن أن تشعر به تجاه أي مجرم عادي».

قلت: «ألا يحدث أن يغضب الأب على ابنه ولا يستطيع أن يسامحه أو يغفر له خطاياه؟». قال: «لكني أنا سامحته»، ثم استطرد: «سامحته عما يخصني، أما ما يخص المجتمع فالعدالة يجب أن تأخذ مجراها».

قلت: «هناك حساب الرب لمن قتل نفسًا بغير حق»، قال: «الحمد والشكر لله».

وسرح ذهن الكاتب الكبير قليلاً فلم أشأ أن ألاحقه بالسؤال، لكنه عاد بعد قليل، فقال: «لقد كنت متجهًا للقاء أصدقائي!» فقلت له: «هل ستغيّر أسلوب حياتك بعد هذا الحادث يا أستاذ نجيب؟ هل ستستطيع أن تذهب إلى ندوتك كل أسبوع، وأن تسير وحدك في الطريق بلا حراسة كما كنت تفعل؟».

فنظر إليَّ في وداعة وهدوء، وقال وكأنه يعبر عن أمنية غالية: «أرجو ألا أرغم على تغيير أي شيء في أسلوب حياتي واختلاطي بالناس وتمشيتي بينهم في الشارع»، ثم أضاف: «سيعز عليَّ كثيرًا أن أرغم على الابتعاد عن الناس، وأن تكون بيني وبينهم حواجز أمنية. إن حياتي كانت دائمًا وسط الناس ولم أر منهم إلا كل الحب، فقد كانوا دائمًا يقبلون عليَّ وأنا أسير في الطريق، ويصافحونني ويطمئنون عليَّ، لماذا تريدني أن أحرم من دفء المشاعر الإنسانية التي طالما أحاطني بها الناس؟!».

وتظهـر علـى الفور فـي عيني أديب مصـر الكبير نظـرة تصميم واضحة وهـو يقـول: «لا.. لن أغيّر أسـلوب حياتـي.. والله الذي حفـظ إن أراد أن يحفظ سـيحفظ». ثم يضيف ضاحكًا: «أما إذا كان الله يريد الأخرى فنحن أيضًا نحب أن نلقاه».

وجلجلت ضحكته في أرجاء الغرفة فخشـيت أن يسـمعها مَن بالخارج فينتبهـوا إلـى أن وقـت الزيـارة قد انقضـى. لكن أحـدًا لم يأتِ، فاسـتطرد الأسـتاذ: «كـم كنـت أود أن أتحـدث إلى ذلك الشـاب الذي لـم أر وجهه ولا أعرف اسمه!».

قلـت: «لو أنـك تحدثت إليه، ماذا كنت سـتقول؟» قـال: «إنني أريد أن أعـرف دوافعـه، أن أفهم عقليتـه، أن أدرس شـخصيته.. لقد كان شـابًا في مقتبـل العمـر..». وسـكت قليلاً، ثم عاد يقـول وكأنه يحدث نفسـه: «ماذا فعلوا بشباب البلد؟!».

وظلت الأسئلة الأخيرة التي طرحها الأستاذ تسيطر عليَّ وتدفعني دفعًا إلى أن أسـعى للقاء ذلك الشاب، وحين قابلت الشاب محمد ناجي محمد مصطفـى كان يعالـج من الإصابات التـي لحقت به وقـت القبض عليه هو وزمـلاؤه في منطقة عين شـمس، وجدته شـابًا قمحي اللـون، عوده رفيع، في العشـرينيات من عمره، وعلمت أنه من ملوي بالمنيا، وأنه حاصل على دبلوم صنايع ويعمل فني إصلاح أجهزة إلكترونية.

قال: «لقد التجأت إلى الله منذ أربع سـنوات عن طريق أحد أصدقائي، وأخذت أتردد معه على بعض المساجد في عين شمس حيث نقيم، وقرأت كتبًا كثيرة خاصة بالجماعة الإسلامية إلى أن قبلوني».

سـألته: «ماذا قـرأت؟» قال: «قرأت كتبًا عن الشـيخ عمـر عبد الرحمن وعبد الآخر حماد وناجح إبراهيم وعبود الزمر»، قلت: «هل قرأت لنجيب محفـوظ؟». قال بلا انفعال: «أسـتغفر اللـه»، قلت: «لو أنك قـرأت له لما حاولـت قتلـه»، رد دون أن يفقد هـدوءه: «ليس بي حاجـة لقراءته»، قلت: «ألـم تحاول اغتياله بسـبب كتاباته؟»، قال: «قمـت بمحاولة الاغتيال لأني كنت أنفذ أوامر أمير الجماعة، والتي صدرت بناء على فتاوى الشـيخ عمر عبد الرحمن وبقية مَن هم في السـجون الآن، ولو أنني قرأت هذه الأعمال أو لـم أقرأها لـم يكن ذلك سيؤثر في الموضوع».

قلـت: «هل تعلم أن نجيب محفوظ سـامحك علـى جريمتك؟»، قال: «هذا لا يعنيني ولا يغيّر من الأمر شـيئًا، لقد هاجم نجيب محفوظ الإسلام في كتبه، لذا أهدر دمه، وقد شرفتني الجماعة بأن عهدت إليَّ بتنفيذ الحكم فيـه، فأطعت الأوامر»، قلت: «دون تفكيـر؟»، قال: «هناك مَن هم مكلفون بالتفكيـر، أمـا أنا فكنت مكلفًـا بالتنفيذ»، قلت: «لكـن إرادة الله كانت غير إرادتكم، ألم تحاول إعمال عقلك أو تسأل نفسك لماذا أفشل الله سبحانه وتعالى مخططكم؟»، قال: «لله في ذلك حكمة لا أنا ولا أنت نعرفها».

ثـم روى لي محمد ناجي أنه توجه مع زميله باسـم (والذي «استشـهد» علـى حـد قوله أثنـاء القبـض عليهما) إلى منـزل نجيب محفـوظ في اليوم السـابق على الاغتيال وطلبا مقابلته وكانا يحملان داخل ملابسهما مسدسًا وسـكينًا، وكان باسـم يرتدي ملابس عربية حتى يبدو أنه من دول الخليج، وقال محمد ناجي: «وحملنا معنا حلوى وورودًا للتمويه، لكن زوجته التي فتحـت لنـا الباب قالت إنه غير موجود، وإن بإمكاننـا مقابلته غدًا في ندوته بكازينو قصر النيل، وقالت إنه يذهب إليها في الخامسة بعد الظهر».

ثم قال: «لقد كان الهدف هو ذبح نجيب محفوظ داخل منزله بالسكين، أما المسدس فكان لتهديد أفراد أسرته حتى لا يطلبون النجدة، لكن الله لم ييسر الأمر، لذلك قررنا ذبحه في اليوم التالي، وقد قمت بتنفيذ العملية وحدي وهربت إلى زملائي في عين شمس وأخبرتهم أنني غرست السكين في رقبة نجيب محفوظ فأخذوني بالأحضان وأخذوا يقولون لي: «مبروك»».

قلت: «قال لي محفوظ إنه كان يتمنى لك أن تكون عالمًا أو بطلاً رياضيًا، لا أن ترتكب جريمة قتل».

لم يرد.

قلت: «لو أنك قابلت نجيب محفوظ، ماذا كنت تود لو قلته له؟»، قال: «ليس بيني وبينه كلام، ولو أنني قابلته ثانية لنفذت فيه مرة ثانية الأمر الذي صدر إليَّ».

زيارات متفرقة

لو أني حصرت كل اللقاءات التي جرت بين نجيب محفوظ وزائريه من الأدباء والشعراء ورجال السياسة والشخصيات العامة لاستغرق ذلك عدة مجلدات، ولقد اخترت بعض أهم هذه اللقاءات والتي اختصرت كلًّا منها في أهم ما دار فيها بين محفوظ وزائريه على النحو التالي:

«الطريق» بين الشرق والغرب

استقبل الأستاذ نجيب محفوظ الكاتب والشاعر الأمريكي لابان كاريك هيل الذي جاء يخبره أن رواية «**الطريق**» قد غيّرت مجرى حياته منذ قرأها في السبعينيات، فرد عليه الأستاذ مندهشًا: يا سلام؟!

فقال الكاتب الأمريكي: لقد قرأتها في ترجمتها الإنجليزية؛ حيث صدرت باسم «البحث The Search » وتأثرت كثيرًا بمحنة بطلها صابر الذي كان يبحث عن والده؛ لأنه من خلال ذلك كان يبحث عن أشياء أخرى كثيرة تصل إلى حد البحث عن معنى الحياة ذاتها، ولقد رصدت حياتي أنا أيضًا بعد قراءتي الثالثة للرواية للبحث عن معنى الأشياء وعدم الاكتفاء بما يقدم لنا من تفسيرات جاهزة الصنع، والتي تعودنا عليها في

الولايـات المتحـدة، لقد كانت رواية «**الطريق**» بالنسـبة لي تمثل ثورة على نمط الحيـاة الأمريكية؛ ولذا أثرت فيَّ كثيرًا لدرجة أنني الآن حين أتحدث عنها لأصدقائي لا أقول إنني قرأتها، وإنما أقول إنني اعتنقتها، فقد اتخذت من الطريق الذي سلكه بطلها بحثًا عن الحقيقة منهجًا لي في الحياة، ورغم أن البطـل لـم يجد في النهاية والده الذي كان يبحـث عنه، إلا أن المهم في هذه الرواية كان البحث في حد ذاته.

ومضـى الكاتـب الأمريكـي يقول: أما مـن الناحية الفنية فقـد مثلت لي هذه الرواية خروجًا كاملاً على تقاليد الرواية التقليدية كما عرفناها على يد تشارلز ديكنز مثلاً، لكنها احتفظت ببعدها التراجيدي في النهاية.

فابتسـم الأسـتاذ نجيب في تواضع وهو يقول لضيفـه: لقد مضى وقت طويل جدًّا منذ كتبت هذه الرواية. فقال هيل بسـرعة: إني أشـعر أنك كتبتها اليـوم، فموضوعهـا أصبـح الآن حالاً أكثر من أي وقـت مضى؛ لأن صراع بطلها بين عالمين هو الصراع الذي يكتنف شباب اليوم بين القديم والجديد، بين التاريخ والمعاصرة، وربما أيضًا بين السلفية والعالم الحديث. إن هذه الرواية تحمل إرهاصات الصراع الذي نشـهده في العالم الآن بين الشـرق والغرب. فسـكت الأسـتاذ متأملاً إلى أن سـأله ضيفه فجأة: ما هي رؤيتك للعلاقة الآن بين الشرق والغرب؟

قال: هي علاقة مريضة ينبغي علاجها من أجل مسـتقبل البشرية جمعاء فالعالـم لا يمكـن أن يعيـش هكـذا وقد احتدم الصراع بين شـقيه الشـرقي والغربـي. إن مـن واجبنـا أن نعمل علـى زيادة التفاهـم فيما بيننـا والقبول بالفـروق التـي تميـز ثقافـة كل منـا، فالشـرق العربي منطقـة عريقـة ثقافيًّا

وحضاريًا، ولا يمكن أن تصبح نسخة طبق الأصل من الحياة في أمريكا، كما أن علينا من جانبنا أن نفهم الولايات المتحدة؛ لأنها أقوى دولة في العالم الآن، ولا نستطيع إلا أن نتعامل معها فهي تؤثر في حياتنا سواءً رضينا أم أبينا.

قال هيل: هذا صحيح، وأنا أجد أن الشرق الأوسط أصبح يؤثر هو الآخر في الحياة الأمريكية أكثر من أي وقت مضى، لقد كان للثقافة الإفريقية السوداء تأثير كبير فيما مضى على الحياة الأمريكية، وقد اتضح ذلك في مجال الفنون مثلاً، وأنا الآن أرى أن ثقافة الشرق الأوسط سيكون لها مثل هذا التأثير في المرحلة القادمة.

ثم يضرب مثلاً على ذلك فيقول: إن شعر الغزل العربي مثلاً قد اكتشف أخيرًا في الولايات المتحدة، وأصبح عدد كبير من الشعراء والشباب الآن يقبلون على هذا الشعر الذي بدأ ينعكس على أشعارهم، وقد أدخله إلى الولايات المتحدة الشاعر الكشميري أغا شهيد علي، وأنا أرى أن فن الشعر الأمريكي بدأ يتغير بفعل ذلك مثلما يتغير كل من يقرأ أعمالك.

قال الأستاذ نجيب محفوظ: إن على الثقافة دور كبير في التقارب بين الشعوب.

الأدب والشأن العام!

تتراوح أسئلة زائري محفوظ من الشخصيات الأجنبية - سواء الصحفيون منهم أو الدبلوماسيون أو رجال الفكر والثقافة - ما بين الأمور الجارية في مصر والوطن العربي من جانب وما يخص أعماله الأدبية من

جانب آخر، وقد توجه الناقد أونج ري للأستاذ بسؤال جمع بين الشأن العام وأدب نجيب محفوظ؛ حيث قال له: أنت من أكثر الأدباء في مصر الذين اهتموا بالتاريخ الفرعوني القديم، فقد كتبت في بداية حياتك ثلاث روايات كانت هي أول إنتاجك الأدبي تدور كلها في مصر القديمة هي: «**رادوبيس**» و«**كفاح طيبة**» و«**عبث الأقدار**»، ثم عدت مرة أخرى في الثمانينيات فكتبت «**العائش في الحقيقة**» عن إخناتون، وقد أوضحت أكثر من دراسة أنك في معالجتك للتاريخ القديم كنت مهمومًا بالحاضر، فـ«**كفاح طيبة**» كانت تعبر عن نضال مصر في القرن العشرين للتحرر من الاحتلال البريطاني، و«**العائش في الحقيقة**» اعتبرها البعض قصة الرئيس الراحل أنور السادات..

فقال الأستاذ: الكاتب لا يستطيع إلا أن يكون مهمومًا بحاضره، وهذا هو الفرق بينه وبين المؤرخ، فالكاتب حين يعود إلى التاريخ، فذلك لأنه وجد فيه ما يساعده على التعبير عن الحاضر، أما المؤرخ فاهتمامه بالتاريخ يكون لذات التاريخ.

فسأله زائره: هل تبقى شيء من مصر القديمة في الحاضر الذي تعيشه مصر الآن؟

فقال: حاضر مصر هو امتداد طبيعي لماضيها ليس الفرعوني وحده وإنما أيضًا الإسلامي والقبطي وبعض الفترات الأخرى التي تركت آثارها، ومنها الحضارة اليونانية الرومانية في العصر القديم والحضارة الغربية في العصر الحديث.

وقد يعجب البعض لذلك، لكن هناك بقايا في لغتنا اليومية للغة المصرية القديمة في الكثير من الكلمات التي نستخدمها اليوم، وهناك

أيضًا من العادات والتقاليد ما يعود إلى العصور الفرعونية، لكن أهم ما تركه لنا التاريخ المصري القديم هو الدين، فالشعب المصري من أكثر الشعوب تدينًا منذ بداية تاريخه وحتى الآن، كما أن إنسانية الحضارة المصرية القديمة هي التي شكلت الشخصية المصرية الحديثة بعزوفها عن القسوة والعنف وتقديسها للحياة الإنسانية، وهو ما يجعل التيار الإسلامي المتطرف في لجوئه للعنف والإرهاب استثناءً واضحًا أوجدته ظروف دخيلة علينا.

وقد كان من الطبيعي استطرادًا لهذا السؤال أن يتطرق الحديث إلى رواية «**أولاد حارتنا**» التي كان للأزهر رأي فيها، والتي كانت السبب وراء واقعة الاعتداء على أديبنا الأكبر عام1994، وهكذا جاء السؤال: تعرضت لنقد بعض الكتّاب والمثقفين في مصر لأنك طلبت من الأزهر أن يوافق على الرواية كي تنشر في مصر..

قال الأستاذ: إن موقفي في هذا الموضوع واضح وقد أعلنته أكثر من مرة، وهو أنني أحترم الأزهر، وإذا كان هناك عمل من أعمالي هو لا يرضى عنه فأنا لا أود أن أغضبه، وذلك من منطلق أخلاقي بحت، وبرغم أن بعض رجال الأزهر قد أعلنوا أنهم على استعداد لإعادة بحث الموضوع لو أنني رغبت، إلا أنني لا أوافق على ذلك، لأن مثل هذا الطلب سيرسي سابقة في هذا الموضوع لا أقرها، فأنا لا أوافق على أن يسعى الكاتب للحصول على موافقة المؤسسة الدينية على ما يكتبه من إبداع أدبي.

قال الزائر: إذن لماذا كتب كتّابكم يقولون إنهم يختلفون معك في سعيك للحصول على موافقة الأزهر؟

فابتسم الأديب الأكبر وهو يقول: ربما كانت مزايدات مما اعتادته حياتنا الثقافية.

فسأله الناقد الأجنبي: يزايدون عليك أنت؟!

فلم يرد الأستاذ.

زيارة سفير فنزويلا

قال سفير فنزويلا في القاهرة فيكتور كاراسو للأستاذ نجيب محفوظ: لقد سعيت للقائك منذ بداية حضوري إلى القاهرة قبل نحو أربعة أشهر، وقد أعربت عن رغبتي هذه لوزارة الخارجية المصرية التي نتقدم لها بكافة طلباتنا؛ وذلك لأنني تعرفت على المجتمع المصري من كتاباتكم، وخاصة **الثلاثية** التي تتبعت فيها تاريخ مصر الحديث عبر ثلاثة أجيال، فمنذ استقبلني رئيس الجمهورية في عاصمتنا كاراكاس ليخبرني بأني قد وقع عليَّ الاختيار لأكون سفيرًا في القاهرة، وأنا أعكف على قراءة أعمالكم الأدبية ذات الفائدة الكبيرة لي في هذا المجال، علاوة على المتعة الفنية التي تمنحها قراءة الأعمال الأدبية، ولهذا جئتك اليوم لأشكرك على هذه المتعة، ولأعرب عن امتناني لهذه المعرفة التي أشعر أنها أفادتني كثيرًا.

ثم يؤكد السفير للأستاذ: لقد تعرفت على المجتمع المصري في رواياتكم تعرفًا شبه كامل لدرجة أنني حين وصلت إلى مصر، والتي كنت أزورها لأول مرة لم أجدها غريبة عليَّ، والآن أستعد لقراءة رواية جديدة هي **«يوم قتل الزعيم»**، التي أتطلع للاستمتاع بها والاستفادة بما ستقدمه لي من رؤية ثاقبة لملابسات حدث مهم في تاريخ مصر القريب.

ويصمت الأستاذ تواضعًا، ثم يسأل زائره: هل قرأت «**الثلاثية**» بالإسبانية؟

فيرد السفير: بل بالإنجليزية لأنني أخشى أن تكون الترجمة الإسبانية قد نقلت عن الإنجليزية، بينما الترجمة الإنجليزية نقلت عن الأصل العربي، لكني سأحاول قراءة «**يوم قتل الزعيم**» بالإنجليزية والإسبانية معًا لكي أقارن بينهما.

تطور المرأة في «الثلاثية»!

استقبل الأستاذ نجيب محفوظ برماوي مونتي المدرس بجامعة إندونيسيا الحكومية، والذي اختار أن يكون موضوع رسالة الدكتوراه التي يعدها الآن عن «رؤية محفوظ للمرأة من خلال أجيال **الثلاثية** الثلاثة»، ويروي الأكاديمي الإندونيسي لمحفوظ أنه تعرف على أعماله لأول مرة في كندا؛ حيث كان يدرس بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجيل الشهيرة، وقد نال درجة الماجستير هناك في أدب نجيب محفوظ، واختار أن تكون رسالته عن الطالب الجامعي وحياته من خلال رواية «**القاهرة الجديدة**».

وسأل الزائر الإندونيسي محفوظ عن وضع المرأة الآن، وهل تغير عما كان عليه وقت كتب «**الثلاثية**»، فرد قائلاً: لقد صورت «**الثلاثية**» المرأة في مختلف مراحل تطورها، فهناك المرأة القديمة المغلوبة على أمرها، لكن هناك أيضًا المرأة الحديثة.

فشرح السيد «مونتي»: إنني أتبع في دراستي لـ«**الثلاثية**» أسلوب مطابقة الواقع الروائي بالواقع التاريخي، وبما أن الواقع التاريخي بطبيعته متغير فقد يصبح الواقع الروائي مختلفًا عنه بعد مرور السنوات، لكني وجدت أن الواقع الذي قدمته في «**الثلاثية**» كان واقعًا ديناميكيًّا وليس استاتيكيًّا؛ أي أنه واقع متحرك لأنه يرصد حركة تطور وليس واقعًا جامدًا يقدم ما هو كائن في تلك اللحظة فقط.

فقال محفوظ: إن الذي أتاح لي ذلك هو أنني قدمت ثلاثة أجيال؛ لذلك كان يجب أن أرصد التطور الذي دخل على المرأة وغيرها عبر مرور الزمن.

وقال برماوي مونتي: لكني لاحظت رغم تلك التطورات الخارجية فإن هناك خصائص إنسانية ثابتة في المرأة تسري عبر جميع الأجيال، فهي في معظم الأحيان مثابرة وذكية وصبورة، وتمثل الخير والحق بأشكال مختلفة، ثم إنني وجدت أنك تؤمن بتطور المرأة، فالشخصيات النسائية عندك تتطور وتتقدم من جيل إلى جيل، وهي تحقق ذلك بالتدريج وليس عنوة، فأمينة تمثل مرحلة ثم عائشة وخديجة تمثلان مرحلة أخرى، أما سوزان حماد في «**السكرية**» فتمثل مرحلة ثالثة، وتلك المراحل الثلاث متتالية تؤدي كل منها إلى الأخرى بفضل قناعة أخلاقية ثابتة وبشكل يكاد يكون طبيعيًّا وبدون اللجوء إلى الثورة أو التمرد اللذين قد يؤتيان نتائج عكسية. ومن هنا فإن تطور المرأة في «**الثلاثية**» يتبع طريقًا يختلف كثيرًا عن منهج حركات تحرر المرأة التي عرفها العالم الغربي في القرن العشرين، والتي اعتمدت على العنف والتمرد الصدامي على الأوضاع السائدة.

ويضيف الباحث الإندونيسي: ولقد بحثت عن وسيلة هذا التطور الاجتماعي في «**الثلاثية**» فوجدت أنه التعليم الذي يسمح للمرأة أن تؤكد ذاتها، فقد تعلمت جميع الشخصيات النسائية في «**الثلاثية**» وهكذا حدث الارتقاء، ابتداء من ابنة عبد الجواد التي تلقت تعليمها في المنزل إلى زوجة محمود التي ذهبت فيما بعد إلى الجامعة.

وسأله محفوظ: وماذا ستدرس في الجامعة بعد حصولك على الدكتوراه؟

قال: سأستمر في تدريس نجيب محفوظ بالطبع، فأعمالك تمثل عالمًا ثريًّا عميق الأغوار ومليئًا بالأبعاد التي لم يتم استكشافها بعد، فقد قرأت الكثير جدًّا مما كتب في العالم عن أعمالك، لكني في كل مرة أعود فيها لقراءة رواية من رواياتك أجد فيها ما لم يتنبه إليه أحد، وهناك الكثير من القراء في إندونيسيا الذين يهوون قراءة أعمالك.

فسأله محفوظ: وهل ترجمت هذه الأعمال إلى لغتكم؟

قال: بل نحن نقرأها بالعربية، فالعربية هي لغة القرآن التي ندرسها في إندونيسيا.

وفي نهاية لقائه بأديبنا الأكبر قال الضيف الإندونيسي إنه فخور جدًّا بأنه قد أصبح الآن مرجعًا أساسيًّا في إندونيسيا في الأدب المحفوظي، ثم قال: لقد تكسبت كثيرًا من الكتابة في الصحف والمجلات العلمية عن أعمالك سواء في إندونيسيا أو خارجها، فضحك محفوظ ومد إليه يده على الفور قائلاً: «طيب إيدك بقى!».

خمسة أسئلة من نوبل

لارس ريدكويست هو مدير مكتبة نوبل بالأكاديمية السويدية في ستوكهولم وعضو اللجنة الاستشارية لجائزة نوبل، وقد قام بزيارة أخيرة للقاهرة قدم خلالها خمسة أسئلة للأستاذ نجيب محفوظ؛ بغرض أن يوضع رده عليها في الموقع الخاص بجائزة نوبل على الإنترنت، فقد بعث إليَّ برسالة من ستوكهولم قبيل وصوله قال فيها: إن الجزء الخاص بالأستاذ نجيب محفوظ على موقع جائزة نوبل بحاجة إلى إثراء وتحديث؛ لذا فهو يرجو أن يجيب الأستاذ على بعض الأسئلة وفق رغبته حتى يتم إضافتها للموقع.

وقد حملت هذه الأسئلة للأستاذ وكان أولها هو: ماذا كان شعورك حين فزت بجائزة نوبل؟ فقال الأستاذ: لقد تنازعني شعوران حين علمت أنني فزت بالجائزة، أولهما: السعادة المفرطة، وثانيهما: الدهشة العارمة، فلم أكن أتوقع مثل هذا الفوز، كنت قد سمعت بالطبع بالجائزة وبالفائزين بها خلال السنوات السابقة على فوزي لكني لم أتخيل أبدًا أنني سأفوز بها في يوم من الأيام؛ لأن من فازوا بها على أيامي كانوا كتّابا على أعلى مستوى مثل: أناتول فرانس وبرناردشو وهمنجواي وفوكنر وسارتر وكامي، وقد كنت أسمع أنه ربما يفوز بها كاتب عربي لكني كنت أشك كثيرًا في ذلك.

وهنا أضفت سؤالاً من عندي، فقلت للأستاذ: لكن عباس محمود العقاد رشحك للجائزة قبل فوزك بها بعشرين عامًا، حين قال في أحد

أحاديثه التليفزيونية: إن لدينا كاتبًا يستحق جائزة نوبل هو نجيب محفوظ، فأجاب الأستاذ قائلاً: العقاد كان دائمًا جريئًا في أفكاره.

السؤال الثاني: هل أثرت الجائزة عليك شخصيًا أو على أعمالك؟ قال: فيما يتعلق بأعمالي فقد كان من الطبيعي أن تشجعني على مواصلة الكتابة، لكن للأسف حين جاءتني الجائزة كنت في مرحلة متأخرة من حياتي الأدبية فلم أكتب بعد نوبل إلا «**أصداء السيرة الذاتية**»، والآن أكتب «**أحلام فترة النقاهة**»، لكن حتى رواية «**قشتمر**» التي صدرت في كتاب بعد الجائزة كنت قد كتبتها قبل ذلك، ونشرت مسلسلة في «الأهرام»، لكنها لم تجمع في كتاب إلا بعد الجائزة.

أما من الناحية الشخصية، فقد فرضت عليَّ نوبل أسلوب حياة لم أعتده ولم أكن أفضّله، وقد تمثل ذلك في سيل المقابلات والأحاديث الصحفية في الجرائد وفي التليفزيون، أنا قبل ذلك كنت أفضّل أن أعمل في هدوء.

السؤال الثالث: وماذا حدث لك منذ فوزك بالجائزة عام 1988؟ قال: أهم ما حدث لي هو تلك العلقة التي نلتها في نوفمبر عام 1994، ثم أشار إلى رقبته، قاصدًا محاولة الاغتيال التي تعرض لها، والتي ضربه فيها أحد الشباب بسكين فأعجز ذراعه اليمنى لفترة طويلة عن الحركة، ثم أضاف الأستاذ: لكنني نلت تكريمًا كبيرًا جدًّا من جانب الدولة، ومن جانب الشعب وهو ما أثر فيَّ تأثيرًا عميقًا للغاية.

السؤال الرابع: لماذا أصبحت كاتبًا ومن الذي ألهمك الكتابة؟ قال: أول مَن ألهمني الكتابة كان بعض الكتّاب العرب المعاصرين مثل: المنفلوطي وطه حسين والعقاد، فهم الذين حركوا عندي رغبة الكتابة،

فقد كان كل منهم بالنسبة لي مثلاً أعلى تمنيت أن أصبح مثله، وأنا كنت أكتب من سن مبكرة جدًّا لكنها كانت كتابة لا تستهدف النشر، فقد كنت أكتب في بعض كراسات الدراسة وأنا في المدرسة، لكن قراءاتي للأدباء الكبار في ذلك الوقت هي التي دفعتني أن أكون كاتبًا، ومازلت أذكر كلام المنفلوطي عن الأدب وعن رسالة الأديب، وكذلك حديث العقاد في هذا الصدد فقد أعطوني صورة مبهرة للكاتب، حتى أني بعد قراءتهم قررت أن أنتقل في المرحلة الثانوية بالمدرسة من القسم العلمي الذي كنت فيه إلى القسم الأدبي.

السؤال الأخير: كيف أثرت كتاباتك على الأدب العربي بعد فوزك بالجائزة؟ قال الأستاذ: الناقد وحده هو الذي يستطيع أن يقول لنا إن كانت كتاباتي قد أثرت على الأدب العربي أم لا، لكن ما قيل لي هو أنها ساعدت في ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية، سواء أثرت فيها أم لا، وقد سمعت هذا من بعض الروس الذين زاروني كما سمعته أيضًا من الألمان الذين كانوا قد حضروا إلى مصر للإعداد لاستقبالنا كضيوف شرف لمعرض فرانكفورت.

ما منحه محفوظ لأساتذته!

من بين الإعلاميين البريطانيين الكبار الذين توافدوا على الأستاذ نجيب محفوظ في مكتبه بـ«الأهرام» بعد حصوله على جائزة نوبل كان رجل الـ«بي بي سي» الشهير جوناثان دمبلبي الذي جاء يجري معه حديثًا مطولاً عن حياته وأعماله. وبينما كان الفنيون يختارون زاوية التصوير ويعدون

الإضاءة المناسبة أخذ دمبلبي يدردش مع الأستاذ حول مختلف الأشياء، وكان محفوظ يرد عليه بابتسامة ود دون اهتمام زائد، باعتبار أن ذلك الحديث مجرد ملء فراغ الوقت إلى أن يبدأ التصوير. لكن فجأة برقت عينا الأستاذ وبدا عليه الاهتمام حين قال له الإعلامي البريطاني: على فكرة لقد حملني مستر بريتشارد سلامًا خاصًا إليك، وحسنا أنني تذكرت ذلك قبل أن نبدأ التسجيل فننسى كل شيء.

قال له محفوظ في لهفة: هل قلت مستر بريتشارد؟

فرد دمبلبي: نعم هذا هو اسمه، إن لم تخنِّي الذاكرة.

فقال له نجيب محفوظ: لم أكن أعرف أنه مازال على قيد الحياة، لقد كان أستاذي بكلية الآداب عام1934، وكان شابا آنذاك، لكن ذلك مضى عليه سنوات طويلة، كما أنني لم أكن مرتبطًا به بشكل وثيق، فقد كان ذلك وقت الاستعمار البريطاني لمصر، وكانت العلاقات متوترة، فيما بيننا؛ لذلك فلم أكن أتصور أن يتذكرني.

فقال له دمبلبي: لكن ها أنت تتذكره.

فرد الأستاذ: إنني لا أنسي أساتذتي أبدًا، فهم في جميع الأحوال أساتذة تعلمت منهم الكثير وأدين لهم بالفضل، أما بريتشارد على الأخص فقد كان يدرس لنا علم الاجتماع، وكان أستاذًا موهوبًا حقًّا، وقد أصبح بعد ذلك واحدًا من أهم أساتذة الاجتماع في أوروبا في فترة الخمسينيات والستينيات، وكنت أسمع عنه الكثير، لكنني لم أسمع عنه في السنوات الأخيرة، وأنا سعيد أنه مازال على قيد الحياة.

فقال دمبلبي: لقد تحدث إليَّ طويلاً عنك، وقال إنك كنت تمتلك ما سماه نبوغًا صامتًا؛ أي أنك لم تكن تتحدث كثيرًا، لكنه كان يشعر بنبوغك دون أن تعلن عنه، وقد كان يتصور أنك ستصبح أستاذًا للفلسفة وليس كاتبًا روائيًّا، وتصور في البداية أن هناك تشابهًا في الأسماء بين تلميذه بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة في الثلاثينيات والكاتب الروائي الذي كان أول عربي يفوز بجائزة نوبل في الأدب، ثم حين شاهد صورتك تعرف عليك على الفور، وقال: لم أكن أعرف أنه موهوب في الأدب أيضًا، لكني سعيد أنه فاز بنوبل، وأرجوك أن تنقل له تهنئتي وتقول له إنه منحني ما لم يمنحه لي أحد من قبل، فقد كان لي تلاميذ كثيرون في مصر وفي بريطانيا، لكن نجيب محفوظ وحده هو الذي أعطاني الحق في أن أقول للناس: إن تلاميذي يحصلون على جوائز نوبل!

وحين بدأ التسجيل وتحدث محفوظ عن فترة شبابه ذكر مستر بريتشارد ضمن الأساتذة الذين تعلم منهم الكثير، وقال: إن الأدب الروائي لا ينفصل عن علم الاجتماع، خاصة في رسمه للشخصيات.

الروايات الفرعونية في إيطاليا

زار الأستاذ نجيب محفوظ وفد من الأثريين الإيطاليين برئاسة عالم المصريات الشهير فانفوني، وكان موضوع الحديث هو الروايات التي استلهم فيها أديبنا الأكبر التاريخ المصري القديم؛ حيث قالوا: إننا كثيرًا ما ننصح طلبة المصريات في الجامعة بقراءة رواياتكم الفرعونية كوسيلة تعرفهم بالحضارة المصرية القديمة، وتجذبهم نحو الاهتمام بالتاريخ الفرعوني.

وقالت أستاذة بجامعة تورينو: إن للكاتب الروائي بالطبع الحق في استخدام الأحداث التاريخية بالطريقة التي تخدم هدفه الفني دون الالتزام بالواقع التاريخي، لكننا توقفنا كثيرًا عند الدقة التاريخية الفائقة في رواياتكم الفرعونية: «**عبث الأقدار**» (1939) و«**رادوبيس**» (1943) و«**كفاح طيبة**» (1944) و«**العائش في الحقيقة**» (1985)، فكيف تأتى لكم هذا؟، وما هي قصتكم مع التاريخ المصري القديم؟

قال الأستاذ: الحقيقة أن اهتمامي بالتاريخ المصري القديم سابق على اهتمامي بالرواية، فقد كنت ما أزال طالبًا لم أقرر بعد أن أصبح كاتبًا روائيًا حين اكتشف كارتر البريطاني في بداية العشرينيات مقبرة توت عنخ آمون، وقد كان لهذا الاكتشاف المهم أثر كبير في اهتمام العالم كله بالتاريخ المصري القديم، أما في مصر، فقد أشعرنا هذا بالفخر بتاريخنا الذي وقف أمامه العالم مشدوهًا؛ لذلك كنت أذهب إلى دار الكتب بشكل منتظم وأحاول الاستزادة من هذا التاريخ. والحقيقة أن أول كتاب صدر لي لم يكن رواية، وإنما ترجمة لكتاب إنجليزي في التاريخ بعنوان: «**مصر القديمة**»، وكان ذائع الصيت في ذلك الوقت.

لذلك فحين قررت بعد ذلك التحول إلى الأدب كان قد تربى لديَّ هذا الاهتمام بتاريخ مصر القديم، وكنت أنوي أن أقدم هذا التاريخ من خلال الرواية كما فعل مثلاً سير والتر سكوت مع تاريخ اسكتلندا، وقد جمعت بالفعل نحو أربعين فكرة كنت أحتفظ بها في كراسة خاصة لأكتب في كل منها رواية.

في ذلك الوقت زار مصر كاتب بريطاني تخصص في الموضوعات المصرية القديمة هو الروائي هوك كين، وقد تم تكريمه بدار الأوبرا، وكتب له أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة بهذه المناسبة.

وسأله أحد أعضاء الوفد: ولماذا لم تكمل هذا المشروع الكبير؟ فقال: الحقيقة أنني مع زيادة قراءتي في الأدب بدأت أهتم بالفن الروائي أكثر من اهتمامي بالتاريخ، فاتجهت إلى الرواية الواقعية.

وقلت: إن الموهبة الأدبية الفذة لنجيب محفوظ لم تكن من الممكن أن تنغلق على نوعية واحدة من الكتابة، فقد كانت موهبة وثابة ومتجددة سمتها الأساسية هي الثورة المستمرة ومحاولة فتح آفاق جديدة أمام الفن الروائي العربي، وهكذا ثارت هذه الموهبة على الرواية التاريخية، وانتقل محفوظ إلى الرواية الواقعية، ثم منها إلى الرواية الملحمية الخيالية التي ثار عليها مرة أخرى وقدم الرواية التجريبية الفلسفية، شأنه في ذلك شأن كل عباقرة الفن.

ألماني في باب الفتوح

زار الأستاذ نجيب محفوظ مراسل صحفي ألماني قال إنه قرأ كل ما ترجم إلى الألمانية من أعمال أديبنا الأكبر قبل مجيئه إلى مصر، وقال إنه وقع في عشق أحياء القاهرة القديمة من خلال قراءته روايات مثل: «**الثلاثية**» و«**زقاق المدق**» و«**خان الخليلي**» وغيرها، لدرجة أنه حين جاء لم يشأ أن يسكن الأحياء الحديثة كزملائه، وإنما استأجر مسكنًا في منطقة باب الفتوح، وقد كان ذلك منذ نحو عشر سنوات قبل أن يعود مرة أخرى

إلى بلاده، لكنه كثيرًا ما يعود إلى مصر لزيارة أصدقائه المصريين، خاصة جيرانه بحي باب الفتوح الذين مكث معهم سنة ونصف سنة تقريبًا، وقال الصحفي الألماني للأستاذ نجيب محفوظ: إن تلك الفترة كانت أسعد أيام حياته، وكان كل مَن يسأله: ما الذي دفعك للسكن في أحياء القاهرة القديمة؟ يقول له: نجيب محفوظ!

ثم تحدث الزائر الألماني عن روايات كاتبنا الكبير فقال إنه حرص على تعلم العربية في أثناء السنوات التي قضاها في القاهرة؛ لكي يتمكن من قراءة أدب نجيب محفوظ باللغة التي كتبها بها، وقد قرأ بالفعل «ملحمة الحرافيش» و«قشتمر» باللغة العربية، وكان يعتقد أن تلك ستكون مهمة صعبة، لكنه وجد في لغة محفوظ الأدبية سلاسة وانسيابًا مكنه من دخول عالم محفوظ الفني كما هو في الواقع، وليس عن طريق الترجمة، وقد وجد عندئذٍ أن هناك أشياءً تعجز أي ترجمة عن نقلها ويظل الأصل دائمًا متفوقًا على الترجمة، ولا نستطيع أن نقول إن أحدًا عرف محفوظ حق المعرفة دون أن يكون قد قرأ رواياته كما كتبها بالعربية، واختتم الصحفي الألماني كلامه قائلاً: ومن حسن حظي، أنا شخصيًا، أن محفوظ لم يكتب رواياته بلغة متقعرة، وإنما ابتدع لغة جميلة وسلسة قريبة من العامية، لكنها في الوقت نفسه لغة أدبية بليغة.

وقد استمع الأستاذ إلى حديث ضيفه في صمت، وفي النهاية شكره، وقال له بالعربية: أخجلتم تواضعنا.

كفاح طيبة- أهم روايات القرن الـ20

في أواخر عام1999 زار الأستاذ نجيب محفوظ المحرر الأدبي لجريدة إلموندو الإسبانية الغراء، والذي قال له: إن الجريدة الواسعة الانتشار قد نشرت أخيرا قائمة بأهم الروايات التي صدرت في القرن الـ20، وإنها اختارت من بينها رواية «كفاح طيبة» التي نشرت في مصر لأول مرة عام1944، فاندهش الأستاذ حين نقلت له ما قاله المحرر، وقال في تواضعه المعهود: ربما إنهم يقصدون أنها من أهم روايات مرحلتي الأولى التي كنت أكتب فيها الروايات الفرعونية قبل أن أنتقل إلى الرواية الواقعية.

وتوجهت بهذا السؤال الذي كنت أعرف إجابته إلى المحرر: الإسباني الذي رد على الفور قائلاً: لا بل هي من أهم الروايات التي صدرت في العالم خلال القرن العشرين كله والذي وصلنا الآن إلى نهايته، ثم شرح المحرر: لقد أجرينا دراسة مستفيضة شارك فيها عدد كبير من النقاد ودارسي الأدب في إسبانيا وفي بعض الجامعات الأوروبية لحصر ما أنتجته البشرية من أدب روائي رفيع خلال القرن، فوجدنا أن رواية «كفاح طيبة» جسدت روح العصر بتصويرها الأدبي الجميل لكفاح شعب مصر ضد الاحتلال الأجنبي، وقد كانت حركات شعوب العالم من أجل التحرر هي السمة الأساسية للتاريخ في القرن العشرين، ذلك القرن الذي شهد قيام الإمبراطوريات الاستعمارية، كما شهد أيضًا كفاح الشعوب ضد الاستعمار في جميع أنحاء العالم، من آسيا إلى إفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وقال المحرر الأدبي بجريدة إلموندو: لقد صورت رواية «كفاح طيبة» هذا الكفاح في أروع صوره، وربطت بين الواقع المصري وقت كتابتها في

الربع الأول من القرن أثناء الاحتلال البريطاني لمصر وبين البعد التاريخي في مصر القديمة، وهكذا أعطت الرواية معنًى إنسانيًّا لحركات التحرر الوطني المعاصرة، وانسحب معناها على كل العصور والعهود.

ثم قال: ومما يؤكد تجسيد «**كفاح طيبة**» لروح العصر أنها لاقت إقبالاً كبيرًا بين قراء الجريدة حين قامت إلموندو بطبعها وتوزيعها مع الجريدة في الأسبوع الماضي.

فقال الأستاذ لضيفه: لابد أن جزءًا من اهتمام القراء يعود إلى ولعهم بالتاريخ المصري القديم، فرد عليه الضيف: لقد عرفنا مئات الروايات التي تعالج هذه المرحلة من التاريخ ابتداء من روايات هاجارد البريطاني في بدايات القرن إلى روايات كريستيان جاك الفرنسي في نهاياته، وقد ترجمت كلها إلى الإسبانية، وهي بالفعل تحقق مبيعات كبيرة، لكنه تم اختيار روايتك لقيمتها الأدبية المتفوقة.

وتوالى الحديث حول المرحلة الفرعونية، فشرح الأستاذ: لقد كنت أنوي كتابة تاريخ مصر القديمة كله من خلال الروايات، وكانت لديّ كراسة جمعت فيها ما يقرب من40 فكرة مستوحاة من ذلك التاريخ كي أحولها إلى روايات، لكني فجأة بعد أن أنجزت ثلاث روايات فقط اتجهت إلى الرواية الواقعية ولم أعد ثانية إلى المرحلة الفرعونية إلا في الثمانينيات، حين كتبت «**العائش في الحقيقة**» عن إخناتون.

قلت للأستاذ: لقد صدرت «**العائش في الحقيقة**» لأول مرة بالألمانية في شهر سبتمبر الماضي، أما أكثر لغة ترجمت إليها أعمالك فهي الإسبانية؛ حيث صدر حتى الآن 39 كتابًا يحمل اسمك وتليها الإنجليزية بـ31 كتابًا.

قال: إذن فلأنتهز فرصة وجود المحرر الأدبي للجريدة الإسبانية لأشكر الإسبان شكرًا مضاعفًا، أولاً: على إقبالهم على قراءة أعمالي، وثانيًا: على اختيار «**كفاح طيبة**» من بين أهم روايات القرن العشرين.

وقبل أن ينصرف المحرر الأدبي لجريدة إلموندو سألته: هل كان ضمن الروايات المختارة أي رواية أخرى عربية؟ قال: لا، فقلت للأستاذ: إن هذا فخر جديد للرواية العربية تحقق على يديك، فلم يعلق!

الهدنة الأوليمبية

حين استقبل الأستاذ نجيب محفوظ في ديسمبر عام 2003 المبعوث الخاص لوزارة الخارجية اليونانية، والذي حضر إلى القاهرة من أجل الحصول على توقيع أديبنا الأكبر على وثيقة الهدنة الأوليمبية، كانت مع المندوب- وهو سفير فوق العادة- دبلوماسية يونانية شابة قدمها السفير قائلًا إنها من المعجبات بأدب نجيب محفوظ، وإنها قرأت جميع أعماله المترجمة إلى اليونانية. وهنا سأل الأستاذ عن عدد الكتب التي ترجمت إلى اليونانية، وقد دهش ودهشنا معه أن عددها قد وصل إلى 17 كتابًا، وقد كان الأستاذ يتصور أنها لا تتعدى الروايتين أو الثلاث.

وقد أوضح لنا السفير أن روايات نجيب محفوظ تعتبر من أكثر الكتب الأدبية مبيعًا في اليونان؛ حيث تتنافس على طباعتها مختلف دور النشر.

وقد تحدث الأستاذ نجيب محفوظ عن العلاقات التاريخية بين مصر واليونان في العصور القديمة، والتي ظلت الإسكندرية رمزًا لها لسنوات طوال، فقال السفير: إن الرمز الحديث لذلك التقارب هو نجيب محفوظ

الذي استطاع أن يعبّر عن الإنسان المصري واليوناني معًا؛ لأن أعماله تتسم بالإنسانية التي تشمل كل الأجناس.

وصمت الأستاذ كعادته حين يثني أحد على أعماله، فلم يجب بكلمة واكتفى بابتسامة شكر وعرفان لمحدثه، ثم أمهر بتوقيعه الوثيقة التي تطالب بإقامة هدنة لجميع الصراعات في العالم خلال انعقاد دورة الألعاب الأوليمبية في أثينا في العام التالي 2004، أسوة بما كان يحدث في أثينا القديمة.

أوبرا اللص والكلاب

استقبل أديبنا الأكبر نجيب محفوظ الكاتبة الألمانية كريستين فون كنيزبك، التي عرضت عليه مشروعًا لتحويل روايته الشهيرة «**اللص والكلاب**» إلى أوبرا حديثة، وقالت الكاتبة، وهي متزوجة من مصري، إنها ستعتمد على النص العربي في وضع سيناريو وأشعار الأوبرا التي ترجو أن يتم تقديمها بالألمانية خلال الموسم المقبل.

وقد عرضت «فون كنيزبك» التي صدرت لها عدة مسرحيات في مدينتها ميونيخ على الأستاذ نجيب تصورًا مبتكرًا حقًّا للأوبرا؛ حيث سيظهر العازفون على المسرح طوال وقت العرض مثل الجوقة في الدراما اليونانية القديمة، وقالت: إن الأوبرا ستعتمد على الشكل الحديث، ولن تزيد مدة عرضها على ساعة ونصف ساعة.

وقالت الكاتبة الألمانية إنها قد تعرفت هي وزوجها على شاب مصري يدرس الموسيقى في مدينة سالزبورج النمساوية، اسمه حسام محمود،

واكتشفت أنه ذو موهبة كبيرة في التأليف الموسيقي، فعرضت على الأستاذ نجيب أن يكون هو واضع موسيقى الأوبرا؛ بسبب إحساسه المصري في الموسيقى، الذي سيتناسب مع الكثير من العناصر الشعبية في القصة، خاصة منزل الشيخ الذي ستقع فيه بعض الأحداث.

وقد وافق الأستاذ نجيب من حيث المبدأ على المشروع قائلًا: إنه يكتسب معنًى خاصًا في الظروف الحالية، ففي الوقت الذي تحدث فيه مواجهة لا نريدها بين الغرب المسيحي والشرق المسلم، يأتي مثل هذا المشروع كتأكيد جديد على أن الثقافة يمكن أن تكون جسرًا للتعاون والتفاهم بين الجانبين، وقد أبدى الأستاذ نجيب رغبته في ألا يقتصر عرض هذه الأوبرا على الخارج فقط، وإنما تُعرض أيضًا في القاهرة حتى يستمتع بها الجمهور المصري.

نشر «أولاد حارتنا»

في لقاء ودي مع الأستاذ نجيب محفوظ قال المفكر الإسلامي الكبير الدكتور أحمد كمال أبو المجد: إن نجيب محفوظ هو أكثر أدبائنا فهمًا للشخصية المصرية ولطبيعة مصر نفسها، وإنه حين أراد أن يصور الحياة في مصر فإنه قد غزلها على نول عظيم، لوّن خيوطه بألوان الحياة المصرية؛ ولذلك فإن مَن ينظر إلى الحياة المصرية كما صورها نجيب محفوظ يشعر بأنه قد عاش هذه الحياة بنفسه، ثم تطرق الحديث إلى السياسة في أعمال نجيب محفوظ فوصفها الدكتور أبو المجد بالوجيزة؛ أي أن محفوظ كان

في الجانب السياسـي وجيزًا، فكان دائمًا يصيب الهدف بلا إسـهاب، لكنه كان دائمًا صادقًا وعادلاً في أحكامه السياسية.

وسـئل محفوظ من أحد الحضور متى سيوافق على نشر **«أولاد حارتنا»** وهي الرواية التي لم يتنازل أديبنا الأكبر عن حقوق نشرها لأيّ من الناشرين المصريين حتى الآن، فقال محفوظ: إننـي كثيرًا ما كنت أقول: إنه لو كتب لها مقدمة الدكتور كمال أبو المجد والدكتور الغزالي لوافقت على نشرها، لكـن الدكتـور الغزالـي قد توفـاه الله قبـل أن يفعل ذلك، فتدخـل الدكتور أبو المجد متعهدًا بمفاتحة أحد كبار علمائنا ممن لا يقلوا مكانة عن الدكتور الغزالـي في هذا الموضوع، ولما كان الأسـتاذ إبراهيم المعلم صاحب دار الشـروق حاضرًا لهذا اللقـاء، فقد كان أول مَن طالب بحقوق نشـر الرواية حيـن تصـدر لأول مرة فـي مصر بعد أن صـدرت في الخارج فـي أكثر من عشـرين طبعة مزورة، واتفق على أن يشـارك د.محمد سـليم العوا الدكتور أبو المجد في كتابة مقدمة للرواية.

تكفير محفوظ ينتمي لفكر الخوارج

قبـل خـروج نجيـب محفـوظ مـن مستشـفى الشـرطة بحوالي أسـبوع علـى أثر حـادث الاعتداء الـذي تعرض له فـي أكتوبر 1994 ، قـام بزيارته فضيلة الشـيخ محمد الغزالي بصحبة صهره الصحفي محمد عبد القدوس والكاتب أحمد بهجت.

وقد تبينت من خلال الحديث أن ثمة علاقة ودّ جمعت بين أديبنا الأكبر والشـيخ الغزالي منذ سـنوات؛ حيث كرر محفوظ على ضيفه أكثر من مرة

تعبير «والله زمان!»، بينما ظل الشيخ الغزالي يسأل محفوظ عن تفاصيل حالته الصحية، وهل عاد يستخدم يده مرة أخرى، فقال له محفوظ: إنها تتحسن بالتدريج، وإن الأطباء طلبوا منه عمل جلسات علاج طبيعي للتعجيل بشفائها.

وقد استنكر الشيخ الغزالي حادث الاعتداء على محفوظ، ووصف الفتوى التي قيل إنها قد صدرت ضد نجيب محفوظ بأنها تنتمي لفكر الخوارج، الذين اغتالوا سيدنا علي، وسيدنا عثمان (رضي الله عنهما).

وقد استمرت الزيارة لأكثر من ساعة تحدث فيها نجيب محفوظ عن ذكرياته وقت أن كان موظفًا بوزارة الأوقاف، ثم قام الكاتب الكبير بتوديع ضيوفه حتى خارج باب غرفته بالمستشفى.

مؤتمر صحفي في هيئة الأمم

في إحدى المرات عرضت على الأستاذ طلبات متعددة لبعض الكتّاب والصحفييـن الذين يرغبون فـي زيارته أثناء وجودهم فـي مصر، فقال لي: لماذا تأتي بهم جميعًا في نفس اليوم؟ عشان نخلص؟!

وبالفعـل قلـت لمجموعة منهم أن يحضروا معي للقـاء الأديب الكبير، على أن يوجه له كل منهم سؤالاً واحدًا.

القلم

سـأل الناقد الأدبي الروسـي الأسـتاذ نجيب محفوظ: مـاذا يعني القلم بالنسبة لك؟

قـال: القلم هو شـيء يوازي روحـي تمامًا، فحياتي كلهـا كانت مرتبطة بالقلـم صعـودًا وهبوطًـا، فالقلـم هـو الـذي كان يرتفع بي إلـى أعلى حين كان يعبر عما يجيش في نفسـي، وهو الذي كان يهبط بي حين كنت أناجيه فلا يسـتجيب، وأذكر أن هذا كان حالي منذ بداية حياتي، ففي مقتبل العمر كان حلم حياتي أن ينشـر لي شـيء، أي شـيء، حاملاً عبارة «بقلم فلان»، وقد زاد من ارتباطي بالقلم أنني لـم أعرف في حياتي وسـيلة أخرى للكتابة

غيـر القلم، فلم أسـتخدم الآلة الكاتبـة مثلاً، ولا اسـتبدلت القلم بعد ذلك واسـتعملت الكمبيوتـر، ولم ألجأ إلـى الإنترنت، إنما القلـم كان دائمًا هو وسـيلتي، وهـو الطريق الذي يربـط بين ما يعتمل في نفسـي وبيـن الحياة، وحين أصبت في حادث الاعتداء عليَّ وقلَّت قدرتي على استخدام ذراعي اليمنـى لفتـرة لم أتمكن من الإمسـاك بالقلم، لكني مع ذلك لم أسـتطع أن أستبدله بوسـيلة أخرى حتى لو كانت الإملاء، فقد تعودت التفكير بقلمي، وبدون القلم لا تأتي الأفكار، بدون القلم تظل الورقة بيضاء؛ لأن القلم كان إصبعًا سادسًا في يدي، إذا تم بتره عجزت يدي عن الكتابة؛ لذلك فقد كان القلم دائمًا هو حياتي ومتعتي، وهناك بيني وبينه قرابة أبدية.

وسـكت الأسـتاذ قليلاً، ثم عاد فقال: إنني أحزن كثيرًا حين أسـمع عن الوسـائل الحديثة التي قيل إنها سـتحل محل القلم، إن ذلك بلا شك تطور علمي، نسعد له، لكني أحزن أن تقل قيمة القلم أو يذل.

وتدخلت بالسؤال: حين تكتب، هل القلم هو الذي يقودك أم أنت الذي توجهه؟

قال: القلم هو مجرد وسيلة، لكني أكون مخطئًا لو قلت لك إنني أوجهه كيفمـا شـئت، فإن للقلم كيانًـا خاصًا، وهو كثيرًا ما يعصـى أوامري، فأبقى ممسكًا به ساعات طوال لا يستجيب فيها لإرادتي، لكنه في ساعات أخرى يجود عليَّ بأجمل الكلمات وبأسمى المعاني.

العولمة الثقافية

العولمة الثقافية.. كان هذا هو الموضوع الوحيد الذي جاء به الصحفي التونسي الزائر إلى الأستاذ نجيب محفوظ، فهناك مَن هم مع العولمة لاعتبار أنها يمكن أن تنعش الثقافة، وهناك من يخافون أن تقضي على ثقافات العالم كله لمصلحة ثقافة واحدة فقط، فأين يقف أديب العرب الأكبر من ذلك كله؟

قال الأستاذ: إن ما تقصده بالعولمة هو الذي يحدد الإجابة على سؤالك، فإذا كنت تقصد سيادة النموذج الثقافي الأمريكي وحده على العالم، فذلك ليس من العولمة في شيء، وإنما هو الهيمنة، وهذا ليس بجديد لكنه سمة القوى الكبرى حين تستعمر الدول الأخرى، فهي في هذه الحالة تفرض ثقافتها على الثقافة المحلية، وربما كان أول مثال على ذلك هو سيادة لغة المستعمر على اللغة الوطنية، ذلك هو ما حدث مع الفرنسيين في الجزائر ومع الإنجليز في الهند.

أما العولمة الثقافية الحقيقية فينبغي أن تكون العكس من ذلك تمامًا، إنها الانفتاح على مختلف الثقافات في العالم؛ بحيث يتعرف المواطن الأمريكي على الثقافات العربية بقدر ما يتعرف العرب على الثقافة الأمريكية، وبهذا المعنى يمكن أن تمثل العولمة إثراء للثقافة في العالم وليس إضعافًا لها. أما سيادة النموذج الأمريكي وحده في جميع أنحاء العالم، فذلك ينتمي إلى عالم السياسة وليس الثقافة؛ لأنه هيمنة وليس عولمة.

كيف تغير العالم؟!

... وسأل الصحفي الياباني الأستاذ نجيب محفوظ: كيف ترى عالمنا هذا وأنت على أعتاب عامك الـ93؟

فقال: لقد شاهدت الكثير خلال سنوات عمري، لكن العالم تغير الآن كثيرًا عما كنت أعرفه في طفولتي وصباي، وعما عرفته في شبابي، وعما عرفته أيضًا بعد ذلك، وربما كان أهم تغير طرأ على العالم هو هذا القدر غير المسبوق من العنف المتبادل في كل مكان. إن العنف طبيعة إنسانية لاشك في هذا، وقد عرفنا العنف في السابق في مناسبات كثيرة، لكن ما نشهده الآن شيء آخر، فهو يأتينا بشكل يبدو في بعض الأحيان وكأنه عشوائي، كما أنه ليس حكرًا على جانب واحد يشعر بالقهر أو يسعى للتحرر من الاحتلال، وإنما هو يمارس على كل المستويات، من الإفراد والجماعات والدول أيضًا، وكأن الجميع قد اتفقوا على أن العنف هو الوسيلة الأمثل للتعامل فيما بينهم.

كذلك ما يلفت نظري هو اللجوء إلى الدين كمبرر لهذا العنف، وهو ما لم يكن متصورًا في السابق، فقد عرف العالم الحروب الدينية في مراحل مختلفة من تاريخه، وقد كانت آخرها هي الحروب الصليبية في القرون الوسطى، لكن الحرب شيء والعنف الذي نشهده الآن شيء آخر تشارك فيه الأديان الثلاثة، فالملاحظ هو أن المتطرفين موجودون على جميع الجبهات، وقد وصل بعضهم الآن إلى الحكم.

المرأة

قالت الزائرة الإيطالية للأستاذ نجيب محفوظ: لست كاتبة ولا صحفية، إني مجرد قارئة قرأت كل ما تم ترجمته من أعمالك سواء إلى الإيطالية أو الإنجليزية، وقد أعجبت كثيرًا بالمكانة المميزة التي وضعت فيها المرأة، والتي تختلف كثيرًا عما آل إليه حال المرأة والإنسان بشكل عام في الأدب الحديث في العالم، فالمرأة في أعمالك تتمتع بقدر من الاحترام وبالحب سواء كانت الأم أو الحبيبة أو حتى الأخت التي ذلت قدمها وانجرفت إلى تيار الخطيئة، فهنا تشعر أن الكاتب يؤكد نزاهتها وطيبتها وتضحيتها بنفسها من أجل شقيقها الذي يبدأ حياته كضابط، وأن الظروف هي التي دفعت بها إلى هذا الطريق.

وقالت: أنا أشعر أنك كلما تحدثت عن امرأة فأنت تتحدث بشكل مختلف بعض الشيء عن حديثك عن الرجل، فالرجل يمكن أن يكون انتهازيًّا أو متجبرًا أو بلطجيًّا أو لصًّا، لكنك حين تجيء إلى المرأة فإن شعوري كقارئة هو أنك تنتقل إلى مستوى أكثر إنسانية وأكثر رقيًّا مهما كانت تلك المرأة مخطئة أو مقهورة، كما هو الحال مع أمينة مثلاً في «الثلاثية» والتي أصبحت رمزًا في أدبك للمرأة المهضومة الحق، لكني أجد أنك قد أحطتها بقدر من الاحترام والتقديس داخل بيتها؛ بحيث يقوم أبناؤها بالانحناء أمامها وتقبيل يدها، وتلك العلاقة بين الأبناء والأب قد اختفت هي الأخرى من آدابنا الحديثة؛ لأنها لم تعد موجودة في حياتنا العصرية التي تراجعت منها المثل وسيطرت عليها الماديات؛ لذلك فأنا

حين أقارن بين ما تقدمه في رواياتك من إجلال للمرأة وبين مكانتها في آدابنا الحديثة، أجد أن الإنسان أصبح يتم تصويره الآن كمخلوق دوني يفتقر إلى المثل والأخلاق ولا يحركه إلا المال.

فقال الأستاذ: إنني فيما صورته كنت أنقل واقعًا قائمًا ومعاشًا، لكن التغيير الذي حدث عندكم في العلاقات الشخصية يأخذ الآن مكانه عندنا أيضًا، وإن كان بشكل أبطأ قليلاً، فالوحدة الآن في المجتمع أصبحت في معظم الأحيان هي الفرد وليست الأسرة، والفرد أصبح في معظم الأحيان تحركه المصالح الشخصية وفي مقدمتها الدوافع المادية، وقد بدأ هذا التغيير ينعكس بالفعل على الأعمال الأدبية الحديثة.

فردت الزائرة الإيطالية: إذن نحن سعداء أنك كتبت في هذا العصر الجميل الذي كان فيه الإنسان مازال إنسانًا؛ لأنك بذلك- شأن جميع الأدباء العظام- قد خلدت إنسانيته ولم تخلد انحطاطه!

أهم خمسة كتب

قال الصحفي النمساوي الزائر للأستاذ نجيب محفوظ: إذا أردت أن توصي بقراءة خمسة كتب أدبية للقارئ، فما هي أهم خمسة كتب أدبية في التاريخ الإنساني؟

صمت الأستاذ قليلاً، ثم قال: يمكن أن أذكر لك خمسة كتب إذا أردت، لكنني لن أكون مطمئن البال؛ لأنني ما إن أنتهي من ذكر هذه الكتب حتى سيحضرني كتاب آخر؛ لأنه لا يمكن حصر الإبداع الإنساني في خمسة

كتب فقط، بالإضافة إلى أنك توجه هذا السؤال لشخص أمضى حياة كاملة بين الكتب.. فمن الصعوبة بمكان أن يحصر اختياراته في خمسة كتب.

ثم يضيف: إذا قبلت تحفظي هذا أقول لك إن أول كتاب يحضرني هو بالطبع القرآن الكريم، لعدة أسباب لا يعرفها إلا من قرأه بلغته العربية، فإحدى هذه الأسباب هي بلاغته اللغوية والأدبية، والتي جعلته في رأيي أهم عمل أدبي في اللغة العربية، بالإضافة طبعًا لمضمونه الروحاني السامي ولقصصه الجميل، لقد كان ومازال للقرآن الكريم تأثير بالغ في وجدان كل مَن يتحدث العربية سواء كان مسلمًا أو غير مسلم.

أما بعد ذلك فأذكر لك مثلاً «ألف ليلة وليلة» باعتبارها من أهم القصص الروائي الذي عرفه الإنسان، وقد كان لها تأثير كبير في الآداب العالمية كلها، ثم تأتي تراجيديات شكسبير التي جسدت المأساة الإنسانية، كما لم يفعل أحد قبله أو بعده، وأنا أذكرها كلها لأني لا أستطيع أن أفاضل بينها، ثم تأتي بعد ذلك مجموعة أعمال روائيي روسيا العظام في القرن الـ19 تولستوي ودوستويفسكي وتشيكوف، ويليهم كتاب عظيم في الشعر الصوفي هو ديوان «حافظ الشيرازي»، الذي كنت كلما انتهيت من قراءته بدأت فيه من جديد.

بن لادن وشيخ الجبل

سألت الصحفية الإسبانية بياتريس أوبرلاندر الأستاذ: كيف يسود السلام في عالمنا المضطرب هذا؟ فقال: بالحب وبالضمير وبالحق، وحين تقول ذلك فقد يقول لك قائل: إن تلك مجرد مثاليات وتحقيقها

أحـلام يقظـة! لكني أرد على ذلـك قائلاً: وإذا كنت قد قلت لك منذ شـهر إن الطائرات سـتقتحم أكبر مباني مدينة نيويورك، وأن هذه المباني ستنفجر وتتحول إلى أطنان من الرماد لقلت لي إن تلك مجرد كلمات وأحلام يقظة أو بالأحرى كوابيس، لكن ها هي اليوم وقد تحولت إلى حقيقة، فإذا كانت الكوابيـس قابلة للتحقيق، فلمـاذا لا تتحقق الأحلام أيضًا؟! لماذا لا يكون للعالم أخلاقية تسمح بأن تسود قيم الحق والعدل ويحكم الضمير؟!

وسـألته: ومـا هـو رأيك في اتهـام بـن لادن بأنه العقـل المدبـر لعملية نيويورك وواشـنطن الأخيـرة؟ قال: إن ذلك يذكرني بشـخصية في تاريخنا العربي هي شيخ الجبل، ذلك الرجل الذي كان يعيش في أحد جبال سورية مع أتباعه الذين كانوا يعرفون باسـم الحشاشين، والذين منهم جاءت كلمة «Assassins» فـي اللغات الأوروبية بمعنـى القتلة، فقد كان هؤلاء يمثلون شـبكة اغتيـالات تماثل ما يتهم به بن لادن اليـوم، وكانوا يلقون الرعب في جميـع أرجاء العالم الإسـلامي، فبن لادن هذا مـن المعروف أنه يعيش في جبال أفغانستان وبين كهوفها وهو ما لن تستطيع النيران الأمريكية الوصول إليه بسهولة، وهذا سيخلق منه أسطورة جديدة مثل أسطورة شيخ الجبل!

***

الباب الثاني

مقــالات عنــه

عيد الميلاد

كل سـنة وأنـت طيـب! .. عبـارة اعتـدت أن أقولهـا كلما حـل يوم 11 ديسـمبر، فكان يبتسم ويكتفي بها قائلا : وأنت بالصحة والسلامة! ثم يغيّر دفة الحديث إلى موضوع آخر فلم يكن أديبنا الأكبر يهوى الاحتفال خاصة لـو كان هـو موضوعهـا، لذلك لم أكن أدخـل عليه بكعكة ولا شـموع، بل كنت أكتفي بهدية رمزية أعلم أنه كان سيسـتخدمها مثل قلم حبر أو زجاجة عطر له من غير فواحة، وفي مرة أحضرت له من رحلة لي في الخارج علبة شـكولاتة لعلمي بأنه كان يعشـقها قبل أن يكتشـف بالصدفة البحتة إصابته بمرض السـكر، وما أن رآها حتى رفع حاجبيه في دهشـة قائلا : ياه ما هذا؟ أنت تعلم أنني لم أضع شـكولاتة في فمي منذ أكثر من 40 سـنة!.. قلت له: هذه شكولاتة خاصة بمرضى السكر فهي خالية من السكر ولا تحتوي على سـعرات حراريـة، فظل رحمة الله عليه ينظر إليهـا ويضحك دون أن يجرؤ علـى أكلهـا أو الاقتراب منها التزاما بالوعد الذي قطعه على نفسـه للأطباء قبل أكثر من 40 عاما بألا يأكل أية حلويات !

والحقيقـة أن الوعود كانت كثيرة في حياة أديبنـا الأكبر، وكان يلتزم بها جميعـا، وقـد كان أشـهرها الوعـد الذي قطعه على نفسـه أمـام رئيس هيئة

الاستعلامات الأسبق حسن صبري الخولي بألا ينشر رواية «**أولاد حارتنا**» في مصر بعد الضجة الزائفة التي أثارها بعض الشيوخ ضيقي الأفق ضد الرواية .

وقد قامت أكثر من جهة داخل مصر بنشر الرواية التي سميت خطأ بالرواية الممنوعة، ومن بينها جريدتا «المساء» و«الأهالي» بعد أن نشرتها «الأهرام» مسلسلة عام 1959 ورفضت وقفها برغم أن أيا من الجريدتين لم تحصل على إذن بالنشر من صاحب الرواية إلا أنهما أثبتتا أمام العالم دون أن يقصدا أن الرواية ليست ممنوعة، وأن صاحبها هو الذي يرفض نشرها.

وكثيرا ما تحدثت إلى أديبنا الأكبر في هذا الموضوع قائلا إنه لا يجوز أن تنشر الرواية في لبنان ومنه إلى الدول العربية الأخرى إلا مصر، ولا يصح أن تترجم إلى العديد من اللغات الحية وألا يقرأها المصريون، فكان يقول لي : لكني قطعت على نفسي عهدا أمام السيد حسن صبري الخولي بألا أنشرها في مصر، فأقول له : لكن ذلك كان منذ أكثر من 40 سنة، والسيد حسن صبري الخولي قد توفي والدنيا تغيرت والأنظمة تبدلت فيقول : لكن عهودي لا تتغير ولا تتبدل .

وقد كانت أول مرة تحدثت إلى أديبنا الراحل في إمكانية نشر «**أولاد حارتنا**» في مصر في عام 1994 بعد حادث الاعتداء الذي تعرض له بسبب الرواية، وقلت له آنذاك: إن من حق القارئ المصري أن يقرأ الرواية بنفسه ليعرف كيف تم تضليل بعض الناس طوال السنوات الماضية، بالتفسيرات الخاطئة التي قدمها من ليسوا متخصصين في الأدب، ولا يعرفون أسس النقد الأدبي، كما أن عددا من الناشرين سعوا لنشر الرواية في ذلك الوقت

لكن دون جدوى، ثم حدث أن قام الأستاذ بتوقيع العقد الشهير مع دار الشروق لأعماله الكاملة، وهو عقد اكتسب شهرته ليس لأن موقعه هو أكبر أدباء الرواية العربية ؛ ولكن لأنه كان يمثل أكبر أجر دفعه ناشر في الوطن العربي لأديب حتى الآن وهو مليون جنيه .

وبعد بضعة أشهر من توقيع العقد قمنا أنا والمهندس إبراهيم المعلم صاحب الدار بمفاتحة الأستاذ بإمكانية نشر **«أولاد حارتنا»** قائلين: إن العقد يسري على كل الأعمال، وإن من حق الناشر أن ينشر أي رواية تحمل توقيع الأديب الكبير، لكنه كان ما زال غير راغب في تغيير موقفه، فنزل المهندس إبراهيم المعلم على رغبته وتراجع عن النشر .

وفي إحدى المرات كان للأستاذ نجيب لقاء مع أحد كبار الصحفيين من جريدة «لوموند» الفرنسية، وهو الكاتب الروائي المعروف روبير سوليه الذي سأله أثناء الحديث عن الرواية الممنوعة فأخذت أشرح لروبير الذي تربطني به صداقة قديمة ملابسات الموضوع، وكيف أن الرواية ليست ممنوعة، وبعد أن انتهت المقابلة قلت للأستاذ : إن عدم نشر الرواية في مصر يسيء إلى البلد ؛ لأنه يؤكد أمام العالم أن أديب مصر الكبير تمنع أعماله داخل بلده، وتلك هي الفكرة السائدة في العالم الآن .

وكانت تلك هي المرة الأولى التي لم يرد عليّ في هذا الموضوع، فقد أطرق الأديب الكبير برأسه، ولم يتكلم، ولمعرفتي به كنت أعلم أنه يفكر جديا فيما قلت، وما هي إلا أيام قليلة واتصل بي الدكتور أحمد كمال أبو المجد يطلب القيام بزيارة للأستاذ نجيب مع صهره المهندس إبراهيم المعلم وفي تلك الزيارة أثنى أبو المجد على **«أولاد حارتنا»** كعمل أدبي

راق وسأل الأستاذ نجيب، لماذا يصر على عدم نشرها، فقال الأستاذ: أنت حجة في الإسلام، فإذا قبلت أن تكتب مقدمة للرواية فأنا مستعد لنشرها.

وكانت تلك هي المرة الأولى منذ عام 1959 التي قال فيها الأستاذ إنه على استعداد لنشر «**أولاد حارتنا**» وإن كان بشروط، وقد اغتنم إبراهيم المعلم الفرصة مؤكدا لأديبنا الأكبر أن كبار رجال الدين الإسلامي .. وليس الدكتور أبو المجد وحده لا يعترضون على الرواية، ولكي يزيد من اطمئنان الأستاذ طلب بعد ذلك من الدكتور سليم العوا أن يذيّل الكتاب بكلمة منه إضافة لمقدمة الدكتور كمال أبو المجد التي روى فيها قصة اللقاء الذي رتبته له مع الأستاذ وما دار فيه .

وهكذا وافق أديبنا الأكبر أخيرا على نشر الرواية، وهي الموافقة التي استغرقت منا 12 عاما حاولنا خلالها أن نحله من وعده الذي قطعه على نفسه أمام رجل توفي، وكان يمثل نظاما ولّى منذ سنوات .

وحين نشرت «**أولاد حارتنا**» لأول مرة في مصر في مثل هذه الأيام عام 2006 أي مع عيد ميلاد نجيب محفوظ الذي يحل غدا، كان صاحبها قد رحل عن عالمنا قبل ذلك بثلاثة أشهر فلم يرها، وكأنه ظل ملتزما بوعده القديم الذي قطعه على نفسه قبل أكثر من 40 عاما .

رحم الله نجيب محفوظ الذي ربما كان آخر الرجال الذين يؤمنون بأن الرجل كلمة، وغدا سأتذكر عيد ميلاده مثل كل سنة، لكن دون أقلام حبر ولا زجاجات عطر - غير فواحة - ولا شكولاتة بدون سكر، بل بوردة صغيرة أضعها على قبره .

حب الموت

لم يجر معي أي حديث صحفي منذ رحيل أديبنا الأكبر نجيب محفوظ إلا وكانت أحد أسئلته تدور حول مقولة الأديب الراحل عن حب الموت؛ حيث قال في واحد من أحاديثه التليفزيونية أعيد إذاعته كثيرا في الأيام الأخيرة، بأن حياته كلها قامت على الحب : حب الناس، حب العمل، حب الوطن، حب الحياة . والآن - كما قال في الحديث - حب الموت!

كيف يحب الإنسان الموت؟ كانوا يسألونني، وماذا كان يقصد أديبنا الأكبر بحب الموت؟ هل كان يريد أن يموت؟ فكنت أقول: إن حب الموت فيما قاله نجيب محفوظ ليس رغبة انتحارية ساذجة، إنما هو تعبير عن نظرة فلسفية ثاقبة نجدها في الكثير من الأديان السماوية وغير السماوية، ونجدها أيضا في بعض الفلسفات الوضعية، كما نجدها في الأدب والشعر، فإذا عدنا مثلا إلى «كتاب الموتى» في التاريخ المصري القديم نجد أن حياة المصري كانت تتطلع منذ بدايتها إلى الموت، فالموت ليس نهاية الحياة، وإنما هو في عقيدة المصري القديم بداية لمرحلة الخلود التي كان يحرص عليها كل الحرص الجد المصري القديم لنجيب محفوظ، وكان لهذا الخلود شروطه الثلاثة التي تتلخص في التقوى خلال الحياة الدنيا،

والحفاظ على الجسد بعد الموت، وإحاطة المتوفى بالكتابات الجنائزية التي تضمن له الخلود .

ولقد جسّد نجيب محفوظ إلى حد كبير هذه الفلسفة المصرية القديمة، فقد عاش حياته بالحب كما قال، فبعث بالخير إلى الناس جميعا، ومن اقتربوا منه يعترفون بأنهم نادرا ما قابلوا أحدا يفيض بهذا القدر من الحب، وتلك الرغبة المستديمة في العطاء، فهل هناك تقوى أكثر منذ ذلك ؟!

وإذا كانت النقوش الحجرية التي تغطي جدران مقبرة المصري القديم تذكر بإنجازاته في الحياة كي تشفع له في الآخرة، فإن ما تركه لنا محفوظ من كتابات سيبقى شاهدا على إنجازه الإنساني الضخم الذي تخطى تأثيره حدود وطنه وأقرانه من العرب حتى وصل إلى رحاب الإنسانية جمعاء، وتلك الكتابات باقية في الحياة من بعده كالصدقة الجارية، لم تنغلق عليها مقبرته كالنقوش الهيروغليفية القديمة، فهل لمثل هذا الإنسان أن يخشى الموت؟

إن في الفصل 125 من «كتاب الموتى» تصوير لميزان يحمل في كفة منه قلب المتوفى، وفي الكفة الأخرى ريشة «معت» إلهة الحق والعدل، والتي كانت تصور على شكل امرأة جالسة وعلى رأسها ريشة نعامة، فإن كان المتوفى تقيا محبا للناس كان قلبه في ذلك الميزان أخف من ريشة «معت». أما إذا كان قلبه مثقلا بالآثام فإن الميزان يميل في اتجاه القلب، وذلك هو بئس المصير، وقد كان عطاء نجيب محفوظ لهذه الأمة وإنسانيته الفياضة يكفيان لرفع قلبه إلى أعلى الدرجات فيميل ميزانه في الجانب الآخر، فهل لمثل هذا الإنسان أن يخشى الموت ؟!

وإذا كان نجيب محفوظ قد أعلن على العالم في كلمته أمام لجنة نوبل أنه «ابن حضارتين» المصرية القديمة والحضارة الإسلامية العربية، فإن فكرة حب الموت هي فكرة إسلامية مثلما هي فكرة مصرية قديمة، فقد حض الإسلام على حب لقاء الله، وورد في الحديث الشريف: «أن من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»، وللأولياء الصالحين أقوال كثيرة تجسد حب الموت، فقد قال يحيى بن معاذ: «لا يكره الموت إلا مريب، فهو الذي يقرب الحبيب من الحبيب»، وقال الربيع بن خسيم: «ما غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت»، أما في سورة البقرة فقد ورد قول الله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الآية: 94).

وإذا انتقلنا إلى الثقافة الإنسانية نجد الشاعر والروائي الألماني الكبير هرمان هيسه يقول: «إن نداء الموت هو نداء حب، فالموت يمكن أن يكون حلوا، إذا ردينا عليه بالإيجاب.. إذا قبلناه كأحد الأشكال الخالدة للحياة وللتطور».

أما الشاعر الإنجليزي الرومانسي شيلي فيقول في قصيدته «الموت»: «في البداية تموت لذاتنا ثم تموت الآمال، ثم أخيرا تموت المخاوف»، وإذا ماتت مخاوف الإنسان فهل يخشى بعد ذلك الموت، أم يقبله مرحبا كمن يلقى الحبيب؟».

لقد وصل نجيب محفوظ بحكمته الإنسانية الواسعة وبالشفافية الفياضة التي اتسمت بها المرحلة الأخيرة من حياته إلى تقبل فكرة الموت برضاء وسكينة وهو المحب المخلص للدنيا ومَن فيها، واستطاع في أحد أقواله الأثيرة أن يجمع بين الحبين حين قال: «إذا أحببت الدنيا بصدق، أحبتك الآخرة بجدارة».

لقد عـاش نجيب محفوظ حياته كلها محبا ولم تعرف الكراهية طريقها إلـى قلبه الكبير، ولقد شـهدت بنفسـي معاملته الكريمة مـع الكثيرين ممن هاجموه أثناء حياته والذين حاولوا النيل منه غيرة وحقدا، لكنه كان في كل مـرة يلتمـس لهم الأعذار التي لم تخطر لهم على بـال، وحين اقتربت حياة هـذا الرجـل العظيم من نهايتها لـم يجد في قلبه ما يسـتعد به للنهاية إلا هذا الحب ذاته .

نظام الحياة .. والألم الأكبر

أكثر ما كان يؤلمني فيما تعرض له أديبنا الأكبر نجيب محفوظ من إجراءات طبية صارمة، هو أنها تغيّر من نظام الحياة الذي اعتاد عليه ولم يحد عنه منذ سنين، فقد وضع محفوظ لحياته نظاما خاصا، فكان يكتب بميعاد ويأكل بميعاد ويدخن سيجارته بميعاد، وكلما اضطرته الظروف لتغيير هذا النظام كان ذلك يسبب له اضطرابا يضايقه أشد الضيق .

لقد أمضى الأستاذ عشرات السنوات يصحو في الخامسة والنصف صباحا ويخرج من بيته في السادسة فيشتري صحف الصباح ثم يمشي على قدميه حتى ميدان التحرير ليجلس على مقهى «على بابا»، حيث يتناول قهوة الصباح ويتصفح الجرائد ثم يذهب بعد ذلك إلى مكتبه، ويعود في منتصف النهار إلى بيته، حيث يتناول الغداء ثم ينام قليلا، ليصحو بعد ذلك في الخامسة ليستمع إلى محطة أم كلثوم ثم يشاهد التليفزيون مع أسرته قبل أن يخرج للقاء أصدقائه والذين قاموا بتنظيم مواعيد لقائه بهم في نظام ثابت لا يتغير، فقد كان هناك يوم بتنظيم مواعيد لقائه بهم في نظام ثابت لا يتغير، فقد كان هناك يوم مخصص للقاء من أطلق عليهم اسم الحرافيش، وهي شلة كانت تتكون من محمد عفيفي والمخرج توفيق صالح والفنان أحمد

مظهـر، وقـد ضمت في أوقات مختلفـة أحمد بهاء الديـن وصلاح جاهين وغيرهما، وهناك مجموعة أخرى من الأصدقاء المقربين كانت تضم بعض كبـار الكتّاب ولكن من جيـل تالٍ لجيل الحرافيش وفـي مقدمتهم الروائي الكبيـر جمال الغيطاني ويوسـف القعيـد وغيرهما، ومجموعـة ثالثة تضم الكاتـب زكي سـالم والدكتور فتحي هاشـم ومحمد الكفـراوي وغيرهم، وبعـد حـادث الاعتـداء الذي وقع عليه عـام 1994 رأى أسـتاذ علم النفس الكبيـر الدكتـور يحيى الرخاوي أنه من المهم أن يظـل محفوظ على نظامه القديـم في لقـاء الأصدقاء حتى تظـل صلته موصولة بالحياة ولا ينسـحب منها. وكان الدكتور الرخاوي يلقاه أسبوعيا ليس للعلاج، وإنما ليتحدثا في أمور الدنيا بشـكل عام، وسـرعان ما تحول هذا اللقاء إلى مجموعة جديدة من الأصدقاء لها موعد أسبوعي ثابت للقاء الأستاذ .

وقد كنت أحضر بعض لقاءات الأسـتاذ الأسـبوعية بين آن وآخر، لكن موعدي الأسـبوعي الثابت مع الأسـتاذ كان دائما في بيتـه، وكان لقاء ثنائيا لـم يكن يحضره أحد إلا نادرا، كأن يطلب أحد السـفراء أو صحفي أجنبي لقاءه، فيقول لي : «أنت وزير خارجيتنا فأحضره معك يوم السبت». كذلك كان الأسـتاذ فـي بعـض الأحيان يخطرني بأن ناشـرا مـا أو أحـد العاملين بالسـينما أو التليفزيـون يريـد التفـاوض حول حق اسـتغلال أحـد أعماله، ويقول لي: «لقد طلبت منه أن يأتي في وجودك». ولقد اكتشفت من خلال هـذه اللقـاءات الأخيـرة أن أجر أديبنـا الأكبـر متواضع جـدا، وفي إحدى المـرات لفت نظره إلى ذلك فقال: «لقـد كان هذا هو أجرى الذي ارتضيته منذ سـنوات ولا أريد أن أغيّره»، لكنني أقنعته بأن يترك لي التفاوض بشـأن ذلـك وسـأخبره بمـا توصلت إليـه، ولقد تمكنـت من رفع الأجـر مع أحد

المنتجين السينمائيين خمسة أضعاف لكني حين أخطرت الأستاذ نجيب بذلك بدت عليه علامات عدم الرضا وقال لي: «لا لا ده كتير قوي». نقلت له أن تلاميذه أصبحوا يتقاضون أجرا أعلى منه كما أن المنتج قد وجد الأجر الجديد مناسبا ووافق عليه بالفعل، ولولا ذلك لرفض أديبنا الأكبر زيادة الأجر الذي تعود عليه منذ سنوات .

وقد ظللت طوال أكثر من عشر سنوات الآن ألتقى بالأستاذ نجيب في السادسة مساء، وأذكر ذات مرة أن وصلت إلى باب شقته فوجدت الأستاذ يفتح لي الباب بنفسه وقبل أن أدق الجرس، والحقيقة أن الأستاذ لم يكن يفتح الباب أبدا، فمنذ ضعف سمعه في السنوات الأخيرة لم يكن يسمع جرس الباب بسهولة؛ لذلك كانت السيدة زوجته هي التي تفتح الباب، لكن الأستاذ أخبرني أنها غير موجودة في ذلك اليوم ؛ لذا فتح لي الباب بنفسه، وحين قلت له : إنني لم أكن قد لمست الجرس بعد، قال: «لكنك عودتني أن تكون دقيقا مثلي تحضر دائما في الموعد، لذلك فحين وجدت الساعة السادسة عرفت أنك لابد على الباب ففتحت ووجدتك» .

لكن الأستاذ اليوم قد حرم من هذا النظام، وأصبح يخضع لمشيئة آخرين وفق ضرورات طبية لا يملك أحد حيالها خيارا، كما حرم من نظام لقاء أصدقائه والذين كانوا هم الشرايين التي تتدفق من خلالها الدماء إلى حياته كلها، ولابد أن ذلك هو الألم الأكبر الذي يؤلمه اليوم أكثر من أي ألم عضوي قد يشعر به الآن في المستشفى !

الأخ حسن

كثيرا ما سألت الأستاذ نجيب محفوظ : لماذا لا تكتب سيرتك الذاتية؟

فكان يقول لي : لأن حياتي ليس بها ما يهم الناس، لقد أخذت منها التجارب المهمة ووضعتها في بعض أعمالي فلم يبق منها بعد ذلك شيء يستحق أن يُكتب .

والحقيقة أن الأستاذ كان شديد التواضع، وفكرة أن يجلس ليقص على الناس تفاصيل حياته الخاصة لم تكن تستهويه، وكان يرى فيها قدرا من الزهو بالنفس وحب الظهور لا تميل إليه نفسه .

وقلت له : إنك بذلك تترك لمن يأتي بعدك أن يؤلف تاريخ حياتك على هواه .

قال : إن لم يقل الحقيقة فلن يصدقه أحد، فحياتي معروفة، وقد عشتها كلها بين الناس؛ ولذلك فالناس لديها مقياس صادق تعرف من خلاله إن كان ما يُروى عني خطأ أو صوابا .

قلت : وماذا تتمنى أن يُروى عنك؟

قال : أفضّل أن تهتم الناس بكتبي إن وجدت فيها شيئا يفيدهم، أما حياتي فهي حياة عادية .

وقد وصلتني منذ رحيل أديبنا الأكبر عشرات الرسائل من أناس لا أعرفهم كانوا يعزونني في رحيله ويسرد لي البعض منهم وقائع، أو يروي لي أحداثا جمعتهم بنجيب محفوظ تؤكد المرة تلو الأخرى أنه لم يكن إنسانا عاديا ولا كانت حياته - كما كان يحب أن يقول - حياة عادية! ومن بين هذه الرسائل رسالة جميلة من مواطن يدعى «حسن ...» يقول فيها إنه كان في عام 1977 طالبا بالجامعة، وقد وجد نفسه في بداية ذلك العام معتقلا لأسباب لا يعرفها، وتركت تلك التجربة القاسية على حياته ظلالا داكنة أصابته بالإحباط والاكتئاب، فلم تمكنه بعد الإفراج عنه من أن يعود لحياته الطبيعية .

وفي يوم من الأيام فكر أن يكتب إلى نجيب محفوظ عن محنته وطلب أن يقابله، ففوجئ بعد بضعة أيام برد يأتيه مكتوبا بيد محفوظ أرسل لي صورته في خطابه فعرفت فيه على الفور خط يد الأستاذ، وهو الخط الذي افتقدناه في سنواته الأخيرة بسبب ما أصاب يده اليمنى من عجز جزئي بعد محاولة الاغتيال الآثمة التي وقعت عليه في خريف عام 1994 .

أما مضمون الخطاب فكان كالتالي :

السيد الأخ حسن .. تحية طيبة وبعد .. فقد قرأت رسالتك وأحزنني جدا ما جاء بها ولعلك لا تعلم أنه يصلني من أسبوع لأسبوع مثيلات لها مما يقطع بما يعانيه شعبنا الشريف الذكي من متاعب .

ويزيد من حزني أنني لا أجد في إمكاني بطبيعة الحال حلا لها، وأظنك توافقني على ذلك فالأديب أديب وليس مؤسسة ولا من الأثرياء – جعل الله من همتك ثروة تعينك على بلواك .

أما عن المقابلة، فإني أجتمع مع أصدقاء من الأدباء مساء كل جمعة بكازينو قصر النيل ما بين الخامسة والنصف والسابعة والنصف فأهلا بك في أي وقت تشاء فهي جلسة خاصة وشبه عامة .

ودمت للمخلص نجيب محفوظ

15 – 11 – 1979

ويقول لي «الأخ حسن» في رسالته إنه في ليلة 17 / 11 / 1979 : «وكان عمري لا يتجاوز 21 عاما كنت في كازينو قصر النيل بناءً على الموعد المحدد، وبعد حوار امتد أكثر من ساعة انضم إلينا الدكتور لويس عوض ولكنني انصرفت عائدا إلى مدينتي السويس» .

ويلخص كاتب الرسالة الحوار الذي دار بينه وبين نجيب محفوظ فيقول إنه تناول ثلاثة موضوعات: «أولا : معاناتي الشخصية بسبب اعتقالي في انتفاضة يناير 1977، ثانيا : أوضاع الوطن وأحوال المواطن المصري، ثالثا: الثقافة بشكل عام والإشادة منه بثقافتي في هذه السن الصغيرة وإلمامي بهذا الكم من المعلومات في المجال السياسي والاقتصادي وفي الشأن الداخلي والدولي، وتمكني من الكتابة في هذه المجالات لحد الاحتراف، وقد قال لي حرفيا : اكتب وأنا سأتولى النشر» .

ولقد قرأت الخطاب متأثرا بإنسانية هذا الأديب العملاق الذي كان لا يتوانى - برغم مكانته ومشاغله - عن أن يرد على خطاباته كلها، فقد كانت تلك بالفعل عادته، وقد كان يحرص على مد يد العون لأي إنسان يحتاج هذا العون حتى لو كان شابا لا يعرفه .

واليوم بعد أن رحلت عنا يا أستاذنا الكبير في الأدب وأستاذنا في الإنسانية أيضا، دعني أقول لك: إني أختلف معك، فحياتك مليئة بالمواقف الجديرة بالتسجيل، وهي تفيض بالدروس الإنسانية التي لو استوعبناها لكانت حياتنا جميلة مثل الحياة التي صنعتها أنت بالحب الذي كان يملأ قلبك للناس جميعا .

.. والقلم «الشيفر»

من أجمل الأشـياء التـي أعتز بها قلم «شـيفرز» من الطـراز القديم كان لنجيب محفوظ، وأهداه لي رجل كان قد احتفظ به لأكثر من 40 عاما !

ورغـم مـا لديّ من متعلقات كثيـرة لأديبنا الأكبر تتنوع مـا بين الأوراق الخاصـة وبعض الكتابات والمتعلقات الشـخصية، إلا أن هذا القلم له في نفسـي مكانة خاصة لما ارتبط به من قصة إنسـانية نبيلة، تعبر خير تعبير عن الشخصية المعطاءة لذلك الروائي العظيم الذي رحل عنا .

فقـد روى لي صاحـب القلم أنه قابل نجيب محفوظ سـائرا على قدميه فـي أحد شـوارع القاهرة، فوقـف يحييه، وحين وجد اسـتجابة من الأديب الكبير لتحيته تشجع وشكا له همه .

كان هـذا الشـاب قد خـرج لتوه من اعتقال سياسـي هـدم حياته وقضى علـى موهبـة أدبيـة في نفسـه كانـت في بدايـة تفتحهـا . فلم يواسـه نجيب محفـوظ ولا طيب خاطـره، لكنه اكتفـى بدعوته لحضور لقائه الأسـبوعي بكازينـو قصر النيل المطل على نيل الجزيرة، وقال له سـأكون في انتظارك فلا تتخلف .

وذهب الشاب إلى اللقاء الذي كان كثيرا ما يقرأ عنه في الصحف ويسمع عما يجري فيه من أصدقائه في الأوساط الثقافية، فوجد نفسه جالسا بين عمالقة الأدب والفكر من الدكتور لويس عوض إلى ثروت أباظة والمخرج توفيق صالح وغيرهم ممن جلس يستمع إلى أحاديثهم دون أن ينطق بكلمة، وفي نهاية اللقاء مدّ يده لنجيب محفوظ يشكره على هذه الدعوة التي أثرت خياله وفتحت مداركه، فقال له محفوظ موعدنا الأسبوع القادم إن شاء الله.

وهكذا واظب الشاب عل حضور جلسات الأديب الكبير أسبوعا وراء أسبوع، حتى وجد نفسه يعود مرة أخرى إلى الاهتمام بالأدب والثقافة والفكر بعد أن كانت لا تسيطر على عقله إلا مشاعر الإحباط والأفكار العدمية التي خرج بها من السجن، وبعد عدة أسابيع بدأ يشارك – على استحياء – في الحديث، وفي نهاية أحد هذه اللقاءات قال له محفوظ : إنك لم تأتني حتى الآن بأي شيء كتبته! فقال له الشاب : لقد بدأت الأفكار الأدبية تداعبني مرة أخرى، لكن صدقني لو قلت لك إنني لا أملك حتى ثمن القلم والورق لأكتب ما أريد! وهنا أخرج محفوظ من جيبه قلم «شيفرز» أعطاه له قائلا : هذا هو قلمي لتكتب به، ثم أعطاه 20 جنيها قائلا: وهذا ثمن الورق، أما النشر فاتركه لي .

وهكذا نجح الرجل بفضل تشجيع نجيب محفوظ أن يعود إلى الكتابة، كما ساعده أيضا في نشر قصة قصيرة كتبها بقلم محفوظ .

واختتم الرجل روايته الإنسانية المؤثرة قائلا لي : الآن اسمح لي بمكافأتك باسم كل محبي نجيب محفوظ على ما قمت به لهذا الرجل العظيم بإهدائك قلمه الذي ظللت أحتفظ به سنوات طويلة !

واليوم يرقد هنا هذا القلم الأسود ذو الغطاء الذهبي وسط مجموعة من المتعلقات المتحفية الخاصة بأديبنا الأكبر نجيب محفوظ في خزانة عرض خاصة بالمبنى التاريخي لاتحاد الكتّاب بقلعة صلاح الدين، جنبا إلى جنب مع كلمته في احتفالات نوبل بخط يده والعصا التي كان يتكئ عليها .

نوبل .. أهي جائزة سياسية؟

جاء فوز كل من المصري محمد البرادعي رئيس وكالة الطاقة الدولية والبريطاني هارولد بنتر الكاتب المسرحي الأشهر بجائزة نوبل في السلام وفي الآداب، كمناسبة جديدة نمارس فيها هوايتنا القديمة بالبحث عن الأسباب الخفية وراء ذلك الفوز بعد أن عجزنا عن فهم أسبابه الموضوعية. فحين أعلن عن فوز الدبلوماسي المصري الدكتور محمد البرادعي بجائزة نوبل للسلام مناصفة مع الوكالة الدولية للطاقة النووية التي يرأسها، كان رد الفعل الأول عندنا هو القول بأن السبب الحقيقي لذلك الفوز هو موالاة البرادعي لأمريكا بسياسته المناهضة للقوى النووية الإيرانية، وهو نفس الموقف الأولي الذي اتخذه البعض عندنا حين فاز أديبنا الأكبر نجيب محفوظ بجائزة نوبل في الأدب عام 1988 ؛ حيث تناسى البعض قيمة محفوظ الأدبية وذهب إلى أن الجائزة جاءت مكافأة له على تأييده لسياسة السلام، ولقد تمادى ذلك الاتجاه مع البرادعي فقرأنا في بعض صحفنا أن الدبلوماسي المصري حصل عليها لأنه نمساوي الجنسية .

والحقيقة أنه مثلما كانت تلك الأسباب الخفية خاطئة في حالة نجيب محفوظ كانت خاطئة أيضا في حالة محمد البرادعي، فليس صحيحا أن محفوظ أيد سياسة السلام التي انتهجها أنور السادات، بل الصحيح هو

أن الرئيس الراحل هو الذي انتهج سياسة محفوظ في هذا الصدد، ذلك أن موقف محفوظ من السلام سابق على سياسة السادات بسنوات، بل إن الرئيس السادات عاقب محفوظ على موقفه هذا فمنعت كتاباته وفرض الحظر على أعماله السينمائية في تليفزيون الدولة، كان ذلك في بداية السبعينيات حين طالب محفوظ بالتفاوض مع إسرائيل لإنهاء احتلالها للأراضي العربية وتسوية الأزمة، وأذكر أنه في لقاء عقد بجريدة «الأهرام» مع الزعيم الليبي معمر القذافي سأل محفوظ القذافي أمام حشد من المثقفين والكتّاب المصريين : هل نستطيع محاربة إسرائيل وتحرير أراضينا؟ فقال القذافي : لا، فرد عليه محفوظ : إذن فلنحاول التوصل إلى حل بالتفاوض، وفي بداية عام 1973 وقّع محفوظ على بيان يطالب الرئيس السادات بإنهاء حالة اللاسلم واللاحرب التي كانت سائدة آنذاك فعوقب أديبنا الأكبر على هذا الموقف، ثم توالت الأحداث وقام السادات برحلته الشهيرة إلى القدس في نوفمبر 1977 ووقّع اتفاقية السلام بعد ذلك بعامين ولم تجئ نوبل لنجيب محفوظ إلا في أكتوبر عام 1988؛ أي بعد أن أعلن محفوظ موقفه من هذه القضية بأكثر من 15 عاما، وقبل أن يفكر السادات في انتهاج سياسته هذه .

ولقد تصور البعض أنه باستطاعتهم أن يلعبوا نفس اللعبة فيبخسوا من قدر مصر ومن قيمة أبنائها فقالوا: إن نوبل البرادعي كانت لمواقفه الموالية لأمريكا وأنها لم تكن لتجيء لولا أنه تجنس بالجنسية النمساوية. والحقيقة كانت عكس ذلك على طول الخط فالبرادعي المولود بمصر ، والذي نال تعليمه الجامعي بها، وعمل بسلكها الدبلوماسي إلى أن التحق بالوكالة الدولية للطاقة النووية، لا يحمل أي جنسية أخرى إلا الجنسية المصرية،

ثـم إن انجـازه في الوكالة ارتكـز على موقفه المخالف للسياسـة الأمريكية فيما يتعلق بانتشـار أسلحة الدمار الشـامل خاصة فيما يتعلق بالعراق، وهو ما دعا واشـنطن لمعارضة تجديد رئاسته للوكالة، وهو ما فشلت فيه بسبب التأييد الدولي الذي حصلت عليه مواقف البرادعي الموضوعية المتزنة .

فهـل يليـق بعد ذلك كلـه أن يقال إن محمـد البرادعي فـاز بجائزة نوبل لأسـباب سياسـية وليس لما يسـتحقه، وما أكده تأييد المجتمـع الدولي له كـي يحصـل على فترة رئاسـة ثانية ضد محـاولات أمريكا المسـتميتة التي لم تخفها لإقصائه؟! إن القول بأن وراء جوائز نوبل أسـبابا سياسـية يحتاج لوقفـة لوضـع النقط فوق الحروف؛ لأن ما ينطبق على جائزة الأدب شـيء آخر وينبغي بادئ ذي بدء التفريق بينهما ، فمن المعروف أن جوائز نوبل يتم منحها تنفيذا لرغبة العالم السـويدي ألفريد نوبل مخترع الديناميت وبعض المفرقعـات الأخـرى، والـذي أراد أن يكرس الثـروة الطائلـة التي جمعها أثنـاء حياته مـن اختراعاته المدمرة لأعمال تفيد الإنسـانية فتـرك بعد وفاته عام 1896 وصية حدد فيها شروط الجائزة، فقال إنها تذهـب «لهؤلاء الذين منحوا خلال العام السـابق فائدة كبيرة للإنسانية»، كما حدد أيضا مجالات الجائزة بأنها الأدب «وقد كان نوبل محبا للأدب وله بعض الأشـعار باللغة الإنجليزيـة، كمـا وجدت عنده بعد وفاته مسـودة لرواية أدبيـة لم تكتمل»، بالإضافة للفيزياء والكيمياء والطب والسـلام، أما جائزة العلوم الاقتصادية فقد أضيفت لجوائز نوبل الخمس الأصلية عام 1968 ، ولا تأتي قيمتها من تركـة نوبـل مثل بقية الجوائـز، وإنما يقوم بنك السـويد بدفعها، كذلك فقد حـدد نوبل في وصيته الجهـات التي تقع عليها مسئولية اختيار الفائز بكل

جائزة، فجائزة الأدب تختار الفائز بها الأكاديمية السويدية المساوية عندنا مثلا للمجمع اللغوي، بينما يقع على الأكاديمية الملكية للعلوم مسئولية اختيار الفائز بجائزة كل من الفيزياء والكيمياء، ويقوم معهد كارولين الملكي للطب والجراحة باختيار الفائز بجائزة الطب .

أما جائزة السلام فتختلف في أن الجهة المانحة لها هي لجنة نوبل النرويجية التي يشكلها «الستورتنج» أي البرلمان النرويجي؛ لذلك فإن الجهات التي تختار الفائزين في الجوائز الأربع الأولى هي جهات أدبية وعلمية وليست جهات سياسية، بينما الجهة التي تختار الفائز بجائزة السلام هي جهة سياسية بطبيعتها؛ لأنها تتكون داخل البرلمان، وهي تمنح في النرويج وليس في السويد، وإن كان هذا ينفي عن جوائز نوبل في الأدب والفيزياء والكيمياء والطب أي صبغة سياسية، فهو يؤكد في نفس الوقت الصبغة السياسية لجائزة السلام، ولذلك فإذا كانت الجائزة قد أعطيت للبرادعي لأسباب سياسية فهذه الأسباب هي موقفه الموضوعي والمتزن الذي لا يروق للولايات المتحدة وليس بسبب رضاء الولايات المتحدة عنه، وبنفس المعنى فقد كانت جائزة السلام التي حصل عليها السادات مناصفة مع رئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجين هي جائزة سياسية، وقد لا يعرف البعض أن الجائزة كانت مقررة للسادات وحده بسبب زيارته للقدس وما تلاها من سياسة تهدف لإقرار السلام في المنطقة، لكن النفوذ الإسرائيلي كان له تأثيره حيث قيل إن السلام لا يقوم إلا على طرفين، فكيف يتم تكريم طرف وتجاهل الطرف الآخر؟ وهكذا تقرر أن تمنح الجائزة للسادات وبيجين معا، وربما كان هذا هو سبب عدم حماس السادات

للجائزة ورفضه السفر لاستلامها؛ حيث أناب المهندس سيد مرعي صهره ورئيس مجلس الشعب في استلامها، بينما استلمها بيجين بنفسه .

وهنا لا ينبغي أن ننسى أن ياسر عرفات قد فاز بها هو الآخر، رغم التجاهل الذي حظى به أخيرا من كل مَن كتب يعدد الجوائز الأربع التي حصل عليها المصريون وليس الجوائز الخمس التي حصل عليها العرب، فقد فاز عرفات بجائزة نوبل السلام مناصفة مع كل من اسحق رابين وشيمون بيريز، وذلك بعد توقيع اتفاق أوسلو الذي وقعه كل من عرفات ورابين ولعب فيه بيريز دورا محوريا .

وهكذا فقد كانت جائزة السلام دائما جائزة سياسية، وقد حدث في عام 1937 أن أصدر هتلر قرارا يحظر على الألمان قبول جوائز نوبل؛ لأن جائزة السلام عام 1935 منحت لكارل فون أوسيتسكي المعادي للنظام الهتلري .

أما القول بأن جائزة نوبل في الأدب يتم منحها على أسس سياسية فيعوزه الدليل، بل إن الدلائل الواضحة أمام كل ذي عين ترى تشير إلى العكس، فقد فاز هذا العام بجائزة الأدب على سبيل المثال الكاتب المسرحي البريطاني هارولد بنتر الذي خلقت مسرحياته في الستينيات مسرحا جديدا تماما، وساهمت في صك تعبير جديد في النقد المسرحي هو «البنترية»، والذي يطلق على المسرحيات التي تتسم بخصائص مسرح بنتر؛ حيث صمت الشخصيات الموحي وأفكارهم التي عادة لا تكتمل، وقد كتب بنتر 29 مسرحية كانت أولاها عام 1957 وآخرها منذ خمس سنوات فقط، أما عن الناحية السياسية فإن أحدا من الكتّاب البريطانيين

لـم يكن فـي عنف هارولد بنتر فـي هجومه على الرئيـس الأمريكي جورج بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير الذي أسماه بنتر في إحدى خطبه «الأبله المضلل»؛ بسـبب مسـاندته لبوش في حرب العـراق، وقد قال بنتر عـن حـرب العراق: «لقـد أتينا بالتعذيـب والقنابـل العنقوديـة واليورانيوم المخصـب وأعمـال القتل العشـوائي والمآسـي والذل للشـعب العراقي، ونقـول إننا أتينا بالحرية والديمقراطية للشـرق الأوسـط!»، كما أصدر بنتر ديوانا شـعريا في العام الماضي يحمل اسـم «الحـرب» War أدان فيه إدارة الرئيس الأمريكي كما لم يفعل أحد من قبل وأظهر قدرا هائلا من الازدراء لتوني بلير، فكيف بالله عليكم تكون نفس الجهة التي منحت محفوظ نوبل في الأدب لمواقفه السياسـية التي ترضى عنها أمريكا هي نفس الجهة التي منحـت هارولد بنتـر هذا العام نفس الجائزة لمواقفـه المناهضة لأمريكا؟! ألا يدعونا ذلك لإعادة النظر في تلك التفسيرات الخفية التي نهواها، والتي تظهر صاحبها وكأنه العليم ببواطن الأمور ويرى ما خفي عن الجميع، بينما هـي في الحقيقة تعبير واضح على عدم قدرتنا على فهم الأشـياء وتحليلها التحليل الصحيح؟!

جائزة نوبل البللورية!

في تمام الساعة الواحدة و 55 دقيقة من بعد ظهر أحد أيام شهر أكتوبر عام 1988 ، كان السفير السويدي بالقاهرة لارس أولاف بريليوت يستعد لمغادرة مكتبه كالمعتاد في الثانية ظهرا حين دق جرس التليفون، فإذا بمحدثه هو ستوري آلين السكرتير الدائم للجنة نوبل في ستوكهولم يخبره بأن اللجنة قررت منح جائزة نوبل في الأدب هذا العام للكاتب الروائي المصري نجيب محفوظ .

وكان يجلس أمام السفير في تلك اللحظة أحد العاملين بالسفارة، وهو الدبلوماسي الشاب ستيج الفيمار الذي عاد الآن سفيرا لبلاده في القاهرة، بعد أن أضاف الزمن إلى عمره 16 عاما وإلى وزنه بعض الكيلو جرامات. وقد سمع ألفيمار السفير وهو يقول لمحدثه في هدوئه الدبلوماسي المعهود: حسن إنها أخبار سارة جدا ! ثم وضع سماعة التليفون، وقال لألفيمار : لقد فاز الكاتب نجيب محفوظ بجائزة نوبل وعلينا الآن أن نخبره بذلك، فهل تعرف عنوانه أو رقم تليفونه؟، فقال ألفيمار : لا، لكني أعرف أنه يعمل بجريدة «الأهرام» وسأقوم بالاتصال بهم للاستفسار .

وهكذا انتقل الخبر إلى «الأهرام» التي كانت أول جريدة في العالم تعرفه بعد دقائق معدودة من إبلاغ السفير السويدي بالخبر بواسطة المتحدث باسم لجنة نوبل في ستوكهولم، وكان الصديق الصحفي الكبير محمد باشا هو أول من اتصل بمنزل الأديب الفائز فردت عليه زوجته السيدة / عطية الله قائلة إن هذا هو موعد نوم الأستاذ وأنها غير معتادة على أن توقظه، فهل هناك أمر خطير؟ فقال لها لا ليس الأمر خطيرا، كل ما هناك أنه فاز بجائزة نوبل في الأدب، فقالت إنها ستخبره، ثم رن جرس التليفون مرة أخرى بمجرد أن وضعت السيدة نعمة الله السماعة، فإذا بها هذه المرة سفارة السويد تنقل لها نفس الخبر، وتقول إن السفير يرغب في زيارة الأستاذ نجيب لإبلاغه رسميا وتهنئته، فردت السيدة / عطية الله كعادتها مبدية كرم الضيافة : فليتفضل السفير على الرحب والسعة، وسيجد الأستاذ في انتظاره .

وذهبت السيدة عطية الله إلى غرفة الكاتب الكبير توقظه من نومه كما لم تفعل من قبل، فالأستاذ نظام صارم في مواعيده لا يحب أن يحيد عنه، ومنه مثلا أنه يجلس إلى مكتبه يوميا في الصباح الباكر لمدة ثلاث ساعات للكتابة، ومنه أيضا أنه ينام بعد الظهر لمدة حوالي ساعة، وهكذا لم يستسغ الأستاذ أن يتم إيقاظه هكذا، فسأل السيدة زوجته السؤال الذي سألته هي قبل ذلك للأستاذ محمد باشا : هل هناك أمر خطير؟ فقالت له زوجته: لقد فزت بجائزة نوبل، فأشاح الأستاذ نجيب بوجهه وعاد إلى نومه مفهما إياها أنه لا يستسيغ روح الدعابة في مثل هذا الوقت .

أما في سفارة السويد بالزمالك فكان السفير يبحث مع ستيج ألفيمار عن هدية يأخذانها لنجيب محفوظ؛ حيث كانا يزورانه الأول مرة ولم يكن

من اللائق أن يذهبا إليه للتهنئة وأيديهما فارغة كما يقال، وقد وجدا بغيتهما أخيرا في دولاب الهدايا بالسفارة، والذي كان يضم بعض المشغولات الزجاجية التي اختارا منها زهرية كبيرة على شكل كأس بللورية، وفي السيارة بدأ السفير يشرح للسائق المصري عنوان الأستاذ نجيب محفوظ في شارع النيل بالعجوزة فقاطعه السائق قائلا : نعم، نعم، إني أعرفه، فسأله السفير : هل ذهبت إلى هذا العنوان من قبل؟ قال السائق : لا، لكن كل المصريين يعرفون منزل نجيب محفوظ، واغتاظ السفير لأنه كان يريد أن يكون أول من يخبر نجيب محفوظ بالفوز رسميا دون أن يضطر إلى الاتصال بجريدة «الأهرام»، ولكنه كان مازال لديه الأمل ألا يكون الخبر قد تسرب حتى لا يعرف به صاحبه من وسائل الإعلام .

في تلك الأثناء كنت في مكتبي بوزارة الثقافة؛ حيث كنت أشغل منصب وكيل الوزارة للعلاقات الثقافية الخارجية، ودق جرس التليفون وكان محدثي هو رئيس الأكاديمية المصرية بروما وهو الفنان التشكيلي الكبير الدكتور مصطفى عبد المعطي، وقد بدأ الدكتور مصطفى قلقا بعض الشيء في حديثه، ثم سألني فجأة : هل حدث مكروه لا قدر الله للأستاذ نجيب محفوظ ؟ قلت : بعد الشر، ما الذي يجعلك تقول ذلك؟ قال : لقد اتصل بي صحفي إيطالي في الصباح يطلب السيرة الذاتية للأستاذ نجيب، ثم توالت الاتصالات من صحفيين آخرين بشكل مريب كلهم يطلبون معلومات عن نجيب محفوظ، فطمأنت الصديق مصطفى عبد المعطي إلى أن الأستاذ بخير، وقلت له : ربما صدرت ترجمة جديدة لإحدى رواياته أو شيء من هذا القبيل .

ورغم ما قلته للدكتور مصطفى عبد المعطي إلا أن القلق أخذ يساورني أنا أيضا، فلو كان كل مرة تصدر ترجمة لأحد كتبنا الأدبية يحدث هذا التسابق على معرفة تفاصيل حياة صاحبها لكان أدبنا أكثر الآداب شيوعا في العالم، وقررت أن أقطع الشك باليقين فغادرت مكتبي بوزارة الثقافة بعد دقائق من التردد والدوران في حلقات مفزعة متوجها إلى منزل نجيب محفوظ، والذي لم تكن تفصله عن مكتبي بشارع المساحة بالدقي إلا دقائق معدودة .

وكان ستوري آلين السكرتير الدائم للجنة نوبل مثلما اتصل بالسفير السويدي في القاهرة قد اتصل أيضا بالسفير المصري في ستوكهولم عبد الرحمن مرعي ليخبره رسميا بحصول الأديب المصري نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الأدب باعتباره أول أديب عربي يفوز بالجائزة منذ إنشائها عام 1901، وتذكر السفير عبد الرحمن مرعي أنه كان قد قابل ستوري آلين في وقت سابق وتحدث الرجلان عن جائزة نوبل، وأبدى السفير المصري دهشته من أن أحدا من كبار كتّاب الأدب العربي لم يحصل على الجائزة حتى الآن، ولم يكن السفير يعرف حينذاك أن أكبر أسماء الأدب الروائي العربي مرشح في ذلك العام نفسه لنيل الجائزة .

وبمجرد أن علم السفير عبد الرحمن مرعي بالخبر من السكرتير الدائم للجائزة، قام بإرسال برقيتين عاجلتين بهذا الخصوص، كانت الأولى لرئاسة الجمهورية، والثانية لوزير الخارجية في ذلك الوقت الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد .

والحقيقة أن أسماء عربية أخرى قد رشحت لجائزة نوبل في الأدب في السنوات المحيطة بعام 1988 الذي فاز فيه محفوظ بالجائزة، فقد أخبرت

إحدى الجهات العلمية الدكتور يوسف إدريس أنها قد رشحت اسمه للجائزة، وقد عرفت من مصادر وثيقة أن اسم الشاعر السوري أدونيس قد رشح أكثر من مرة في السنوات الأخيرة، لكن الترشيح في حد ذاته لا يعني شيئا، فقد أخبرني ستوري آلين أن عدد الأسماء التي ترشح سنويا للجائزة تكون بالمئات؛ لأن هناك جهات كثيرة من حقها أن ترشح أسماء للجائزة، ومن بينها الفائزون بالجائزة أنفسهم، فمنذ حصل الأستاذ نجيب محفوظ على جائزة نوبل يصله في كل عام خطاب من لجنة نوبل يتضمن استمارة ترشيح للجائزة، لكن الأستاذ كان دائما يتركها بيضاء ولا يملؤها، وحين سألته عن السبب في ذلك قال: إن اختيار اسم أديب عربي واحد للجائزة هو بمثابة حكم على هذا الأديب بأنه أفضل الأدباء العرب جميعا وتلك سلطة لا أستطيع أن أعطيها لنفسي، ففوزي بجائزة نوبل لا يعطيني الحق في أن أقرر مَن هو أفضل الأدباء، وإني أفضّل أن أترك ذلك للجهات العلمية المتخصصة مثل الجامعات ومراكز البحث الأخرى .

وقد حدث ذات مرة أن حدثني أحد الأدباء طالبا مني أن أتوسط له لدى نجيب محفوظ؛ كي يرشحه لنوبل، فقلت له: إن الترشيح لا يعني الفوز بالجائزة، قال : «وهو الترشيح وحش؟!»، وقد رويت القصة للأستاذ نجيب محفوظ، فضحك وقال : لابد أنه سيغضب مني لكن غضب كاتب واحد أفضل من غضب الكتّاب جميعا إذا اخترته هو للترشيح .

وصل السفير السويدي إذن إلى منزل الأستاذ نجيب محفوظ بعد ظهر ذلك اليوم من شهر أكتوبر 1988 ليخبره رسميا بفوزه بجائزة نوبل، فوجد «أمة لا إله إلا الله» قد سبقته إلى منزل الأديب الكبير الذي كان قد عرف

بخبر فوزه قبل وصول السفير، فلم يبق للسفير إلا أن يهنئه ويقدم له الكأس البللورية الكبيرة التي أحضرها معه، وحين وصلت أنا إلى منزل الأستاذ كان المصورون يلتقطون له صورا وهو يتسلم الكأس من يد السفير ، وقد نشرت إحداها في اليوم التالي في إحدى الصحف، وقد كتب تحتها «محفوظ يتسلم جائزة نوبل من السفير السويدي» !!!

نوبل والقضية الفلسطينية

تلاحقت الصور والأخبار التي ملأت الصحف والمجلات طوال الشهر الماضـي لعالمنا المصري الفذ أحمد زويل وهو يتسـلم جائزة نوبل من يد الملـك السـويدي كارل جوسـتاف، فأعـادت إحياء بعض ملابسـات فوز أديبنا الأكبر نجيب محفوظ بالجائزة قبل أكثر من عشـر سـنوات، وتجسـد أمامـي أول اختبـار صعب واجهتـه آنذاك بعد دقائق قليلـة من وصولي إلى السـويد، وبعد أن شـرفني أديب العربيـة الكبير بأن أكون ممثله الشـخصي في هذه المناسبة، وأن أتولى إلقاء خطابه بالأكاديمية الملكية باستوكهولم، وقـد كان اختبارا عسـيرا تصورت أنه سـيعطل تسـليم الجائـزة ويؤدي إلى انسحابي مع الوفد الإعلامي المصري من الاحتفالات، لكن أستار النسيان أسـدلت بالتدريج مع مرور السـنوات على هذا الموقف الذي لم أدونه في حينه لانشـغالي بإجراءات المناسـبة، ولـم أتحدث فيه مع صاحب الجائزة إلا أخيرا حين أحيت مناسـبة تسـليم أحمد زويل الجائزة ذكراه من سـباتها العميـق، فما كدت أنظر إلى صور عالمنا الشـاب وهو يتسـلم جائزته حتى تلاشـت فتـرة الأحد عشـر عاما التـي فصلت ما بيـن تاريخيـن : الأول هو ديسـمبر 1988، والثاني هو ديسـمبر 1999، وأحسسـت وكأني في التاريخ الأول، فالمناسـبة واحـدة وإن كان بطلها هذه المرة أكثر شـبابا من شـيخنا

الأديب الكبير، والملك الذي يسلم الجائزة واحد أيضا، وإن كان الشيب قد زحف بعض الشيء على رأسه الذي كان أسود داكنا في المرة الأولى، أما البلد المكرم في الحالتين فهو مصر التي لا تتغير ولا تشيخ، وإن مرت عليها إحدى عشرة سنة أو أحد عشر قرنا !

وتبدأ أحداث هذا الموقف العصيب فور وصولي إلى العاصمة السويدية استوكهولم يوم 6 ديسمبر 1988 قبل 48 ساعة من الموعد المحدد لاحتفال الأكاديمية السويدية بفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل في الأدب مساء يوم 8 ديسمبر، وكنت بصحبة وفد إعلامي مصري عالي المستوى ضم حوالي 30 إعلاميّا من التليفزيون والإذاعة والكتّاب ورؤساء تحرير الصحف، جاء يتابع الحدث ويشارك في فرحة حصول أول كاتب عربي على أرفع جائزة أدبية في العالم .

فبمجرد وصولي إلى فندق «جراند أوتيل» الشهير بقلب استوكهولم أخبرني موظف الاستقبال بأن رئيس لجنة نوبل سأل عني أكثر من مرة، وأنه يرغب في أن أتصل به فور وصولي لأمر مهم يتعلق بخطاب الأستاذ نجيب محفوظ الذي يجب أن يطبع صباح اليوم التالي بدون تأخير، و«خطاب نوبل» هذا كما يسمى هو تقليد خاص بالفائز بجائزة نوبل في الأدب دون غيره من الفائزين في المجالات الأربعة الأخرى للجائزة، وهي الطب والفيزياء والكيمياء والاقتصاد، والذين لا يلقون كلمات بمناسبة فوزهم، ويتم إلقاء «خطاب نوبل» في القاعة الكبرى بالأكاديمية السويدية العريقة على مشهد ومسمع من حفل كبير من رجال الأكاديمية والكتّاب والمثقفين والضيوف المهتمين بالآداب والفنون، وذلك في موعد لا يتغير هو 8 ديسمبر من كل عام .

وكان أديبنا الأكبر قد ائتمنني على خطابه الذي كتبه بخط يده في 8 صفحات «فولسكاب» لكي أقوم بترجمته إلى الإنجليزية والفرنسية، وإن كان قد أصر على ضرورة قراءته بالعربية أولا، وكانت وجهة نظره في ذلك أن تلك هي المرة الأولى التي تمنح فيها الجائزة التي تعتبر أكبر الجوائز الأدبية في العالم إلى أديب يكتب باللغة العربية، وفي الوقت الذي تمنح فيه الجائزة للكاتب فإنها تمنح أيضا ولأول مرة للغة العربية؛ لذلك فقد آن الأوان - على حد قوله - أن يسمع جرْس العربية لأول مرة داخل أروقة الأكاديمية السويدية العريقة .

وفي اجتماع بمكتب نجيب محفوظ بـ«الأهرام» أوضح ستوري آلين السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية الذي جاء إلى القاهرة لزيارته وللاتفاق على ترتيبات الحفل، أن تقاليد الجائزة تقضي بألا ينشر أي جزء من الخطاب قبل أن يتم إلقاؤه بالأكاديمية في استوكهولم يوم 8 ديسمبر .

وهكذا فبمجرد انتهاء الأستاذ نجيب من كتابة الخطاب سلمه لي فأرسلته بالطريق الدبلوماسي إلى الأكاديمية السويدية التي أرسلت بدورها خلال أيام تؤكد تسلمها له وتذكّر بأنها في انتظار الترجمة، وقد كانت الترجمة مهمة دقيقة لأنني عمدت إلى أن أنقل ليس فقط المعنى الذي قصده أديبنا الأكبر في خطابه، وإنما أيضا أسلوبه الأدبي؛ إذ إننا بصدد كاتب له أسلوبه المميز والذي حصل بمقتضاه على أرفع جائزة أدبية في العالم، وعلى مَن يستمع إلى خطابه بهذه المناسبة أن يتعرف أيضا على أسلوبه الخاص في التعبير، وقد استغرقت مني تلك المهمة عشرة أيام كاملة أرسلت بعدها الترجمتين الإنجليزية والفرنسية إلى الأكاديمية فاعتمدتها باعتبارها الترجمة الرسمية للخطاب، وكان ذلك قبل سفري إلى استوكهولم بأيام

معـدودة، لذلـك فحين وصلت إلى الفندق في العاصمة السـويدية لم تكن الكلمة قد تم طبعها بعد لكي توزع رسميا في الأكاديمية وقت إلقاؤها .

وتدافعت إلى ذاكرتي بسرعة كلمات خطاب محفوظ الشهير الذي قال فيه كلمته التاريخية : أنا ابن حضارتين الفرعونية والإسلامية اللتين تزاوجتا زواجـا موفقا بالعـدل والإيمان والمعرفة، فقد كنت مـن خلال ترجمتي له مرتيـن قـد حفظته عن ظهر قلـب، ورغم أن موظف الاسـتقبال بالفندق لم يحـدد لي الأمر المهم في خطاب محفوظ الـذي يريد رئيس لجنة نوبل أن يحدثني بشـأنه، إلا أنني كنت أعرف أنه كان هناك جزء متفجر في الخطاب وهو الجزء الذي تحدث فيه الأديب العربي الأكبر عن القضية الفلسـطينية وعن حق الشعب الفلسطيني في تحقيق آماله الوطنية .

ورأيت أمام عيني كلمات الخطاب الذي يقول فيه الأستاذ :

«.. وفـي الضفـة الغربية وغزة أقـوام ضائعون رغـم أنهم يعيشـون فوق أرضهـم وأرض آبائهم وأجدادهـم وأجداد أجدادهم، هبـوا يطالبون بأول مطلـب حققـه الإنسـان البدائي وهو أن يكـون لهم موطن مناسـب يعترف لهـم به، فـكان جزاء هبتهـم الباسـلة النبيلة رجالا ونسـاء وشـبابا وأطفالا تكسـيرا للعظام، وقتـلا بالرصاص، وهدمـا للمنازل وتعذيبا في السـجون والمعتقـلات، ومـن حولهـم مائـة وخمسـون مليونا مـن العـرب يتابعون ما يحـدث بغضب وأسـى؛ مما يهدد المنطقة بكارثة مـا لم تتداركها حكمة الراغبين في السلام الشامل العادل..».

ولمعرفـة قـوة مقولـة محفوظ هذه حـول القضيـة الفلسـطينية علينا أن نتذكـر أن ذلـك كان عام 1988 ، حين لم يكن يسـمح بذكـر تعبير «موطن»

للفلسطينيين، فلم يكن ذلك من ضمن معطيات عملية التسوية كما هو الحال الآن؛ حيث مسألة الوطن الفلسطيني تكاد تكون أمرا مسلما به، ووصف محفوظ في كلمته لسعي الفلسطينيين لتحقيق آمالهم في موطن بأنه «مطلب حققه الإنسان البدائي»، إنما يزيد من قوة القول، يضاف إلى ذلك وصف محفوظ في كلمته لغزة والضفة الغربية بأنها أرض الفلسطينيين عن «آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم» هي الأخرى من الأمور المسلم بها الآن، لكنها في ذلك الوقت لم تكن كذلك، فقد كانت السياسة الرسمية لإسرائيل آنذاك تقول: إن الضفة الغربية بكاملها هي أرض إسرائيلية أبا عن جد لأنها هي ذاتها أرض يهودا والسامرة القديمة !

ثم تأتي بعد ذلك القنبلة الكبرى وهي اختيار محفوظ أن يذكر الانتفاضة التي كانت تقض مضجع إسرائيل، فكانت تعمد إلى تصويرها في الإعلام الدولي بأنها حركة إرهابية لكي تبرر ما تتخذه من إجراءات قمع ضد القائمين بها، أما محفوظ فقد سماها في خطابه «هبّة باسلة ونبيلة»، وانتقد ما تقوم به إسرائيل من «تكسير للعظام، وقتل بالرصاص، وهدم للمنازل، وتعذيب في السجون والمعتقلات»، ولم يفته أن يشير إلى الغضب المتصاعد بين 150 مليون مواطن عربي، وأن يحذر من أن ذلك يتهدد المنطقة بكارثة محققة ما لم يتم تدارك الأمر .

ولقد كتب محفوظ الكثير سواء في إنتاجه الأدبي أو في مقالاته الصحفية، لكنه اختار أهم لحظة في حياته، وتلك التي كانت ستتركز فيها أنظار العالم كله عليه، وستصغي آذان العالم كله إلى كلماته لكي يوجه إلى الضمير العالمي هذه الرسالة المتفجرة التي تضمنت حقائق لم تكن متداولة بسهولة في الإعلام الدولي آنذاك .

من أجل ذلك كله، فقد كنت متوجسا مما يمكن أن يكون عليه رد فعل الدوائر الصهيونية في الغرب بشكل عام وفي السويد بشكل خاص إزاء ما تضمنته رسالة محفوظ من حقائق لن تروق لمن اعتادوا الركون إلى وجهة النظر الإسرائيلية، خاصة وقد صدّع البعض عندنا أدمغتنا بالحديث عن «الاعتبارات السياسية» المتحكمة في الجائزة، لذلك تصورت أن رئيس لجنة نوبل سيقول لي: إن تلك مناسبة أدبية وليست سياسية، وربما كان من الأفضل ألا نتحدث فيها في أمور سياسية، خاصة إذا كانت متفجرة كالقضية الفلسطينية، وربما كان من الأفضل أن نبتعد عن الأمور الخلافية حتى لا نفسد المناسبة.

وسقط قلبي في صدري فلم يكن لدي أي استعداد للاستماع إلى مثل هذا الحديث أو لمناقشته مع رئيس لجنة نوبل الذي أمضيت حوالي نصف ساعة ممسكا برقم تليفونه الذي سلمه لي موظف الاستقبال بالفندق وأنا متردد في الاتصال به، ولكي لا أصل بالأمر إلى مرحلة المواجهة قررت ألا أتصل برئيس اللجنة متعللا بأن الوقت كان متأخرا وإني لم أشأ إزعاجه في الليل، وآملا أنه حين لا يتلقى مني موافقة على أي تعديل في الكلمة فقد يضطر إلى طبعها كما هي دون التعرض لمضمونها، أما إذا عاد في اليوم التالي وأصر على موقفه فإني حينئذٍ لن أقبل المساس بأي حرف من الخطاب الذي ائتمنني عليه أديبنا الأكبر ولم يمنحني الحق في تعديل أو تبديل ما خطه بيده.

ووجدت من اللائق أن أتباحث في الأمر مع أعضاء من الوفد الإعلامي المصري فنقلت إليهم مخاوفي، وقلت لهم: إنني متمسك بموقفي حتى ولو وصل الأمر إلى حد الانسحاب من الاحتفالات وعدم إلقاء الخطاب

أو تسلم الجائزة، وقد وافقني على الفور أعضاء الوفد الذين تحدثت معهم وأكدوا لي أنه لو وصل الأمر إلى هذا الحد، فإنهم سينسحبون معي هم أيضا.

وما أن صعدت بعد ذلك إلى غرفتي بالفندق حتى رن جرس التليفون، وكان على الطرف الآخر رئيس لجنة نوبل بنفسه، وقد كان حديثه ودودا مهذبا بدأه بأن رحب بوصولي إلى استوكهولم وأخذ يسألني إن كنت قد وجدت الرحلة مرهقة، وإن كان قد أعجبني الفندق، بينما أخذت ضربات قلبي تتلاحق وأنا أتوق لأن أقول له بالتعبير المصري الدارج: «هات من الآخر»، إلى أن جاء «الآخر» وحده حيث قال لي محدثني بعد أن طمأنته أن الرحلة لم تكن مرهقة وأن الفندق على ما يرام، بأن السبب في اتصاله في هذا الوقت المتأخر هو أن هناك في خطاب الأستاذ نجيب محفوظ ما يستوجب التعديل، وأسقط في يدي فقلت على الفور : لست مخولا من قِبَل الأستاذ محفوظ بإجراء أي تعديل فيما كتب! قال رئيس اللجنة : إنه تعديل بسيط وباستطاعتنا أن نطلب لك مستر محفوظ في القاهرة لكي تطلعه على الأمر وتحصل منه على موافقته، قلت وقد بدأ صبري ينفد : وما هو ذلك التعديل المطلوب؟! قال : هل أمامك نسخة من الخطاب؟ قلت: أنني أحفظه عن ظهر قلب فتفضل .. قال : لقد وجدت أن مستر محفوظ يوجه الشكر في الخطاب إلى لجنة نوبل قلت : نعم فهذا هو السطر الأول في الخطاب والذي يقول فيه: «في البدء أشكر لجنة نوبل على التفاتها الكريم لاجتهادي المثابر الطويل، وأرجو أن تقبلوا بسعة صدر حديثي..». فقال رئيس اللجنة في هدوء : في الحقيقة أن هذا الشكر يجب أن يذهب إلى الأكاديمية السويدية لأنه وفق إجراءات منح جائزة نوبل في الأدب،

فإن الأكاديمية السويدية هي التي تختار الفائز وتقدم اسمه للجنة نوبل التي تمنحه الجائزة!!

وسادت فترة صمت لم أنطق فيها بحرف، فقد كنت أتنفس الصعداء بعد أن انحبس نفسي منذ بداية المكالمة، وقطع صوت محدثي هذا الصمت قائلا : هل تريد أن نطلب لك مستر محفوظ في القاهرة لتستأذنه في هذا التعديل؟ قلت : لا داعي لإزعاجه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وأنا واثق أن الأستاذ محفوظ سيشكرك على هذه الملاحظة، فهو لا يحب أن يغفل صاحب حق، قال : هل تسمح لنا إذن باستبدال اسم الأكاديمية السويدية باسم لجنة نوبل؟ قلت : لنترك ما كتبه الأستاذ كما هو ونضيف إليه فقط اسم الأكاديمية، وهكذا يوجه الشكر للأكاديمية واللجنة أيضا .

واستراح رئيس لجنة نوبل لاقتراحي واسترحت أنا أكثر حتى استطعت الخلود إلى النوم في تلك الليلة العصيبة، لكن الراحة الكبرى كانت بعد ذلك بيومين داخل القاعة الكبرى للأكاديمية السويدية حين استمع العالم كله بالعربية مرة وبالإنجليزية مرة إلى ما كتبه أديبنا الأكبر نجيب محفوظ عن القضية الفلسطينية دون تعديل أو تبديل، وفي اليوم التالي صدرت الصحف السويدية تقول: إن خطاب محفوظ يعتبر من أهم الخطابات التي ألقيت بالأكاديمية السويدية، ووصفته بأنه «دعوة للعمل من أجل الإنسانية».

حين هرب محفوظ من نوبل

كنت في مكتب أديبنا الأكبر نجيب محفوظ بالأهرام بعد إعلان فوزه بجائزة نوبل ببضعة أشهر لم ينقطع خلالها سيل الزيارات ولقاءات رجال الإعلام الذين قدموا إليه من مختلف أنحاء العالم، ووجد الرجل نفسه منهكا، وقال لي : إنني أشعر بأنني تحولت إلى موظف لدى مستر نوبل عليَّ أن أقابل كل مَن يرسله لي من صحفيين وكاميرات تليفزيون وضيوف أجانب، وقد كان ذلك جديدا تماما على نجيب محفوظ فهو رجل يحب الناس ويحرص على مقابلة أصدقائه بانتظام، لكنه حريص على نظامه المعتاد الذي ظل ملتزما به طوال حياته؛ حيث هناك أوقات معينة في اليوم للكتابة وأوقات ثانية للقاء الأصدقاء، وأوقات ثالثة للأسرة وللراحة... إلخ، أما في الشهور الأولى لفوزه بنوبل فقد انقلب كل ذلك رأسا على عقب، وهو ما أصبح يشكل عبئا نفسيا عليه ، خاصة أن دماثة الخلق التي يتسم بها لم تكن تسمح له برفض لقاء أي زائر تكبد مشقة الحضور إليه من خارج البلاد، وحين وجدته يعاني عدم انتظام حياته بالطريقة التي اعتادها مما أرهقه كثيرا، اقترحت عليه السفر إلى الإسكندرية لأخذ قسط من الراحة وهي مدينة يعشقها وله فيها بيت اعتاد الإقامة به في الصيف مع

أسـرته، وقلت له : إن الإسـكندرية سـتكون هادئة الآن في الشـتاء وستنعم بقدر من الاستجمام أنت بحاجة إليه .

وقـد ارتـاح الأسـتاذ إلى تلـك الفكـرة وطلـب سـكرتيرته ليخبرها أنه سـيتغيب بضعة أيام؛ حيث سيسـافر إلى الإسـكندرية، وأضفـت لها أنا أن تكتفـي بالقـول لمن يسـأل عنه أنه سـيتغيب لمـدة أيـام دون أن تفصح عن مكانه .

وارتاحـت السـكرتيرة أيضـا للفكرة، وقالـت إنها هي الأخـرى بحاجة لإجـازة فهي لـم تكن تتصور أن حجـم العمل مع الأسـتاذ نجيب محفوظ سـيكون هائـلا هكـذا، وأن أجهـزة الإعلام سـتهجم علـى المكتـب بهذا الشكل، وكأنه اجتياح عسكري من دولة أجنبية .

والحقيقة أن نجيب محفوظ لم تكن له في السابق سكرتيرة، وكان يفضّل أن يصرف أموره بنفسـه، فقد كان يحضر إلى مكتبه بالأهرام بمفرده فيتلقى بريده بنفسه ويجيب على تليفوناته ويمضي بضعة ساعات في صحبة توفيق الحكيـم أو لويس عـوض أو غيره ممن كانوا يقطنون معه بالدور السـادس في ذلك الوقت ثم ينصرف، لكن بعد فوزه بجائزة نوبل تطوع الناقد الأدبي المعروف فتحي العشـري بأن يساعد في تنظيم لقاءاته الفكرية والصحفية، كما تطوعت سـيدة فاضلة هي الاسـتاذة كوثر البطراوي سـكرتيرة الدكتور لويـس عـوض السـابقة لتقوم بأعمـال السـكرتارية للكاتـب الكبير؛ حيث كانت تتلقى مكالماته التليفونية وتنظم له مواعيد زياراته، وقد سـاعدها في ذلك كونها سيدة مثقفة تجيد اللغات الأجنبية .

قالـت لـه السـكرتيرة : كيف ستسـافر يا أسـتاذ؟ هل أطلب لك سـيارة خاصـة من «الأهرام»؟ فاندهش الأسـتاذ وقال لها : ولماذا سـيارة خاصة؟ إني سأسـافر كما تعودت دائما في القطار أو الأتوبيس الصحراوي، فقالت له السكرتيرة : كان هذا في الماضي، أما الآن بعد نوبل فقاطعها على الفور: ماذا بعد نوبل؟ إني كما أنا لم أتغيّر ولن يتغيّر شيء في حياتي .

وتدخلـت فـي الحديث قائـلا : إنها لا تقصد أن حياتـك يجب أن تتغير بسـبب نوبل، لكن فوزك بالجائزة يعتبر حدثا قوميا كبيرا يدفع الكثيرين من المواطنين للتهافت على مقابلتك ومصافحتك والتحدث إليك كلما رأوك في مكان عام؛ لذلك فإنك لن تنعم بالراحة التي تصبو إليها إذا سـافرت في المواصلات العامة .

فـرد محفـوظ فـي هـدوء : إن مـن حـق أبناء بلـدي علـيَّ أن تتـاح لهم مصافحتـي والحديث إلـيّ إذا أرادوا، ولا تنس أن إقبالهم عليّ وعلى قراءة أعمالـي هو الذي أدى فـي النهاية لحصولي على نوبل فلولا ذلك ما شـعر أحد بي في العالم، ولا منحني أحد جوائز، ولو تسـبب نوبل في عزلي عن الناس الذين عشت حياتي كلها بينهم لكانت تلك خسارة كبيرة لي .

.. وسافر أديب نوبل العالمي إلى الإسكندرية كما تعود دائما بالقطار !

محفوظ وجامعة القاهرة

بمناسبة العيد التسعين لأديبنا الكبير نجيب محفوظ، اختارت جامعة القاهرة أن يكون احتفالها السنوي بعيد العلم مقاما على شرف نجيب محفوظ، لما يرمز إليه الأديب العالمي من نبوغ عربي ذاع صيته في أركان الدنيا الأربعة، وقد رأت الجامعة أن تكون هديتها لمحفوظ في هذه المناسبة التي يتوافق فيها عيد ميلاده التسعون مع عيد العلم (كما توافق أيضا مع عيد الفطر وميلاد السيد المسيح)، هدية من نوع خاص باقٍ على مدى السنين، فقد قررت إنشاء جائزة جديدة باسم نجيب محفوظ تمنح سنويا لأحد أعلام النبوغ الأدبي من الجامعة التي درس محفوظ بكلية آدابها وتخرج فيها قبل نحو سبعين عاما، ورغم أن الرأي داخل إدارة الجامعة يتجه إلى جعل الجائزة لا تقل قيمتها عن عشرة آلاف جنيه، إلا أن قيمتها الحقيقية في اسم صاحبها ومكانة الجهة المانحة لها، فلاشك أن جائزة باسم نجيب محفوظ يكون لوزنها الأدبي قيمة مضافة من اسم أديبنا العالمي، ويزيد منها أن مانحتها هي كبرى جامعاتنا في مصر والوطن العربي.

لذلك فقد سعدت حين اتصل بي في الأسبوع الماضي الدكتور أحمد فؤاد باشا نائب رئيس جامعة القاهرة آنذاك، ليخبرني بالهدية التي ستقدمها الجامعة لأديبنا الكبير، وكنت قد انتقدت في مقالي الأخير وقتها، أن عيد

ميلاد محفوظ التسعين مر علينا مر الكرام، رغم ما قدمه صاحبه من عطاء لمصر والعالم العربي أجمع، والذي لا يرقى إليه إلا عطاء القليلين، وقلت: إني كنت أتصور أن يكون الاحتفال بعيد محفوظ التسعين فرصة للرد على الحملة العالمية الموجهة لنا، والتي تتهمنا بأننا قوم متخلفون بلا حضارة ولا ثقافة، ولا شك أن إقدام جامعة القاهرة على هذه المبادرة، لهو خطوة مهمة في الطريق الصحيح، وهي جديرة بالاعتبار .

ولقد حضرت أخيرا احتفالا كبيرا أقيم في هولندا لتسليم جائزة مماثلة لما رصدته جامعة القاهرة من جائزة باسم نجيب محفوظ قدمت هي الأخرى في شكل هدية عيد ميلاد، وهي جائزة الأمير كلاوس زوج الملكة بياتريس الذي كرس جزءا كبيرا من حياته لتشجيع التبادل الثقافي مع العالم الخارجي، وفي مناسبة عيد ميلاد الأمير كلاوس السبعين في سبتمبر عام 1996 رأت الحكومة الهولندية أن تكون هديتها له بهذه المناسبة هي إنشاء صندوق خاص تمنح من ريعه كل سنة جائزة خاصة باسم الأمير لشخصية ثقافية من خارج هولندا، وقد عقد الصندوق احتفاله الخامس هذا العام بالقصر الملكي بأمستردام ؛ حيث أعلن عن منح الجائزة التي تبلغ قيمتها حوالي 100 ألف دولار للفنان التشكيلي الترينيدادي بيتر منزهول .

والحقيقة أن نقاط الوصال بين نجيب محفوظ وجامعة القاهرة تتعدى مجرد أنه درس داخل أروقة واحدة من أقدم كليتين بها، وهما كليتا الآداب والحقوق، كما تتعدى توافق عيد ميلاده مع عيد الجامعة السنوي للعلم، الذي كان له وقع الحدث الجلل في الحياة المصرية طوال حقبة الستينيات ثم توقف أو أوقف في السبعينيات إلى أن عادت جامعة القاهرة في العام الماضي بمبادرة محمودة من رئيسها - في ذلك الوقت - الدكتور نجيب

الهلالي جوهر إلى استئناف هذا التقليد العظيم، الذي كرمت فيه مصر على مدى السنين أهم رموزها في شتى المجالات من الأدباء والعلماء إلى الفنانين ورجال السياسة، والذين نذكر منهم مثلا توفيق الحكيم وأم كلثوم ضمن آخرين .

لقد شاءت الأقدار أن يأتي مولد كل من جامعة القاهرة وأديبنا الكبير على بعد ثلاث سنوات فقط من بعضهما البعض، حيث ولدت الجامعة عام 1908، بينما كان ميلاد نجيب محفوظ عبد العزيز أحمد باشا في عام 1911، وهذا يعني أن هذين العلمين في الحياة المصرية والعربية عمرهما قد وصل الآن إلى قرابة القرن من الزمان، عاصر خلاله كل منهما أهم أحداث تاريخنا الحديث من أول حرب عالمية (1914 - 1918) عرفها التاريخ، إلى ثورة 1919 المصرية التي خرج بعض شبابها من الجامعة (فؤاد الأول آنذاك)، وهي المظاهرات التي يذكر نجيب محفوظ جيدا أنه شاهدها وهو طفل من شرفات بيت الأسرة الذي ولد به في ميدان بيت القاضي بحي الجمالية القديم، فرأى بأم عينيه الطلقات النارية وهي تصيب المتظاهرين، وسمع بأذنيه هتافاتها بحياة سعد، فعاد بعد ذلك في شبابه ليسجلها في ثلاثيته الخالدة، والتي دخلت عداد أهم الأعمال الأدبية في التاريخ الإنساني، فصدرت أخيرا ولأول مرة من دار Everyman الشهيرة في لندن، والتي لا تصدر إلا أمهات الكتب والمراجع الأساسية من الآداب اليونانية القديمة، وحتى كلاسيكيات الآداب الحديثة .

وعلى مدى ما يقرب من 50 رواية و350 قصة قصيرة و5 مسرحيات من فصل واحد عاصر نجيب محفوظ، كما عاصرت جامعة القاهرة، الحرب العالمية الثانية وكفاح الشعب ضد الاحتلال البريطانية، الذي صوره محفوظ

ببراعة في إحدى رواياته الأولى وهي «**كفاح طيبة**» (1944)، التي استلهم فيها التاريخ المصري القديم ليعبر عن الواقع المعيش، وهو الواقع الذي انتقل إليه بعد ذلك بمرحلته الواقعية التي بدأها برواية «**القاهرة الجديدة**» (1945)، أو «**فضيحة في القاهرة**»، كما سميت في إحدى طبعاتها، أو «**القاهرة 30**» كما سميت في نسختها السينمائية، وهي المرحلة التي توّجها محفوظ بـ«**الثلاثية**» التي نشرها ما بين عاما 1956 و1958 .

وفي ذلك الوقت الذي كان فيه قلم محفوظ يتابع بكل جوارحه، انتفاضات الشعب المصري ضد الاحتلال من جانب، وضد ظلم القصر من جانب آخر، كانت اضطرابات طلاب جامعة القاهرة تكفي لإسقاط الوزارات، وتمد محفوظ بتاريخ بديل مشرق فجّر فيه ينابيع الإبداع الأدبي، الذي أدخله بعد ذلك وأدخلنا معه محافل الخالدين من كبار أدباء العالم.

وتتوالى أحداث التاريخ فيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بحرب فلسطين، وثورة يوليو 1952 وما تلاها من أحدث مجيدة من تأميم قناة السويس، إلى إقامة أول وحدة في تاريخ العرب الحديث، إلى بناء السد العالي، إلى محاولات تحقيق العدالة الاجتماعية عن غير طريق الشيوعية، وهي المرحلة التي انتهت بهزيمة 1967، ثم رحيل جمال عبد الناصر، لندخل مرحلة جديدة في تاريخنا، بدأت بحرب أكتوبر المجيدة عام 1973، ثم اتجهت إلى الانفتاح والاتفاق مع إسرائيل، إلى عصرنا الحالي الذي عمل على التوازن ما بين إيجابيات العصرين السابقين .

ولقد شهدت جامعة القاهرة ذلك التاريخ الممتد كله، وكانت عنصرا فاعلا في توجيه دفة أحداثه، ليس فقط بمظاهرات طلابها الذين هم ضمير الأمة الحي من أحداث 1968 في عهد عبد الناصر، إلى اضطرابات

1971 و1972 و1973 في عهد السادات، وإنما أيضا بأن تحولت في فترة الستينيات إلى أهم مستودع للتشكيلات الوزارية التي اعتمدت إلى حد كبير على «التكنوقراط» وليس على العناصر الحزبية، كما كان الحال في سنوات ما قبل الثورة.

وفي نفس الوقت، كان ابن الجامعة الكاتب والأديب يتفاعل مع هذه الأحداث، ليخلق منها روائعه الروائية التي حاسب فيها تجاوزات العهد الناصري في رواية «**الكرنك**» (1974)، كما حاسب إخفاقات العصر الساداتي في رواية «**يوم قتل الزعيم**» (1985)، وما بين هذا وذاك أدان محفوظ مجتمع الانفتاح في «**أهل القمة**»، و«**الحب فوق هضبة الهرم**» (1979)، وسجل فرحته بنصر أكتوبر في ملحمة «**الحرافيش**» (1977).

وإذا كنا بصدد تذكر المناسبات التي يتوافق معها تاريخ ميلاد أديبنا الكبير نجيب محفوظ، فإن هناك تاريخا آخر يتصل بتاريخ الرواية العربية التي اختار محفوظ أن تكون مجال حياته ـ ذلك أن عام 1911 الذي ولد فيه محفوظ، هو نفس العام الذي أكمل فيه الدكتور محمد حسين هيكل روايته الخالدة «زينب» التي نشرها في العام التالي، فكانت هي رائدة الفن الروائي العربي الحديث، وسيخلد التاريخ الثقافي العربي أن عام 1911 الذي شهد أيضا ميلاد نجيب محفوظ الذي عمل أكثر من أي من أدباء العربية على تطوير الفن الروائي العربي وإعطائه شخصيته المستقلة؛ مما جعل الناقد الأمريكي والمستعرب المعروف روجر آلن يقول لي ذات مرة: إن أهم إنجاز لنجيب محفوظ هو أنه أعطى للرواية العربية هويتها؛ بحيث تميزت بين مختلف مدارس الرواية في العالم.

ورغم أن محفوظ قد اختار بكامل إرادته أن يكون إنجازه في مجال الأدب، الذي نذر له حياته كاملة، إلا أنه ربما كان بين أدبائنا جميعا أكثرهم قربا من مجال العلم الذي تحتفل جامعة القاهرة بعيده. فنجيب محفوظ هو أحد الرموز المهمة للتنوير في تاريخنا المعاصر، وتعتبر المعرفة والعلم من الركائز الأساسية التي يقوم عليها أدبه، وهي تتخذ في رواياته سمة الأداة الرئيسية للارتقاء بالمجتمع وتقدم البلاد؛ ومن ثمّ فإن العلم في فكر نجيب محفوظ هو علم وإيدولوجية في نفس الوقت.

إن احتفال جامعة القاهرة مساء اليوم بنجيب محفوظ في عيد العلم، وتحت رعاية وبحضور رئيس الوزراء - حينئذٍ - الدكتور عاطف عبيد، إنما يحمل رسالة ذات مغزى للعالم أجمع بأننا أصحاب حضارة تقدر العلم والعلماء، ولا شك أن اسم نجيب محفوظ هو خير ما يجسد هذا المعنى الكبير.

العلم والتحديث
في فكر نجيب محفوظ(*)

يعتبر نجيب محفوظ أحد أهم رموز التنوير في حياتنا المعاصرة، وتعتبر المعرفة والعلم والتحديث من الركائز الأساسية التي يقوم عليها أدبه، وهي تتخذ في أعماله الروائية سمة الأداة الرئيسية للارتقاء بالمجتمع وتقدم البلاد ولسعادة الإنسان، فمن يملك المعرفة من بين شخصيات الأدب المحفوظي هو ذلك الذي يملك أسباب القوة ويستطيع أن يتحكم في مصيره، وإن كان في كثير من الأحيان يجد نفسه في حالة صراع مع مَن يمثلون القديم والبعيدين عن العلم والمعرفة، فهؤلاء تتخطاهم الأحداث ويبقوا وحدهم على جانب الطريق . فالعالم الروائي لنجيب محفوظ يقوم في أحد جوانبه الأساسية على ذلك الصراع بين اتجاه التطور الاجتماعي الذي يحقق مجموعة من القيم والمثل العليا، وبين التخلف والانتكاسات التي تصيب أبطاله خلال مسيرة هذا التطور .

ولقد دخلت ثلاثية محفوظ العظيمة ذات الشهرة العالمية عداد الأعمال الأدبية الرئيسية في الأدب الإنساني، فصدرت أخيرا بترجمتها الإنجليزية في طبعة خاصة من دار «Everyman» البريطانية التي لا تنشر إلا أمهات

(*) كلمة ألقيتها في عيد العلم بجامعة القاهرة يوم 24 ديسمبر 2001 .

الكتب العالمية ابتداءً من الآداب اليونانية والرومانية القديمة وحتى كلاسيكيات الأداب المعاصرة .

وإذا كان لنا أن نعتبر شخصية كمال عبد الجواد في «**الثلاثية**» تعبيرا عن المؤلف نفسه كما اعترف لي أديبنا الأكبر فإن كمال يؤمن بالعلم والمعرفة ويدافع عن أحدث النظريات العلمية أمام مَن لا يعرفون، ومن بينها على سبيل المثال نظرية الارتقاء لداروين، وهي النظرية التي تقوم عليها «**الثلاثية**» نفسها بما تصوره من توالي أجيال ثلاثة في عائلة واحدة يتطور المجتمع معها ويتغير من جيل إلى جيل عبر رواياتها الثلاث : «**بين القصرين**» و«**قصر الشوق**» و«**السكرية**»، فـ«**الثلاثية**» هي في الحقيقة تجسيد لفكرة التطور التاريخي الذي يقتلع في طريقه الكثير من التقاليد القديمة ويقوّض صروحا من الأعراف البالية، فبين سطورها نلمح انصرافا عن الماضي السقيم ورغبة قوية في التخلص من إرثه الثقيل، والتحرر من الاحتلال الذي تسعى إليه أحداث الرواية يجب أن تصحبه أنواع أخرى من التحرر في المجتمع وبين شخوصه .

وقد لا يكون في الأدب الروائي العربي ما يزخر بالفكر والفلسفة وأعلامهما مثلما تزخر أعمال أديبنا الأكبر نجيب محفوظ، فحين يسعى كمال لنسيان حبه لعايدة في «**قصر الشوق**»، فهو يحاول التهوين من آلامه الفردية بالتأملات الكونية والتماس العزاء عند الفلاسفة مثل سبينوزا بنظريته عن الزمن غير الحقيقي، وهي النظرية التي تنتصر للعقل والوعي ، ويستمر تأثير سبينوزا على كمال الذي يقرأ ويكتب وينشر في مجلات قليلة التوزيع محدودة القراء، مدفوعا برغبته في المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة والسعي للتقدم والارتقاء .

أمـا فـي «**السـكرية**» فنجـد كمال عبـد الجـواد يتعـزى من هوان شـأنه بالمشـاركة فـي الانتصـار علـى الرغبـة مع قمـة أخرى مـن قمم الفلسـفة الحديثة في القرن العشـرين وهو شوبنهاور، أو يهون من إحساسه بالتعاسة بجرعة من فلسـفة لبنتز في تفسير الشر، أو يروي قلبه المتعطش إلى الحب من شـاعرية هنري برجسـون. والحقيقة أن برجسـون يحتل مكان الصدارة بالنسـبة للفلاسـفة اللذين ترد أسـماؤهم في عالم نجيب محفوظ الروائي؛ ممـا يتوافـق مـع الاهتمـام المبكر الـذي أبداه نجيـب محفوظ ببرجسـون وفلسـفته في مقالاته التي نشـرها في بداية حياته الفكرية عندما كان دارسـا للفلسـفة وقبـل أن يتجـه إلـى الأدب، ومن بينهـا مقال مهم عن برجسـون يكشـف فيه محفوظ عن الطاقات الروحية الكامنة في فلسـفته وعن الأبعاد المتعددة لفكرته عن الوثبة الحيوية وعن نقده لفلسفات القرن التاسع عشر المادية وتأثيره الهام على الفلسـفة الحديثة في القرن العشرين ؛ لذلك نجد أن أول تعبير عن ثقافة كمال عبد الجواد الجديدة في «**السـكرية**» تأتي عند انفراده في المكتبة ليقرأ فصلا في كتاب «منابع الدين والأخلاق» لبرجسون وأن يراجع مقاله الشـهري لمجلة «الفكر» في الساعات المتأخرة هذه التي تمتـد حتى منتصف الليل ، والتي يشـعر كمال أنها أسـعد أوقـات يومه؛ إذ يشعر فيها – على حد تعبيره – بأنه إنسان، وجدير بالذكر أن لمحفوظ نفسه مقالا يحمل عنوان مقال كمال عبد الجواد وقد نشـر في سـبتمبر 1934 في «المجلة الجديدة» .

وربمـا كان أهـم مـا وجده محفوظ في فلسـفة برجسـون هـو اهتمامها بالثنائية التقليدية بين الجسـد والنفس، بين المادة والروح، والتي جسـدتها الفلسفة الصوفية التي تفصل فصلا حادا ما بين الاثنين، بل تذهب إلى حد أن

الجسد يمثل قيدا على الروح وهبوطا بها، بينما الروح هي الحرية والسمو، وقد كانت الثنائية سواء في تعبيرها البرجسوني أو الصوفي محورا هاما من محاور فكر نجيب محفوظ من أعماله الأولى التي سبقت «**الثلاثية**» إلى أعماله الأخيرة التي برز فيها الجانب الصوفي مثل «**أصداء السيرة الذاتية**» وقصصه التي يكتبها في الوقت الحالي وتنشر تحت عنوان : «**أحلام فترة النقاهة**» .

كما نجد أن كمال عبد الجواد في «**الثلاثية**» يتخذ من سقراط مثلا أعلى في المرحلة المبكرة من حياته، فيرفض دراسة القانون مفضّلا البحث عن الفكر والثقافة في مدرسة المعلمين، مؤمنا بأن تأليف الكتب أهم من وجاهة المنصب، وأن حياة الفكر التي يجسدها سقراط أسمى من كل حياة أخرى؛ حيث يقول في «**قصر الشوق**»: أليس كتاب يهز الأرض خيرا من وظيفة وإن هزت الأرض؟! أما في «**ميرامار**» فإننا نجد عامر وجدي بعد «**الثلاثية**» بقرابة العشرين عام يقول : «وكم من الناس إذا قارنتهم بسقراط اقتنعت بأنهم لا يمكن أن يرجعوا معه إلى أصل جنسي واحد»، وسرعان ما تتحول محاكمة سقراط الشهيرة إلى أداة فنية في يد نجيب محفوظ تعبر خير تعبير عن الواقع الذي تقدمه «**ميرامار**» : واقع الموقف المتميع والبشر المشكوك في انتسابهم للجنس البشري .

أما أبو علم النفس الحديث سيجموند فرويد فيظهر في «**السكرية**» من خلال شخصية المفكر التقدمي عدلي كريم، حين ينصح أحمد شوكت بالمزج بين الأدب والعلم الحديث الذي يتمثل في مجموعة من الأسماء منهم فرويد، فيقول له : «ادرس الآداب كما تشاء، واعتنِ بعقلك أكثر ما تعتني بالمحفوظات، ولا تنسَ العلم الحديث، ويجب ألا تخلو مكتبتك

- إلى جانب شكسبير وشوبنهاور - من كانت وداروين وفرويد وماركس وانجيلز، لتكن لك حماسة أهل الدين لكن ينبغي أن تتذكر أن لكل عصر أنبياءه، وأن الأنبياء في هذا العصر هم العلماء» .

وفي مجال العلوم نجد مثلا أن كوبر نيكوس هو أحد العلماء الذين أجهزوا على العقيدة الراسخة لكمال عبد الجواد ودفعوه إلى الشك ومراجعة الثوابت العقائدية، وبحكم المرحلة السنية وحماسة الشباب في البحث عن المعرفة، فإن كوبرنيكوس يحتل مكانة هامة في قلب وعقل كمال. إن إعجابه به نابع من تجسيده لفكرة العلم الذي يتعانق مع الفلسفة، وتتحول رموز العلم والفلسفة، عند كمال إلى مقياس من تناقض في أن نعجب بسعد زغلول كما نعجب بكونرنيكوس واستولد وماخ، فالجهاد في سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل إنساني كذلك» .

أما في «**حكاية بلا بداية ولا نهاية**» فنجد أن أرشيميدس هو أحد الأسماء المرتبطة بالعلم حتى عند شيخ الطريقة الصوفية محمود الأكرم الذي يقول: «عرفنا ذات يوم أسماء جذلة كأرشميدس ونيوتن»، ويصبح نيوتن مرادفا للعلم في الرواية فهو المثل الأعلى لعوام الناس والميراث المستهدف للحالمين بعلم إنساني جديد .

وإذا كانت «**الثلاثية**» قد ظهرت في أولى مراحل نجيب محفوظ الواقعية، فإنه لم يتخل في مراحله الأخيرة عن إيمانه الراسخ بأن التقدم والارتقاء هما سنة الحياة، ففي رواية «**الحرافيش**» مثلا يوجه لنا الكاتب سؤالا استنكاريا واضحا حيث يقول : «لو كان لشيء أن يبقى على حال فلم تتغير الفصول؟!» .

وفي مجموعته القصصية «**الفجر الكاذب**» يصور لنا محفوظ شابا يعاني من مرض انفصام الشخصية، وهو يتوهم أن هناك مجهولا يطارده ليأخذ حياته ثمنا لثأر أسري قديم، وذلك رمزا لميراث السلفية الرجعية والحرب التي تشنها على دعاة تحديث المجتمع واللحاق بركاب العصر الحديث، وحين يشفى الشاب في النهاية يسأله طبيبه المعالج عما تعلمه في مصحته فيجيبه الشاب بحماس : «إن أحلام اليقظة غير مجدية!» .

أما في «**رحلة ابن فطوطة**» فإن أحد الدروس التي يتلقاها بطل الرواية في رحلته إلى دار الجبل هو : «أحبوا العمل ولا تكترثوا للثمرة والجزاء»، وهو درس يعلم قراء أديبنا الأكبر أنه جزء حميم من رؤيته لسبيل الخلاص الاجتماعي، ويصف الناسك للبطل دار الجبل التي يقصدها في رحلته فيقول : «هناك بالعقل والقوى الخفية يكتشفون الحقائق، ويزرعون الأرض، وينشئون المصانع، ويحققون العدل والحرية والنقاء الشامل»، وإذا تفحصنا هذه الكلمات وجدناها تعبر عن قناعات محفوظ الاجتماعية التي تتخلل نسيج جميع أعماله. فالعقل هو العلم بقدراته غير المحدودة على تحقيق التقدم الاجتماعي، والقوى الخفية هي الإيمان حين يتوافق مع هذا العقل، والذي يقول عنه المعلم كرشة في «**الثلاثية**» : «ربنا عرفوه بالعقل!»، أو هو الدين حين تزاح عنه خزعبلات التطرف البغيض، كما يقر الشيخ تغلب الصناديقي في «**حكاية بلا بداية ولا نهاية**» حين يقول : «ثمة جوهر حقيقي باقٍ تحت ركام من أوهام لا قيمة لها!» .

وربما كانت رواية محفوظ الشهيرة «**أولاد حارتنا**» التي اتخذت السلطة الدينية موقفا معاديا لها هي أكثر روايات الكاتب الكبير إصرارا على أهمية

المعرفة وأحد أبطالها الرئيسـين هو عرفة المشـتق اسـمه من كلمة المعرفة والذي يأتي لأبناء الحارة بأعمال وأفعال مبهرة، كأعمال السحرة وهو يبقى في النهاية بعد أن تموت بقية الأبطال؛ ولذلك فإذا كان أبطال الحارة بمثابة أنبيـاء - كما يحلـو للبعض أن يتصور - فإن عرفة يكـون نبيا من نوع آخر : إنه نبي العصر الحديث ورسـول يبشر بالحياة الجديدة والخلاص من قيود الماضـي ومآسـي العهـود الغابرة، فقد كانـت الرغبة المسـيطرة على عرفة هي للمزيد من المعرفة والاكتشـاف، وكانت تستهدف خدمة أولاد الحارة وإنقاذهم من عسف الفتوات وظلمهم .

كذلك نجد أن الشـخصيات الرئيسية في أدب نجيب محفوظ المتمردة علـى الواقع والداعية إلـى التقدم والتحديث مثل علـي عويس في «**حكاية بلا بداية ولا نهاية**» تمثل امتدادا لشخصية عرفة ولدور العلم في المجتمع.

علـى أن الملاحـظ أن مفهوم العلم عند نجيب محفـوظ لا يقتصر على اسـتيعاب وتطبيـق العلوم الطبيعيـة والرياضيـة، وإنما هو أوسـع حتى من التصور الذي تندرج تحته العلوم الإنسانية والاجتماعية. فالعلم عند نجيب محفوظ يتسـع مجاله وتأثيره ليشـمل لا العمليات الرامية إلى تغيير الطبيعة فحسـب، بل أيضا العمليات الرامية إلى تغيير المجتمع نفسه، وبذلك يصبح علمـا وأيدولوجيـة في آن واحد. ومـن ناحية أخرى فـإن العلم عند نجيب محفـوظ ليـس منبت الصلة عـن الإيمان كما قد يبدو، ولعـل ما يؤكد ذلك التصالح والوئام بين الدين والعلم هو ما جعله يضع نهاية سعيدة لـ«**حكاية بـلا بداية ولا نهاية**» حين يعترف رجل الدين الشـيخ محمـود الأكرم بأبوته للمتمرد علي عويس، فيقول له : «إني أبوك وإنك ابني!» .

هل هو دليل على قوة الإرهاب؟

«أليس في الاعتداء على قامة شامخة كنجيب محفوظ صاحب أكبر قلم أدبي على الساحة العربية الآن، والذي كرمه المجتمع الدولي بمنحه جائزة نوبل في الآداب دليل واضح على تعاظم قوة الإرهاب في مصر وزيادة قدرتها؟» .

وجه لي هذا السؤال مقدم برنامج «ساعة الأخبار» بهيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي)، فقلت له: إن العكس هو الصحيح، فصحيح أن التعرض لنجيب محفوظ يمثل فصلا جديدا ومخفيا فرض علينا، لكنه فصل كتب بيد مرتعشة غير واثقة من نفسها .

إن كاتبنا الكبير ليس أول صاحب رأي يتعرض لمحاولة اغتيال، لكن الحالتين السابقتين ضد كل من د. فرج فودة عام 1992 والأستاذ مكرم محمد أحمد عام 1987 كانتا ضد صاحب رأي هو في واقع الأمر خصم سياسي صريح . كان القلم هو السلاح الذي أشهره في وجه التطرف والسلفية والإرهاب .

لقد كان الكاتب الصحفي الكبير مكرم محمد أحمد في طليعة من بادروا بالتصدي للتطرف والإرهاب على صفحات مجلة «المصور»

ودخل مع أصحاب هذا الاتجاه معتركا سياسيا سافرا، وإن اعتداءهم عليه يدخل مباشرة في باب الاغتيالات السياسية .

نفس الشيء يقال عن اغتيال د . فودة الذي كان خصما سياسيا صريحا تصدى للاتجاه السلفي المتخلف، وكان وقت اغتياله قد استكمل جميع إجراءات إنشاء حزب «علماني» جديد يتخذ من مناهضته لهذا الاتجاه برنامجا سياسيا لتحركه .

أما نجيب محفوظ فإن قلمه هو قلم أديب يكتب الرواية، وهو ليس طرفا في معركة سياسية يشهر فيها القلم كسلاح، ولا هو كان يسعى لإقامة حزب سياسي .

إن الاعتداء على نجيب محفوظ ليس اغتيالا سياسيا كالذي عرفه تاريخنا السياسي القديم والحديث، وإنما هو اعتداء من نوع جديد لم نعرفه من قبل .. إنه اعتداء على أكبر قلم أدبي على الساحة العربية في هذا العصر.. هو اعتداء على ضمير أمة بأكملها، استطاع نجيب محفوظ أن يجسده في كل ما سطره قلمه المعتدى عليه من أعمال عظيمة رفعت الأدب العربي الحديث إلى مرتبة العالمية .

إن الاعتداء على نجيب محفوظ هو في الواقع اعتداء على رمز وطني، والاعتداء على الرموز يدخل في باب الخيانة العظمى تماما مثل الإضرار بالأمن القومي أو التنكيل باسم الوطن أو حرق العلم .

لكني مع ذلك قلت للإذاعة البريطانية: إن هذا العمل على جسامته هو دليل على ضعف صاحبه، فقد مضى على اغتيال د . فودة أكثر من عامين لم تتمكن يد الإرهاب الآثم من أن تطول أيّا من الكتّاب والمثقفين، رغم

أن الكثير من هؤلاء كانت أسماؤهم تحتل أعالي قوائم الاغتيالات التي وجدت في أوكارهم السوداء .

ولقد أصبح واضحا في الآونة الأخيرة أن هناك رأيا عاما قاطعا في رفضه للتطرف والإرهاب، بعد أن وجد أن المعركة ليست بين اتجاه سياسي معارض والحكومة الحالية، لكنها بين هذا الاتجاه وكل ما يمثله مجتمعنا الحضاري من مُثل عليا ومبادئ دينية وتقاليد اجتماعية متوارثة وشخصية قومية عرفت بالسماحة والكرم ودماثة الأخلاق والكراهية الشديدة للدماء.

لقد بات واضحا أن التطرف والإرهاب يتخذ من أبناء هذا الشعب المؤمنين الآمنين هدفا له، وهو لا يتوانى عن النيل منهم والتضحية بحياتهم في سبيل الوصول إلى هدفه الإجرامي، كما اتضح في واقعة الاعتداء على رئيس الوزراء التي راحت ضحيتها الطفلة البريئة شيماء أو في حالات الانفجارات التي حدثت بالقللي أو بنفق الهرم، والتي لم يكن حصادها إلا من أبناء هذا الشعب البسطاء .

إن ذلك قد أسهم في عزل أصحاب هذا الاتجاه عن التيار العام الشعبي وقد أصبحوا يشعرون بتلك العزلة المتزايدة؛ مما حدّ كثيرا من قدرتهم على التحرك وسط الجماهير، وقد كان ذلك واضحا أثناء انعقاد مؤتمر السكان الأخير الذي توعده الإرهاب لكنه لم يستطع تنفيذ وعيده .

نضيف إلى ذلك بالطبع التحرك الجديد لجهاز الأمن الذي أخذ الآن زمام المبادرة، وأصبح يبادر بمداهمة أوكار الظلام ولا ينتظر وقوع الجريمة

لكي يتحرك؛ مما أضعف كثيرا من شوكة الإرهاب وزاد من شعوره بالعزلة والحصار .

إزاء هذا المأزق كانت تلك العملية اليائسة التي اختير لها هدف لا ينم عن أية قدرة خارقة في التخطيط ولا أية براعة فائقة في التنفيذ، فنجيب محفوظ هو أسهل الأهداف جميعا، فهو إنسان بسيط بلا حراسة، اختار أن يعيش حياته وسط الناس .. في الشارع والقهوة والكازينو الذي يعقد به ندوته الأسبوعية .. ولو قرع المتهم على باب بيته لدعاه الأستاذ الكبير للدخول ولقام المتهم بالاعتداء عليه كيفما شاء وخرج بلا تخطيط ولا تدبير.

لكن لأن الهدف السهل الذي تم اختياره هذه المرة كان اسمه نجيب محفوظ بما يمثله هذا الاسم من قامة شامخة لمصر والأمة العربية أمام العالم، فإن إصابته بخدش هو خبر يدوّي في جميع أرجاء المعمورة، فيبدو لغير المدقق وكأن اليد التي ارتكبته يد قوية قادرة على التخطيط ودقيقة في التنفيذ، لكنها في الحقيقة يد آثمة مرتاعة تخبّط صاحبها - كما وضح في التحقيق - بين تنفيذ عملية الاختطاف التي كانت مدبرة وقيامه بدلا من ذلك بمحاولة اغتيال فاشلة .

إنها - إذن - يد مجرم زادت عليه وطأة الحصار وشدة العزلة ، فلم يجد أمامه إلا هذا التهور الآثم الذي زاد من عزلته بين الناس ؛ مما سيسهل بدوره من إحكام الحصار المضروب حوله .

الاغتيال الثاني لنجيب محفوظ

لا يمكن أن يوصف ما حدث لأستاذنا الكبير نجيب محفوظ من نشر روايته «**أولاد حارتنا**» دون موافقة منه ولا حتى استئذان إلا بأنه محاولة ثانية لاغتيال هذا الرمز الشامخ للإبداع العربي، فإذا كان الإرهاب الأسود والتطرف قد حاولا اغتيال الرجل بطعنة سكين شاء الله أن يحفظه منها، فإن التسابق الذي حدث بين جريدتي «الأهالي» التابعة لحزب التجمع و«المساء» التابعة لدار التحرير (القومية) من تجاهل تام لجميع حقوق نجيب محفوظ القانونية، بل والإنسانية أيضا، فيه تجرؤ غير مقبول على الكيان المعنوي والنفسي لأستاذنا الكبير.

ولقد شاهدت بنفسي الأستاذ نجيب محفوظ وقد اعتصرت وجهه علامات الأسى، حين علم أن جريدة حزب اليسار التي هاجمته قبلها بأسبوعين فقط واتهمته في صفحتها الأولى بالتطبيع مع إسرائيل ستقوم بنشر روايته «حتى نحمي نجيب محفوظ .. لأننا ندافع عن نجيب محفوظ بنشرنا هذه الرواية الدرة» (!)

وسرعان ما تحول الأسى في اليوم التالي مباشرة إلى شعور قاسٍ بالإحباط، حين علم بأن «المساء» قد أعلنت هي الأخرى أنها ستنشر الرواية «تلبية لرغبة الكاتب الكبير» (!!)

ولن أنسى ما حييت مشهد الرجل وهو يرقد في استسلام على فراشه بالمستشفى يتلقى الدماء التي قررها له الأطباء مرة ثانية بعد أن كان قد تماثل للشفاء .. قطرة قطرة .. وقد شردت عينه في الأفق البعيد، وهو يقول: «لقد استباحوا جميعا أعمالي وأنا مازلت على قيد الحياة» .

ولقد سارعت في نفس اليوم بالاتصال بالدكتور رفعت السعيد الرجل الثاني في حزب التجمع لوجود الأستاذ خالد محيي الدين في ليبيا؛ لأطلعه على الموقف الأخلاقي الذي يحول دون استباحة أعمال مؤلف دون الرجوع إليه بالاستئذان أو حتى بالإخطار، والموقف الإنساني الذي يحول دون تجاهل رغبة الرجل في إرجاء النشر قليلا جتى يتم شفاؤه بإذن الله وتكون قد هدأت العاصفة التي أحاطت بالرواية، بما يضمن أن يتمكن القارئ من قراءتها بموضوعية بعيدا عن التفسيرات التي فرضها علينا البعض .

كما أخبرته بالمخالفة القانونية التي ينطوي عليها النشر؛ بسبب امتلاك «الأهرام» وحده لهذه الحقوق .

كذلك قام الأستاذ ثروت أباظة رئيس اتحاد الكتّاب والدكتور مصطفى كمال حلمي رئيس المجلس الأعلى للصحافة بالاتصال بالدكتور رفعت السعيد وبالأستاذ سمير رجب رئيس مجلس إدارة دار التحرير لنفس الغرض، فأكد لهما الأول أن «الأهالي» لن تنشر، وطلب منهما الثاني ورقة بتوقيع رئيس اتحاد الكتّاب تؤكد رغبة الأستاذ نجيب في عدم النشر، فلما فعل الأستاذ ثروت ذلك وعده رئيس دار التحرير هو الآخر بعدم النشر .

وذهب الأستاذ ثروت أباظة إلى الأستاذ الكبير بالمستشفى وأخبره بأن «الموضوع منته»، وفي اليوم التالي مباشرة قرأ الأستاذ نجيب محفوظ روايته في الجريدتين «دفاعا عن نجيب محفوظ» و«تلبية لرغبة الكاتب الكبير»(!!)

إن ما يهمني هنا ليست الحقوق الأدبية أو المادية للأستاذ نجيب محفوظ، والتي انتهكت، فتلك مسألة قانونية لا جدال فيها، وليست حقوق النشر التابعة لـ«الأهرام» في تصريح بالنشر موقع باسم المؤلف، فـ«الأهرام» مؤسسة كبرى قادرة على رفع الدعوى القضائية التي تضمن حقوقها .

إن ما يهمني هنا في المقام الأول هو تأثير عملية القرصنة الصحفية التي حدثت على الحالة المعنوية والنفسية والصحية للكاتب الكبير وهو لم يبرح مستشفاه بعد، وقد أسر أطباؤه بمثل هذه المخاوف لبعض المقربين للأستاذ الكبير وقد سمعته منهم بنفسي كما سمعه أيضا كل من الكاتبين الأستاذ جمال الغيطاني والأستاذ يوسف القعيد .

أما ما يعنيني في المقام الثاني فهو أن الطريقة التي سرقت بها الرواية بدون علم الأستاذ نجيب محفوظ ونشرت بها قد أحبطت حملة هادئة كان من الممكن أن يكون لها نتائج هامة على حرية الإبداع في مصر، فقد حدثت اتصالات كانت وما زالت في بداياتها مع بعض القيادات الأزهرية لرفع الحظر المفروض على «**أولاد حارتنا**»، والحق أنه كانت هناك بوادر مشجعة في هذا الاتجاه بما جعل أحد المثقفين المشاركين في هذه المحاولة يقول : ستكون تلك أفضل هدية نقدمها لنجيب محفوظ بمناسبة شفائه .

لكـن الصحف ذات التوزيـع المحدود لم تكن لترضـى ذلك، فلو رفع الحظر ما استطاعوا زيادة توزيعهم بنشر «الرواية الممنوعة»؛ لذلك تسابقوا على نشـرها خلسة وبدون اسـتئذان صاحب الشأن، وليبق الحظر بعد ذلك مفروضا لا يهم!!

وبالفعـل ففـي أول اتصـال لنـا مـع القيـادة الأزهريـة بعد نشـر الرواية واسـتكمالا لمحاولتنا السـابقة قـال الرجل : إن حديثنا لـم يعد ذا موضوع وقد أصبحت الرواية على الأرصفة (!!)

إن التاريـخ سـيذكر بكثير من الأسـى أن كاتب مصـر العظيم قد وقعت عليـه محاولتـا اغتيال : الأولـى قدر له الله النجاة منها ولـم تنل من عزيمته شيئا، والثانية كانت اغتيالا معنويا تأثر له الكاتب وأجهضت به محاولة رفع الحظـر عن روايته «**أولاد حارتنا**»، لكن الله الذي حفظ نجيب محفوظ من محاولة اغتياله الأولى سيحفظه من آثار المحاولة الثانية أيضا .

إلغاء نجيب محفوظ من المدارس

اندهش الوزير يسري الجمل وزير التعليم - آنذاك - حين أخبرته أنه تم إلغاء الدرس الخاص بأديبنا الأكبر نجيب محفوظ من مقررات الصف الثالث الثانوي، وقال لي إنه تمت إعادة النظر في مقررات السنوات الدراسية الأولى وفق خطة التطوير الجديدة التي تجريها الوزارة، لكن ذلك التطوير لم يصل بعد إلى المرحلة الثانوية .

وكنت قد عدت إلى مقررات الصف الثالث الثانوي، فلم أجد به الدرس الذي كان يحمل عنوان: «نجيب محفوظ يتذكر»، والذي أرسل إليّ نصه الصديق عبد الله بظاظو من كفر الشيخ متسائلا : كيف يتم إلغاء مثل هذا الدرس في وقت نحن أشد حاجة لتعليم الطلبة ما يمكن أن يشعرهم بالفخر في تراثهم الحضاري الحديث، والذي يجري تشويهه الآن والتهجم عليه في الداخل قبل الخارج؟!

ويعتمد درس «نجيب محفوظ يتذكر» في مادته على ما ورد في كتاب للروائي الكبير جمال الغيطاني، والذي يتعرض فيه لنشأة نجيب محفوظ ودراسته، ثم يتحدث عن ملابسات كتابته لـ «**الثلاثية**» العظيمة التي انتهى منها قبل قيام ثورة يوليو 1952، ويحكي فيها محفوظ تاريخ مصر في

النصـف الأول مـن القرن العشـرين مـن خلال ثلاثـة أجيـال متتالية لنفس العائلـة، وقـد تمت ترجمة «**الثلاثيـة**» إلى أكثر من ثلاثين لغـة، وتعتبر أحد أشهر وأهم أعمال كاتبنا العالمي .

ولقد تضمن الدرس بعض العناوين المهمة مثل : «حزن نجيب محفوظ على عدم نشـر **الثلاثية**»، و«بدء نشرها بعد الثورة بفضل يوسف السباعي»، و«كيف نشأت فكرة تأليف الرواية»، و«الخطأ الكبير الذي وقع فيه محفوظ ولـم يكرره بعد ذلك»، و«تسـعون بالمائة من شـخصيات الثلاثية واقعية»، و«شـخصية أحمـد عاكـف لا تمثل نجيب محفـوظ»، و«صراعـه مع اللغة فـي كتابته للثلاثيـة»، وغيرها من الموضوعات الشـيقة التي لابد تثير خيال الشباب حول نجيب محفوظ وروايته الأشهر .

وأمامـي تحقيق صحفـي أجرته إحدى مجلاتنا بعد رحيـل أديبنا الأكبر في أغسـطس الماضي، تضمن عينة من شـباب الجامعة الذين قالوا جميعا إنهـم لا يعرفـون عن نجيب محفوظ إلا ما شـاهدوه في السـينما، فيما عدا استثناءات قليلة، فهل هذا معقول، ومَن المسئول عن ذلك؟

لا شـك أن المناخ الثقافـي العام الذي انصرف فيه الشـباب عن القراءة مسـئول عن هذا النقص الثقافي الذي جعلهـم لا يقراون أكبر أدباء بلادهم والذي يتحدث عنه العالم أجمع، ولا شـك أن أجهزة إعلامنا أيضا مسئولة والتـي مازالـت رغم كل حديث التطويـر والتحديث في الشـكل تفتقر إلى المضمون الثقافي السليم الذي يغذي ثقافة الشباب العامة ويثري معارفهم، ولا شـك أن التربية بالمنزل أيضا مسـئولة، والتي لا تكتـرث لتعليم الطفل منذ الصغر كيف يحب الكتاب ويتخذه صديقا مدى الحياة، لكنّ المسئولية

الأكبـر تقع فـي المقام الأول على نظام التعليم الذي حدثني الوزير يسـري الجمـل عن خططه الطموح لتطويره، والتي بدأها من حيث يجب أن تكون البدايـة ؛ أي مـن إعـادة تأهيـل المدرس كي يصبـح قادرا علـى تقديم نوع جديـد مـن التعليم يعتمد على تنميـة القدرات الذهنيـة والإبداعية للطالب وليس على تلقينه، ولقد تم بالفعل - حسـبما أخبرني الوزير - إنشـاء مركز جديـد لتدريـب المعلمين في القرية الذكية أكمل فيه الكثير من المدرسـين دوراتهم التدريبية التي تؤهلهم للتعليم الجديد الذي نتطلع إليه .

لذلـك فقد كانت دهشـتي تضارع دهشـة الوزير إزاء هـذا الدرس الذي تـم إلغاؤه من الصف الثالث الثانوي في الوقـت الذي يتم الآن إدخال مثل هذه الموضوعات إلى مقررات المدارس الثانوية في العالـم المتقدم. ولقد دعيـت في الخريف الماضي لحضور مسـابقة أقيمت بيـن مدارس جنوب إيطاليـا يقـوم فيها طلبـة كل مدرسـة بتقديم أحـد أعمال نجيـب محفوظ، وروى لـي السـفير المصري في روما أشـرف راشـد أنه بعـد رحيل نجيب محفوظ الذي ينظرون إليه ككاتب مصري عالمي حاصل على جائزة نوبل، فقـد قررت المنطقة التعليمية لجنـوب إيطاليا أن تطلب إلى طلبة المدارس فيهـا اختيار أحد أعمال الكاتب الراحل لدراسـتها ثم تقديمها بالأسـلوب الـذي تختـاره في حفـل كبير يقام في نهايـة الفصل الدراسـي، وهو الحفل الـذي دعيت لإلقـاء كلمة فيه مع محافظ المنطقة والسـفير المصري وعدد من المسئولين الإيطاليين .

وقـد تضمـن الحفل عـددا متنوعا من الفقـرات الفنية المسـتوحاة كلها من أعمال نجيب محفوظ، فكانت هناك المسـرحية وفيلم الفيديو وعرض

الأزياء والمقطوعة الموسيقية والأشعار، وقال لي مدير المنطقة التعليمية لجنوب إيطاليا : إن الغرض لم يكن تكريم نجيب محفوظ بمناسبة رحيله، فما التكريم الذي يستطيع طلبة الجنوب الإيطالي إضافته لهذا الكاتب الذي نال أرفع الجوائز الأدبية وحقق شهرة عالمية كبيرة؟! إن الغرض كان تعريف الطلبة بأدب نجيب محفوظ استثمارا لزيادة الحديث عنه في الصحف وأجهزة الإعلام بمناسبة رحيله، وتعليمهم كيف ينفتحون على العالم فيقرأون أدبا من ثقافة أخرى غير ثقافتهم ويتمثلون هذه الثقافة في محاولتهم تقديم بعض جوانيها فيما سيقدمونه من عمل فني مستوحي من أعمال أحد كبار أدباء تلك الثقافة ؛ أي أن ذلك كان جزءا من خطة تعليم الشباب وتربيتهم على الانفتاح على الآخر، رغم أن أعمال نجيب محفوظ لم تكن ضمن مقررات المدارس الثانوية الإيطالية .

وإذا كان هذا هو الحال في إيطاليا، فهل يعقل أن نفعل عندنا العكس تماما، ليس فقط بعدم دراسة ثقافة الآخرين، وإنما بإلغاء ما يمكن أن يثري معرفة طلبتنا بثقافتهم؟!

وقلت في حينها : إني أضع أمام الوزير يسري الجمل وزير التعليم في ذلك الوقت تلك التجربة الإيطالية راجيا أن يعكف على تطوير التعليم ؛ بحيث يساير العصر ويسلح الطالب المصري بما يجعله قادرا على التعامل مع القرن الـ 21 الذي بدأ في العالم منذ بضع سنوات، لكننا لم ندخله بعد!

حارة محفوظ في باريس

شاهدت كيف تحول أبناء وبنات الحارة المصرية في خان الخليلي وزقاق المدق ودرب المهابيل إلى شخصيات عالمية معروفة للقراء في مختلف أنحاء العالم! هذا هو الخاطر الذي ظل يلح عليّ طوال الأسبوع الماضي أثناء حضوري الاحتفالية التي أقيمت في فرنسا تكريما لأديبنا الأكبر نجيب محفوظ، والتي شارك فيها القسم الثقافي بسفارتنا في باريس مع جامعة باريس «3» وجامعة مونبلييه ومعهد اللغات الشرقية ومعهد الدراسات الإسلامية ومعهد العالم العربي، والتي قدمت خلالها المحاضرات والندوات حول أدب نجيب محفوظ وأعماله السينمائية .

فخلال هذه الفعاليات كانت شخصيات «سي السيد وكمال عبد الجواد وحميدة والحاج كرشة وعجر الحلاق وغيرهم» هي موضوع النقاش والتحليل من الباحثين والدارسين الفرنسيين، وأيضا من القراء العاديين الذين قرأوا محفوظ في ترجماته الفرنسية، وجاءوا يستمعون إلى المحاضرات التي تتعرض لأعماله الأدبية والفنية، أو يشاهدون فيلما مأخوذا عن رواية من الروايات التي قرأوها وأحبوا شخصياتها .

وقد بدأت الاحتفالية في معهد العالم العربي بباريس ؛ حيث بدأ برنامج عروض محفوظ السينمائية بفيلم «درب المهابيل» الذي كتب له محفوظ

القصة والسيناريو والحوار وقام بإخراجه المخرج الكبير توفيق صالح، وقد قام بالتعليم على الفيلم الناقد السينمائي علي أبو شادي فأدار مناقشة حية شارك فيها عدد غفير من الفرنسيين .

وقد استرعى انتباهي في العروض السينمائية بشكل عام، والتي تضمنت ما يقرب من عشرة أفلام كان من بينها أفلام «**الثلاثية**»، وخاصة «**بين القصرين**» . إن الحضور كان في جزء كبير منه من الجمهور العادي، وكأن هذه العروض عروض تجارية في دار سينما عادية وليست جزءا من احتفالية ثقافية خاصة .

فقد استطاع محفوظ بعمق تصويره لشخصيات رواياته أن يصل إلى مكنونها الإنساني الذي يعلو فوق محليتها الواضحة، فشخصية مثل حميدة في «**زقاق المدق**» هي بلا شك ابنة الحارة المصرية بكل خصائصها، لكن تطلعاتها إلى الحياة الرغدة والصراع النفسي الذي يكتنفها ما بين حبها الحقيقي والحياة التي تتطلع إليها هو خاصية إنسانية تعلو بها فوق محلية الحارة وشخصياتها ؛ لتصبح شخصية إنسانية يمكن أن توجد في أي مكان في العالم .

وهكذا فحين قدمت «**زقاق المدق**» في السينما المكسيكية لم يجد من أعدوا الفيلم ضرورة للإصرار على أن أحداث تلك الرواية تقع في حارة مصرية، بل صوروها بنفس شخصياتها على أنها تقع في أحد الأحياء الشعبية في المكسيك، ولم يكن في ذلك أي غرابة فقد تقبل الجمهور في المكسيك شخصيات محفوظ بشكل طبيعي، ومن بينهم شخصية حميدة التي قامت بدورها الممثلة العالمية سلمى حايك .

وفي معهد الدراسات الإسلامية كان اللقاء الذي أداره الدكتور بطرس حلاق من جامعة باريس «3» وتحدث فيه لوك دوفيليز المستعرب الفرنسي الكبير صاحب المؤلفات الكثيرة في الأدب العربي الحديث، والناقد المصري الكبير الدكتور صلاح فضل وكاتب هذه السطور، وقد تحدث دوفيليز عن «شعرية الأماكن في روايات محفوظ من **الثلاثية** إلى **أولاد حارتنا**»، وتحدث الدكتور صلاح فضل عن جانب غير مطروق في إنتاج محفوظ الأدبي وهو استخدامه للأساطير الشرقية، أما كاتب هذه السطور فقد تحدث عن رحلة محفوظ مع الرواية العربية وكيف استطاع أن يحول الفن الروائي إلى ديوان العرب بعد أن كان هذا الوصف قاصرا على الشعر من دون الأجناس الأدبية الأخرى .

وفي معهد اللغات الشرقية تحدث الروائي المصري الكبير جمال الغيطاني عن «قاهرة نجيب محفوظ» التي يعرفها جيدا وعرض فيلما اصطحب فيه محفوظ إلى الأماكن التي تقع فيها أحداث رواياته فألهب بذلك خيال الحضور بعرضه الشيق للقاهرة القديمة، وبحديثه عن قدرة محفوظ على تحويل هذه الأماكن إلى مواقع نابضة بالحياة في رواياته، كما تحدثت ماري فرانسيس سعد التي ترجمت العديد من المجموعات القصصية لمحفوظ وركزت على الأديب الراحل ككاتب للقصة القصيرة، كما تحدثت أيضا الدكتورة عايدة عبد العزيز الأستاذة بالجامعة عن تأثير فرنسا في أدب نجيب محفوظ، واتخذت زاوية جديدة؛ حيث قارنت بين معمار البيت في «**الثلاثية**» وفي أعمال راسين .

أما المركز الثقافي المصري بشارع سان ميشيل، فقد شهد معرضا فنيا للوحات التي رسمها الفنان الكبير جمال قطب كأغلفة لكتب نجيب محفوظ، وقامت بالتعليق عليه الدكتورة عايدة عبد العزيز مبينة البعد

الدرامي في هذه اللوحات، والذي استوحاه الفنان من العمل الآدبي نفسه، وعلقت الفنانة التشكيلية نازلي مدكور على اللوحات فلفتت النظر إلى ألوانها الساخنة التي تشبه ألوان الملصقات السينمائية، وقالت إنه في تلك السنوات لم تكن الإعلانات التجارية للكتب منتشرة ؛ لذلك كان الغلاف هو الذي يعلن عن الكتاب، وهكذا جاءت ألوانه ساخنة ؛ لأن جزءا من مهمتها كان أن تشد انتباه القارئ لمثل تلك الملصقات التي في الشوارع .

وفي المعهد أيضا أدار الدكتور أحمد يوسف لقاء موسعا عن «محفوظ والرقابة» شارك فيه الدكتور صلاح فضل وجمال الغيطاني وكاتب هذه السطور؛ حيث جرى الحديث عن علاقة محفوظ بالرقابة سواء بوصفه رقيبا على المصنفات الفنية في عام 1959 أو بوصفه كاتبا تعرض للرقابة في أعماله الأدبية. وقد تطرق الحديث بالضرورة إلى علاقة محفوظ بالسياسة، وقدم الدكتور صلاح فضل نظرية مهمة عن كيفية تعامل محفوظ مع الممنوعات الثلاثة : الدين والسياسة والجنس، بطريقة خاصة تسمح له بالمرور من الرقابة والوصول إلى الجمهور والتأثير على تغيير النظرة النمطية لهذه الممنوعات في عقول القراء .

كما قدم المشاركون المصريون شهادتهم للجمهور الفرنسي عن محفوظ، والمستوحاة من علاقاتهم الشخصية مع الأديب الراحل على مدى السنوات .

والحقيقة أن هذه الاحتفالية كانت من أنجح الأنشطة الثقافية التي أشرف عليها القسم الثقافي بالسفارة المصرية في فرنسا خلال السنوات القليلة الماضية، وقد خرجت الاحتفالية بهذا الشكل المشرف، والذي جعل الجمهور الفرنسي يُقبل عليها قبل الجمهور المصري والعربي، وتلك خاصية نادرة في أنشطة بعثاتنا الثقافية في الخارج .

عيد محفوظ .. والفرصة الضائعة

في معركتنا الحالية ضد ما أصاب صورتنا العربية والإسلامية في العالم من تشوهات لم يسبق لها مثيل، قدم لنا أديبنا الأكبر نجيب محفوظ مناسبة فريدة في عيد ميلاده التسعين، كان يمكن أن نعمل من خلالها على إعادة البريق إلى تلك الصورة، لكننا للأسف - ولأسباب غير معروفة - تجاهلنا هذه المناسبة، فمرت علينا مر الكرام كما مرت من قبلها عبر تاريخنا مئات الفرص الأخرى الضائعة .. إن احتفالا قوميا كبيرا بالعيد التسعين لأحد كبار أعلامنا المشهود لهم دوليا لم يكن سيضيف إلى شخص محفوظ شيئا في سنة المتقدمة هذه، والذي لا يبغي فيها غير الراحة، فقد كرمه العالم بأسره بأكثر مما نستطيع تكريمه محليا، لكن هذه المناسبة كان يمكن أن تفيد مصر والعالم العربي والإسلامي كثيرا في المعركة الضارية التي هي من أهم المعارك في تاريخنا، والتي تعوزنا فيها الأسلحة الإعلامية الفعالة.

فإذا كان ما نعانيه الآن في العالم العربي والإسلامي هو ذلك التصور المغلوط بأننا قوم متخلفون لا يعرفون إلا العنف والدماء وسيلة للتعبير عن أنفسهم، وأن الحضارة الغربية أكثر رقيا من الحضارة الإسلامية،

وأننا لا نعرف المدنية ولا ثقافة لنا، إلى أخر ما تطالعنا به وسائل الإعلام الأجنبية من اتهامات للعرب والمسلمين، فإن الجديد في الموضوع هو أن هذه الصورة السلبية لم تعد مقصورة على وسائل الإعلام وحدها كما تعودنا ؛ وذلك بسبب سيطرة النفوذ الصهيوني على معظمها في الدول الغربية، وإنما اتسع نطاقها لتصبح فكرة سائدة لدى معظم قطاعات الرأي العام العالمي .

كما أن هذه الصورة المشوهة لم تعد مقصورة على الدول الغربية وحدها، وإنما اتسع مداها لتصل إلى دول كثيرة أخرى في العالم الثالث، خاصة في إفريقيا التي شهدت بعض دولها أخيرا صدامات ضد المسلمين فيها .

وإزاء هذا التدهور الذي لحق بصورتنا الجماهيرية في العالم، ماذا بذلنا من جهد وفي أي اتجاه؟

الحقيقة المؤسفة هي أننا لم نبذل الكثير، فقد اكتفينا بالرد في أجهزتنا الإعلامية التي لا يقرؤها ولا يشاهدها غيرنا على بعض مظاهر هذه الحملة فأبرأنا ذمتنا، وانتهى الأمر عند هذا الحد .

ولقد كان العيد التسعون لميلاد أديبنا العالمي نجيب محفوظ يمثل مناسبة فريدة لإظهار صورتنا أمام العالم بمظهر مختلف تماما عما تروجه الآن وسائل الإعلام الدولية، فها هو أديب عربي مسلم كرمه العالم كله واعترف بمكانته المتفردة يبلغ التسعين من عمره فيضيف إلى ما منحه لنا من عطاء فرصة مواتية ؛ لكي نقول للعالم بإبرازنا لهذه المناسبة : نحن الحضارة والأدب والثقافة .

فقد كنت أتصور مثلا أن تعم مصر الاحتفالات بالعيد التسعيني لواحد من أهم أعلامها الثقافية المشهود لهم في العالم، وذلك بأن يوضع له على سبيل المثال تمثال بأحد الميادين العامة، والتي مازال الكثير منها خاويا إلا من بعض مظاهر القبح التي زحفت على حياتنا في السنوات الأخيرة، وأن يتم ذلك في احتفال كبير ترفع فيه الأعلام وتعزف فيه الموسيقى ويدعى إليه ممثلو وكالات الأنباء والصحافة العالمية والسفراء الأجانب باعتباره مناسبة قومية وعالمية بارزة، فكم في العالم من حاملي جائزة نوبل مازالوا على قيد الحياة ؟! إنهم لا يتعدون عدد أصابع اليدين، وكم منهم وصل إلى سن التسعين؟! إنه واحد فقط .. وهو عربي مسلم وبلده مصر.. فكيف احتفلت مصر بذلك ؟! وهل نجحوا في استغلال هذه المناسبة بما يفيد قضيتنا؟!

كنت أتصور أن يتم في هذه المناسبة أيضا وضع لافتات على كل الأماكن التي ارتبطت باسم أديبنا الأكبر سواء تلك التي تعود الأديب على ارتيادها مثل المقاهي والأماكن العامة، أو الأماكن الأخرى التي خلدها في أعماله خاصة في أحياء القاهرة القديمة، مثل : «**زقاق المدق**»، و«**السكرية**»، و«**قصر الشوق**» وغيرها، وأن يقال هنا كان يجلس نجيب محفوظ، وأن تعتبر مثل هذه الأماكن آثارا، كما يحدث في العالم «المتحضر» لا يجوز هدمها أو العبث بمعمارها، وذلك قبل أن تندثر ولا يعود لها وجود كما اندثر بيت أم كلثوم وقام مكانه أحد الأبراج القبيحة التي تخترق سماءنا كالسهام الجارحة .

قد لا يعرف البعض أن الكثير من الأماكن «المحفوظية» قد هدمت بالفعل ولم يعد لها وجود، فالمنزل الذي ولد به أديب العربية الأكبر

بميدان بيت القاضي بحي الجمالية لم يعد له وجود، وقهوة قشتمر التي خلدها في آخر رواية كتبها، والتي تحمل اسم هذه القهوة لم يعد لها وجود هي الأخرى .

هذا بالنسبة للقاهرة، فماذا عن الإسكندرية ؟ والتي كان أديبنا الأكبر يمضي فيها الصيف كل سنة، والتي له فيها آثار مازال بعضها قائما مثل المقاهي التي كانت فيها جلسته المفضلة مع توفيق الحكيم وثروت أباظة وغيرهما من الأدباء والمثقفين .

وكنت أتصور أن تجري هذه الاحتفالات بالتزامن ما بين القاهرة والإسكندرية على مدى شهر ديسمبر كله، وهو الشهر الذي ولد في اليوم الـ 11 منه نجيب محفوظ عبد العزيز الباشا، بحي الجمالية، بعد ولادة متعثرة لولا جهود طبيب توليد شاب تم استدعاؤه على عجل كان اسمه نجيب محفوظ «الدكتور نجيب محفوظ باشا فيما بعد»، وأن تمتد الاحتفالات بعد ذلك إلى بقية أنحاء البلاد لتذكر العالم كله بأننا بلاد الأدب والثقافة في حملة إعلامية بعيدة الأثر .

إن الإعلام الحقيقي الذي يؤثر في النفوس هو الإعلام غير المباشر وليس الإعلام الفج الموجه، وهو ما فهمه أعداؤنا وبرعوا فيه حتى استحوذوا على الضمير العالمي على مدى السنين بالأفلام السينمائية والكتب الأدبية، وغيرها من الأعمال الفنية التي تخدم قضيتهم بشكل غير محسوس لترسخ في نفوس الناس أنهم أصحاب حق، وأنهم الجانب المظلوم الساعي دائما إلى السلام، وأنهم واحة الحضارة والتمدين وسط محيط من التخلف والانحطاط!

أما نحن فقد اعتمدنا على البيانات الرسمية التي يبثها إعلامنا الموجه الذي لا يملك مقومات الجذب الجماهيري للمشاهدين في العالم ولا المصداقية اللازمة، وحين جاءتنا فرصة فريدة كان اهتمام العالم بها مضمونا، لم نحسن استخدامها، بينما وجدنا دولا أخرى تقيم لها الاحتفالات بدلا منا .

لقد عدت أخيرا من رحلة إلى هولندا للمشاركة في مهرجان كبير أقيم في أمستردام بعنوان : «سينما نجيب محفوظ» استمر طوال 10 أيام بمناسبة عيد ميلاد الأديب العالمي الكبير، وعرضت فيه أهم الأفلام المأخوذة عن أعمال محفوظ الأدبية، بعضها مصري والبعض الآخر أجنبي، كما عرضت أيضا بعض الأفلام التسجيلية عن أديبنا الكبير، وأقيمت الندوات التي شارك فيها بعض أساتذة الجامعات المتخصصين في الأدب العربي وبعض مَنْ ترجموا أعمال محفوظ الروائية .

وفي ألمانيا أقام بيت الآداب بمدينة شتوتجارت أمسية ثقافية فنية بمناسبة العيد التسعين للأديب المصري العالمي نجيب محفوظ، حضرها عدد كبير من المثقفين والشخصيات العامة، وقد تضمنت الأمسية ندوة حول أدب محفوظ شارك فيها بعض مَن قدموا أعمال محفوظ إلى اللغة الألمانية، وكان بها أيضا بعض الفقرات الموسيقية، بينما قدمت الأكاديمية المصرية في العاصمة الإيطالية روما محاضرة عن مسيرة نجيب محفوظ شرفت بإلقائها على جمع غفير كانت الغالبية فيه من الإيطاليين المهتمين بالثقافة العربية .

أمـا هنا في مصـر، ففي غيبة الاحتفال الرسـمي الكبير، انتظرت مثلا أن يقدم التليفزيون احتفالا خاصا بهذه المناسـبة أو حتى أن يعرض أحد أفلام نجيب محفوظ في سـهرته، فلم أجد هذا ولا ذاك .. فقط وردت فقرة بأحد البرامـج عن الاحتفـال الذي أقامتـه الجامعـة الأمريكية بالقاهرة بمناسـبة عيـد ميلاد محفـوظ، والذي أصدرت فيه بهذه المناسـبة الأعمـال الكاملة لمحفـوظ باللغة الإنجليزية، لكن احتفال التليفزيون نفسـه بهذه المناسـبة لـم يكـن له وجود، بينمـا كنت أتصور أنه لـن يجد مناسـبة أفضل من ذلك للوصول بها إلى الجماهير التي يتصور أنها تتابع في شغف قنواته الفضائية العرجاء .

فهـل هـذا معقـول ؟! .. هل يمكن أن تمـر هذه المناسـبة التي لا تتكرر كثيرا بهذه الطريقة؟! .. وإذا لم نحتفل بالعيد التسعيني لأحد أكبر أعلامنا، والذي رفع اسـم بلادنا عاليا في العالـم أجمع، فبماذا نحتفل؟ .. هل بعيده المائة حين نبدأ فجأة ذكر محاسن عظمائنا؟!!

إن محفـوظ الزاهـد دائمـا فـي مظاهـر الحياة لم يخسـر شـيئا من عدم الاحتفـال بـه بالشـكل اللائق .. لكن القضيـة العربية خسـرت فرصة نادرة لكـي تثبـت للعالم زيف ما يتـم ترويجه عن العرب والمسـلمين في العالم ولتأكيد أننا أيضا صناع للحضارة والأدب والثقافة .

وكل عام وأنتم بخير ..

إيجار المحلات

اليوم ليس كغيره من الأيام، فاليوم سيزاح الستار عن تمثال أديبنا الأكبر نجيب محفوظ في أكبر ميادين محافظة الجيزة الذي كان يحمل اسما أجنبيا هو سفنكس، لكنه من اليوم سيحمل اسم ميدان نجيب محفوظ نسبة لهذا الأديب الفذ الذي رفع اسم الأدب العربي الحديث إلى أعلى الدرجات العالمية، ولا تعود أهمية هذا اليوم فقط لما يمثله أديبنا الأكبر في حياة الأمة العربية جمعاء، وإنما أيضا لما يمثله هذا الحدث الفريد باعتباره أول مرة يوضع فيها تمثال لأديب وليس لزعيم سياسي في ميدان عام، وربما كانت تلك صحوة جديدة طال انتظارها لتخليد عظمائنا ولجعل إنجازهم محط الأنظار سواء كانوا من الزعماء السياسيين أو القادة العسكريين أو الأدباء والشعراء، فهؤلاء جميعا هم رموز الأمة وقمم جبالها .. وباستثناء تمثال عبد المنعم رياض الذي أقامته محافظة القاهرة لم تشهد مصر تماثيل لعظمائها في الميادين العامة منذ أقامت الثورة تمثال طلعت حرب في الميدان الذي سمي باسمه قبل حوالي نصف قرن من الزمان. ولقد عمدت محافظة الجيزة لتأكيد هذا الحدث كتقليد راسخ وليس كحادث عرضي، بأن اتبعت نفس النهج مع عميد الأدب العربي طه حسين الذي يحتفل اليوم

أيضا بوضع تمثاله في ميدان الجلاء، وكذلك أمير الشعراء أحمد شوقي الذي أقيم تمثاله أمام حديقة الأورمان .

فمع صباح هذا اليوم يشرق وجه أديب نوبل الأكبر نجيب محفوظ وترتفع قامة تمثاله شامخة في سماء مصر، ذلك البلد الذي خرج محفوظ من أزقته وحواريه فأحبها بلا ضجيج، وخلد الحياة في أحيائها في كل كلمة خطتها يده منذ أواسط الثلاثينيات من القرن الماضي وحتى يومنا هذا .

فلم يتيسر لأي من أدبائنا أن تمتد فترة إنتاجه الأدبي بمثل ما امتدت فترة إنتاج نجيب محفوظ، الذي عاصر أهم أحداث تاريخنا الحديث طوال الجزء الأكبر من القرن العشرين، من ثورة 1919 والكفاح ضد الإنجليز، إلى ثورة يوليو والتحول الاجتماعي الذي أحدثته، إلى مرحلة الانفتاح وما صاحبها من تغيرات وحتى حرب أكتوبر 1973 .

في كل تلك الأحداث الوطنية الكبرى كان نجيب محفوظ دائما وسط الجماهير يشعر بآلامها وبآمالها، بانتصاراتها وانكساراتها، ثم يعبر عن كل ذلك ليس ليس كمراقب حيادي، وإنما كمواطن منشغل بقضايا وطنه .

ولم يكتف محفوظ بذلك فحصل للأدب العربي ولأول مرة على أرفع وسام في العالم، ومازلت أذكر كلماته وهو يطلب مني وأنا في طريقي إلى السويد ممثلا شخصيا له في احتفالات نوبل أن أقرأ كلمته في تسلم الجائزة بالعربية أولا قبل أن أقرأ ترجمتي لها بالإنجليزية، حيث قال لي : «أعرف أنه لن يكون هناك الكثيرون ممن يفهمون العربية، لكن هذه الجائزة هي في الحقيقة تكريم للأدب العربي وليست تكريما لشخصي فقط، وقد آن الأوان أن يسمع جرس اللغة العربية داخل جدران الأكاديمية السويدية

العتيقة» . لكن رغم كل ما حققه نجيب محفوظ لبلاده فإننا لم نكرمه بما يتفق مع مكانته المرموقة التي رفعنا معه إليها، صحيح أن الشارع الجانبي الذي يقع منزله على ناصيته سمي باسمه، لكن هذا كل ما في الأمر، وكأننا كنا نضن عليه بالتكريم أثناء حياته، بينما لم يضن هو علينا بشيء .

ولقد كتبت في هذا المكان مثل هذا الكلام في ديسمبر 2001 حين بلغ محفوظ التسعين، فقلت : إن تلك مناسبة قومية كبرى يجب أن تعم فيها البلاد الاحتفالات، وإننا بذلك يمكن أن نرد بطريقة فاعلة وإن كانت غير مباشرة على كل ما نتعرض له في العالم من اتهامات بالتخلف وما تعانيه صورتنا في الخارج من تشوهات، فها هو لدينا كاتب مرموق حصل على أرفع درجات التقدير في العالم، وقد بلغ الآن التسعين، فهل لديكم كثيرون مثله؟!

وقلت: إن أقل ما يمكن أن نفعله هو أن نقيم له تمثالا في مكان عام لكي يراه القاصي والداني، فيعرف الجميع مَن نكون وما وصلنا إليه من تقدم وحضارة شهدت لها أكبر المحافل الثقافية الدولية . وقد كان لهذا المقال ردود فعل واسعة لكنني أسترجع اليوم اثنين منها، رد فعل محافظ الجيزة - حينئذٍ - المستشار محمود أبو الليل، ورد فعل نجيب محفوظ نفسه، فقد بادر المحافظ بالاتصال بي قائلا إنه موافق على كل ما ذهبت إليه في شأن نجيب محفوظ، مؤكدا أن مصر بارة دائما بأبنائها، فما بالنا بمن رفعوا رايتها خفاقة في العلا، وقال لي المحافظ إنه أصدر تعليماته بالفعل لدراسة مسألة إقامة تمثال نجيب محفوظ اتفاقا مع ما ذهبت إليه في مقالي واتساقا مع خطته؛ لإعادة تجميل محافظة الجيزة التي يقيم فيها أديبنا الأكبر .

أما رد فعل نجيب محفوظ فكان على العكس من ذلك؛ حيث قال لي بطريقته المتواضعة البسيطة، والتي يعرفها عنه المقربون منه : «ولزومه إيه؟ ما أنا اتكرمت كفاية، مافيش داعي للتمثال!»، فقلت له : «التمثال ليس لك يا أستاذ نجيب، لكنه لمصر، فنحن الذين نحتاج إلى تمثالك أكثر مما تحتاجه أنت، كما نحتاج إلى أدبك ومكانتك المرموقة، ذلك هو زادنا وسلاحنا في عصر العولمة هذا الذي نعيشه، والذي يفقد فيه مكانته كل من لا يستطيع أن يؤكد هويته»، قال لي : «ماشي، بس بلاش موضوع التمثال ده!» .

وحين أراد المحافظ زيارة نجيب محفوظ تحرج الأستاذ لهذه الزيارة وقال لي : «أخشى أن يفهم من الزيارة أنني موافق على حكاية التمثال هذا»، ثم سألني : «ألا يمكن الرجوع في هذا الموضوع؟»، فأوضحت له أن قرار المحافظ قد صدر وأنه لاقى استحسان الجميع، وقد تشكلت لجنة اختارت بالفعل الموقع والفنان الذي سيقوم بعمل التمثال .

ولقد تصادف أنه زارني بمكتبي في ذلك الوقت ممثل لشركة كورية للمياه الغازية ليحدثني في شأن إقامة تمثال لوجه الأستاذ نجيب محفوظ سينفذه فنانون كوريون في مدينة 6 أكتوبر أمام جامعة مصر، وقال لي زائري: إن الشركة ستقيم جبلا صناعيا من مادة البوليستر المكونة من الألياف الصناعية، وعلى الجبل سيتم نحت وجه الرئيس أنور السادات والدكتور أحمد زويل ونجيب محفوظ باعتبارهم جميعا من الفائزين بجائزة نوبل، وقال لي: إن وجه الرئيس حسني مبارك سيوضع معهم أيضا .

والحقيقة أن تلك الفكرة بدت لي تقليدا ممسوخا لوجوه الرؤساء الأمريكيين الأربعة الشهيرة المنحوتة في جبل راشمور بولاية داكوتا

الجنوبيـة في الولايـات المتحدة، وهم: جورج واشـنطن وأبراهام لنكولن وتوماس جفرسـون وفرانكلين روزفيلت، وهو أثر أمريكي له جلاله ومزار سـياحي ذو جاذبية؛ لأنه منحوت في جبل حقيقي، وقد اسـتغرق عمله 14 عامـا لضخامة حجمه، أما فكرة الكوريين فكانت نسـخة بلاسـتيكية تفتقر إلى الأصالة لما بها من دعاية لشركة المياه الغازية الكورية .

وقـد اطلعت بعد ذلك علـى ما نفذته بالفعل الشـركة الكورية في مدينة 6 أكتوبـر، والذي وافقت عليـه وزارة التعميـر (!!)، وجدت ملامح وجوه عظمائنا الأربعة تؤكد أن لهم جميعا أصولا كورية (!!) .

ولقـد عرضـت الفكرة آنـذاك على الأسـتاذ نجيب محفـوظ برغم عدم اقتناعـي بهـا، وقلت لـه : «إذا كانت شـركات المياه الغازيـة الكورية تدرك مكانتـك، فهل تسـتكثر على أهل بلدك أنفسـهم الاحتفاء بـك، كما احتفى بك العالم؟!»، فقال لي معاتبا : «أديك فتحت علينا فتوحه ما كنا كويسين، تسعين سنة النهاردة ولاحد اقترح حكاية التمثال دي!» .

أمـا الفنـان المصري الذي أبـدع تمثال أديبنـا الأكبر، والـذي يزاح عنه الستار صباح اليوم في ميدان نجيب محفوظ «سفنكس سابقا»، فهو الدكتور السـيد عبده سليم، وقد استطاع أن يجسد روح الأستاذ وليس فقط ملامحه الجسـدية، فالفنان السيد عبده سليم فنان موهوب من قرية أبشان بمحافظة كفر الشيخ، ارتبط ببلدته برغم سفرياته الفنية إلى الخارج فأقام فيها مسبكه الـذي صب فيـه تمثال نجيب محفوظ مـن البرونز الخالـص بارتفاع أربعة أمتار ووزنه طن ونصف طن .

أما تصميم قاعدة التمثال، والتي عهد بها إلى الفنان الشاب أكرم المجدوب، فهي قطعة فنية قائمة بذاتها، وقد تم إعادة تخطيط حرم التمثال على خطوطها الدائرية نفسها، التي تذكرنا بالمآذن الحلزونية في العمارة الإسلامية .

ولقد طلبت مني محافظة الجيزة اقتراح عبارة تنقش على قاعدة التمثال فاخترت كلمات نجيب محفوظ في وصف نفسه في خطابه في احتفالات نوبل، حين قال : «أنا ابن حضارتين تزاوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا، أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونية، والثانية هي الحضارة الإسلامية .. قدر لي يا سادة أن أولد في حضن هاتين الحضارتين، وأن أرضع لبنهما وأتغذى على آدابهما وفنونهما، ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة» .

ولقد عرضت هذه الفقرة من خطاب نوبل على الأستاذ نجيب وسألته إن كانت مناسبة، فاستمع إليها بالكامل وحين فرغت من قراءتها قال لي وكأنه يريد أن يسوي مسألة معلقة «التمثال ده بتاعك، اكتب عليه اللي تشوفه، إن شاالله تكتب عليه اسمك!!»، ومن يومها وهو لا يشير إلى التمثال إلا بعبارة «التمثال بتاعك»، فيقول لي مثلا : «شوفت صورة التمثال بتاعك النهاردة في الجرنال» فأرد عليه : «أنا كمان شفته ولاقيته يشبهك»، أما ميدان سفنكس الفسيح الذي أصبح اسمه الآن ميدان نجيب محفوظ ، فقد طلب مني الأستاذ أن أسأل المحافظ إن كان في ذلك إقرار رسمي بملكيته لهذا الميدان الكبير، فسألته : «وماذا ستفعل بالميدان؟»، فقال ضاحكا : «طالما هناك في الميدان لافتة تقول ميدان نجيب محفوظ، فمن حقي أن آخذ الإيجار من كل مَن لهم فيه محلات»!!!

الوكيل الأدبي

لست أعرف أديبا مصريا غير الأستاذ الكبير نجيب محفوظ لديه وكيل أدبي يتولى عنه مهمة التعامل مع الناشرين والتفاوض نيابة عنه في كل ما يختص بالنشر .. فالوكالة الفنية الوحيدة المعروفة عندنا هي ما يقوم به متعهدو الأفراح والحفلات الخاصة الذين يتولون الاتفاق مع المطربين أو الراقصين نظير مبلغ محدد أو نسبة متفق عليها مع صاحب الحفل، وربما كان أشهر هؤلاء هو عرابي وكيل الفنانين الذي مارس هذه المهنة قرابة الأربعين عاما، أما في الخارج فالناشرون وأصحاب الفرق المسرحية وشركات الإنتاج السينمائي إذا أرادت الاتفاق مع كاتب من الكتّاب، فهي لا تسأل عن عنوانه أو عن رقم تليفونه، وإنما عن وكيله الأدبي .

إن الوكيل الأدبي، والذي يعرف في الخارج باسم Literary Agent، يعتبر أحد أهم معالم الحياة الأدبية السليمة، فوجوده هو الذي يسمح للكاتب بأن يكرس وقته للكتابة وحدها، ثم تكون مهمة الوكيل بعد ذلك أن يبحث له عن الناشر المناسب ويتفاوض معه على أفضل أجر ممكن، أو أن يبحث عن الفرقة المسرحية إن كان ما كتبه الأديب مسرحا، ويتفاوض معها أيضا على الأجر وجميع بنود العقد الذي يوقعه الكاتب .

والوكيل عادة ما يكون مكتبا متكاملا لديه المستشارون القانونيون وغيرهم وليس فردا واحدا ، وعادة ما يكون وكيلا لأكثر من كاتب وليس وكيلا لكاتب واحد، أما عمولته فهي عادة 10٪ من الأجر الذي يأتي به للكاتب وهو أجر زهيد إذا حسبنا الوقت الذي يضيعه الكاتب عندنا والجهد الذي يبذله؛ لكي يصل كتابه في النهاية إلى المطبعة أو تصل مسرحيته إلى الجمهور .

وقد يتحول الوكيل الأدبي في الخارج إلى شبه أسطورة وهو في بعض الأحيان ينافس الكتّاب في شهرتهم، ومن بين تلك الأساطير مارجريت رامزي التي تعتبر أشهر وكيلة أدبية للكتّاب المسرحيين في بريطانيا، فإذا بحثت عن قاسم مشترك بين أكبر كتّاب المسرح البريطانيين بمختلف اتجاهاتهم وتفاوت أجيالهم من: جون مورتيمر وروبرت بولت وديفيد هير إلى كاريل تشرتشل وجو أورتون وآلان إكبورن، ستجد أن وكيلتهم جميعا هي مارجريت رامزي التي كانوا ينادونها جميعا باسم بيجي Peggy.

والحقيقة أن مارجريت رامزي لم تكن مجرد وكيل أدبي لهؤلاء الكتّاب الكبار، وإنما كانت بمثابة الوالدة بالنسبة لهم والمعلمة والناقدة التي لا تلين. ومن الحكايات الشهيرة في هذا المجال ما حدث بينها وبين الكاتب المعروف روبرت بولت، والذي ظلت بيجي لسنوات تحارب ضد ما رأت أنه نزعة تجارية سيطرت على كتاباته بعد أن كتب قصة الفيلمين السينمائيين الشهيرين «لورنس العرب» و«رجل لكل العصور»، اللذين أخرجهما ديفيد لين لهوليوود، واللذين نال بولت عن كل منهما جائزة أوسكار .

لكن المسرح عند مارجريت رامزي كان محرابا مقدسا يختلف عما تقدمه هوليوود في أفلامها التجارية؛ لذلك فقد اصطدمت بيجي بروبرت

بولت وهاجمته بشدة، ووصل حد الخلاف بينهما إلى أن قالت له في حدة: إني أبصق على أوسكاريك!!

لكن بولت بعكس بقية الكتّاب البريطانيين لم يرضخ لمحاولات مارجريت رامزي أن تجعله يركز جهده على ذلك المحراب المقدس الذي هو خشبة المسرح، فبعد أن كان يحوّل مسرحياته الناجحة إلى سيناريوهات سينمائية كما فعل مع «رجل لكل العصور» التي كتبها عام 1960 فوضعته على الفور في مصاف كبار الكتّاب المسرحيين في لندن، ترك بولت المسرح وصار يؤلف السيناريوهات خصيصا لهوليوود مثل: فيلم «دكتور جيفاجو» عام 1965، «وابنة رايان» عام 1970، و«الليدي كارولاين لام» عام 1972، والذي قام بولت نفسه بإخراجه، ثم مالبث أن اتجه بولت بعد ذلك إلى الإخراج السينمائي أيضا فأخرج فيلم «باونتي» عام 1984، و«المهمة» عام 1986 .

ولقد كان لمارجريت رامزي مقولة شهيرة كانت دائما ما تقولها لكتّاب المسرح الذين كانت وكيلتهم، وهي أن الكاتب المسرحي لا يكتب من أجل أن يحصل على المال أو الشهرة، وإنما من أجل أن يصقل موهبته حتى يتمكن من مخاطبة ضمائر الناس .

على أن أشهر وكيلة أدبية لكتّاب المسرح البريطاني لم تبدأ عملها هذا إلا وهي في سن الـ 45؛ حيث بدأت حياتها العملية قبل ذلك كممثلة مسرحية، ثم تحولت إلى الإنتاج، ثم أسست مكتبها الشهير كوكيلة لكتّاب المسرح في شارع جودوين كوت بقلب لندن في الخمسينيات، حين كان المسرح البريطاني في بداية نهضة جديدة على أيدي جيل جديد تماما من الكتّاب،

كان أشهرهم جون آوزبورن الذي اعتبرت مسرحيته الشهيرة «انظر وراءك في غضب» هي فاتحة مرحلة جديدة في تاريخ المسرح البريطاني.

ومن الغريب أنه في نفس الوقت كان المسرح المصري أيضا يبدأ مرحلة جديدة في تطوره، بل وفي نفس العام أيضا على أيدي المسرحي المصري الراحل نعمان عاشور، فعام 1959 الذي شهد مسرحية «انظر وراءك في غضب» في لندن هو الذي شهد مسرحية «الناس اللي تحت» في القاهرة معلنة قيام مسرح واقعي جديد.

وبينما كان وراء أوزبورن وكيل أدبي هو الذي دفع بمسرحيته إلى المسرح، فإن نعمان عاشور هو الذي اتفق بنفسه مع فرقة المسرح الحر، والتي كانت تبحث في ذلك الوقت عن الكتّاب الجدد .

على أن أوزبورن كان من الكتّاب المسرحيين القلائل في بريطانيا الذين أفتلوا من قبضة مارجريت رامزي الحديدية، ذلك أنه حين بدأت بيجي عملها كوكيلة أدبية كان أوزبورن له وكيل بالفعل، وبعد الشهرة التي حققها من مسرحيته الأولى لم يكن بحاجة لخدمات الوكيلة الكبيرة التي كانت تتطلب قدرا من الطاعة لتوجيهاتها .

ولقد توفيت مارجريت رامزي عام 1991 بعد أن أصيبت بمرضين لا شفاء منهما هما السرطان ومرض الزهايمز، فتركت وراءها ثروة هائلة لا يدانيها إلا الثراء الأدبي الذي أحدثته في المسرح البريطاني الحديث .

وأذكر أنني شاهدت منذ سنوات فيلما بريطانيا عن حياة الكاتب المسرحي البريطاني غريب الأطوار جو أورتون، قامت فيه ممثلة بريطانيا

الكبيرة فانيسا ردجريف بشخصية مارجريت رامزي التي كانت وكيلة أورتون، وأسهمت كثيرا في شهرته الذائعة، والتي انتهت فجأة عام 1967 حين قتله صديقه الذي كان يقيم معه منذ سنوات ثم انتحر !

وهذا العام صدر كتاب عن حياة مارجريت رامزي يحمل عنوان: «بيجي» ويضم في طياته تاريخ المسرح البريطاني الحديث الذي كانت مارجريت رامزي أحد صانعيه .

وإذا نظرنا عندنا نجد أنه كلما تواجدت مهمة وكيل الفنانين كان لها بلا شك مزايا كثيرة للعاملين بالمهنة للجمهور بشكل عام، فدور عرابي وكيل الفنانين في تشجيع نجوم الغناء الجدد في الخمسينيات والستينيات مثل عبد الحليم حافظ نفسه ومحرم فؤاد وبعض كبار الراقصات مثل تحية كاريوكا معروف لجميع العاملين في الوسط الفني، فقد كان الحاج عرابي يأتي لهم جميعا بالحفلات في كثير من المحافظات، ويتفق لهم مع أهم الحفلات الفنية في القاهرة والإسكندرية ، ومن المعروف أن واحدة من أهم فنانات الرقص الشرقي، والتي ظهرت لأول مرة في تلك الفترة، كانت عاملة تليفون في مكتب عرابي، وهو الذي قدمها للموسيقار محمد عبد الوهاب حين لمس موهبتها في الرقص الشرقي، فكانت تلك هي البداية التي صنعت منها نجمة مازال بريقها يسطع في التسعينيات .

أما في الحياة الأدبية فليس لدينا وكيل بهذا المعنى، فالأجور المتدنية التي يتقاضاها المؤلفون والأدباء لا تغري أحدا بأن يسعى للحصول على نسبة مئوية منها.. لا تقترب من قريب أو بعيد مما يمكن أن تحصل عليه إحدى الراقصات أو مطرب ذائع الصيت .

أما الأستاذ الكبير نجيب محفوظ فهو حالة خاصة، فقد اتفقت معه دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة AUC Press منذ سنوات على أن تكون وكيلة الأدبي، كما وقعت أخيرا اتفاقا مماثلا مع ورثة الدكتور يوسف إدريس، وهي وكيلة أيضا لبعض أعمال توفيق الحكيم وطه حسين، وليست وكيلة عن كل أعمالهما .

لكن نجيب محفوظ يظل هو الكاتب الوحيد بين الكتّاب المصريين الذي وقع بنفسه مثل هذا الاتفاق حيال حياته، وفي الوقت الذي هو قادر على إيجاد الناشر الذي ينشر أي كلمة يكتبها بلا عناء كبير .

على أن اتفاق محفوظ مع الجامعة الأمريكية لا يسري إلا على ما ينشر في الخارج من ترجمات؛ حيث تختلف أجور الكتّاب عما هي عليه في الداخل .

والحقيقة أن الجامعة الأمريكية كثيرا ما تأتي للأستاذ محفوظ بدور نشر من مختلف أنحاء العالم تريد إصدار أعماله بالألمانية أو الهولندية أو غيرها من اللغات، لكن أستاذنا الكبير كثيرا ما يبعث هو أيضا بالطلبات التي تأتيه في هذا الصدد إلى الجامعة الأمريكية، وذلك احتراما للاتفاق الذي بينه وبين الجامعة .

ولقد وصل للأستاذ نجيب أخيرا طلب من اليابان لإصدار كتاب «**ليالي ألف ليلة وليلة**» لأول مرة باليابانية، وطلبوا منه تحديد الأجر الذي يراه، فطلب محفوظ من الناشر الياباني أن يتوجه بطلبه إلى الجامعة الأمريكية موضحا أن قسم النشر بها هو وكيله في هذا الشأن .

وفي بعض الأحيان فإن ذلك يكلف الأستاذ محفوظ الكثير؛ لأن الجامعة الأمريكية في هذه الحالة ستتقاضى 50٪ بالتمام والكمال من الأجر الذي سيحصل عليه كاتب نوبل العالمي رغم أنها لم تأت بالناشر الياباني، وإنما المؤلف هو الذي أحاله إليها، لكن هذا حال الأستاذ الكبير، وجملته الثابتة في هذا الشأن كلما جاءه ناشر أجنبي يريد إصدار أحد أعماله أن يقول لي : «خليهم يروحوا للست علية»، وهو يقصد بذلك السيدة علية سرور المسئولة عن أعماله في قسم النشر بالجامعة .

ولقد سألت الأستاذ نجيب محفوظ في نسبة الـ50٪ هذه التي تحصل عليها الجامعة الأمريكية من أعماله، فقال لي إنهم يحصلون على هذه النسبة إذا كان الكتاب قد سبق ترجمته بالإنجليزية وصدر عن طريق الجامعة، ففي هذه الحالة لا تصبح الجامعة مجرد وكيل عن الأستاذ محفوظ، وإنما لها أيضا حقوق الناشر، أما إذا كانت الترجمة ستتم عن الأصل العربي فإن الجامعة في هذه الحالة تكون مجرد وكيل ولا تحصل إلا على النسبة المتعارف عليها دوليا وهي الـ10٪ التي كانت تتقاضاها الأسطورة مارجريت رامزي من أكبر كتّاب المسرح في بريطانيا .

لذلك فقد اقترحت في ردي على الناشر الياباني أن تكون الترجمة التي يريد عملها لرواية «**ليالي ألف ليلة**» عن الأصل العربي وليس عن الترجمة الإنجليزية التي أصدرتها الجامعة الأمريكية، ليس فقط لكي يحصل الأستاذ نجيب محفوظ على حقوقه كاملة، وإنما لكي تجيء الترجمة أكثر صدقا .

ولقد احترت أيضا في العقد الغريب الموقع بين الأستاذ نجيب والجامعة الأمريكية، والذي ينص على أن قسم النشر بالجامعة هو الوكيل

الوحيد في كل ما يصدر من ترجمات «لجميع» أعمال نجيب محفوظ، ولقد تحدثت إلى الأستاذ نجيب بعد فوزه بجائزة نوبل عام 1988 في أن يطلب من الجامعة إعادة النظر في شروط هذا العقد الذي يسري بصيغته هذه حتى على الأعمال التي لم يكتبها بعد!!

لكنني لم أجد لدى الكاتب الكبير أي اعتراض على ذلك؛ حيث نظر إليّ بابتسامته الوديعة قائلًا : خلاص بقى أنا مضيت من سنين وارتضيت بالوضع ده .. وأنا لما أدى كلمة ما أحبش أرجع فيها .

فقلت : لقد كان ذلك في الماضي، لكنك الآن حاصل على أعلى جائزة أدبية في العالم، وأي كاتب يتغيّر أجره بمجرد حصوله على هذا التقدير الرفيع، وأنا واثق أن الجامعة الأمريكية ستكون أول من سيتفهم هذا الوضع .

فقال الأستاذ والابتسامة لم تفارقه : ومين عارف موش يمكن أحد أسباب حصولي على نوبل هو أن الجامعة نشرت لي كل الكتب دي؟

وبسبب تواضع الكاتب الكبير وطيبة قلبه وعدم اهتمامه بالجوانب المادية التي هي الشغل الشاغل لبعض الكتّاب الآخرين، فإن القريبين منه كثيرا ما يجدون أن عليهم أن يدافعوا بأنفسهم عن حقوقه المادية التي لا تشغل حيزا كبيرا في فكر كاتب نوبل العظيم .

ولقد فاتحتني أخيرا السيدة ناهد فريد شوقي في رغبتها إنتاج مسلسل تليفزيوني عن رواية «**حديث الصباح والمساء**» التي كتبها الأستاذ نجيب محفوظ عام 1987، فأخبرت الأستاذ بذلك فوافق، لكنه أخبرني أن شركة

صـوت القاهـرة كانت قـد تعاقدت معـه على هـذه القصة في العـام التالي مباشرة لصدورها، وإن كانت لم تنتجها حتى الآن؛ لذلك طلب الأستاذ أن يتم استئذان صوت القاهرة في ذلك أولا .

فقلت للأسـتاذ : لكن عقد صوت القاهرة قد انتهى منذ سـنوات؛ حيث كانت صلاحيته لخمس سنوات فقط؛ لذلك فقد سقط الآن حقها في إنتاج الرواية، فقال : أعرف ذلك لكنها مسـألة ذوقية فقط، فقد كانوا هم أول من اهتم بالرواية وتعاقد عليها .

ولم يكن هناك جدوى من مناقشـة الأستاذ أو سؤاله: لماذا يتم استئذان مـن ليس له حق؟!.. فالمسـائل عنـد نجيب محفوظ لا تحسـب بالحقوق القانونيـة ولا بالعقـود الرسـمية، وإنمـا بما هـو أهم من ذلك فـي رأيه؛ أي بالذوق والأصول والأخلاق ..

وقد كان للأسـتاذ الكبير ما أراد، ولكن ما أن عرفت صوت القاهرة بأن هنـاك مَـن يرغبون في إنتاج الروايـة حتى اتصلوا بالأسـتاذ نجيب محفوظ نفسـه رغم مشـقة حديثه في التليفون يعلنون عن رغبتهـم في تجديد العقد الذي سقط، فأحالهم الأستاذ عليّ فاتصلوا بي ليخبروني بأنهم ينوون إنتاج المسلسـل، وإنهم أعدوا السـيناريو بالفعل، وسـألت عن قيمة العقد الذي يريـدون تجديده مع أديب نوبل العالمي فوجدتـه مخجلا له ولهم ولمصر التي تقدر أديبها العظيم خير تقدير، ولما كنت قد اتفقت مع ناهد فريد شوقي على أكثر من سبعة أضعاف هذا المبلغ، فقد قررت أن أخطر صوت القاهرة بذلك، ورجوتهم أن يقدروا الموقف ليس من أجل الأستاذ نجيب محفوظ

الذي لا يهتم كثيرا بالنواحي المالية، ولكن من أجل تقديرنا للكاتب الكبير الذي قدره العالم أجمع، وحفاظا أيضا على حقوق أسرته .

وأعتقد أن صوت القاهرة قدرت كل هذه الاعتبارات، فاتصلت في النهاية بناهد فريد شوقي، وأخبرتها بأنه في إمكانها التعاقد مع الأستاذ على الرواية .

وخلال تلك المباحثات التي أجريتها ما بين الجانبين تمكنت من زيادة الأجر الذي اتفقت عليه مع ناهد فريد شوقي زيادة إضافية، لكني عندما أخبرت الأستاذ نجيب بالمبلغ الذي اتفقت عليه سهّم قليلا ثم قال : موش كتير؟! فقلت له على الفور : لا موش كتير يا أستاذ نجيب! ومرت في ذهني قائمة طويلة لكتّاب من جيل أبناء نجيب محفوظ يتقاضون أكثر من هذا المبلغ .

وحمدت الله أن ناهد فريد شوقي لم تكن تنوي ترجمة الرواية أو تقديمها في مسلسل باللغة اليابانية، وإلا لقال لي الأستاذ نجيب : «خليها تروح للست عليه»، ولا اضطر أن يدفع - راضيا - 50٪ من الأجر الذي اتفقت له عليه إلى وكيله الأدبي .. قسم النشر بالجامعة الأمريكية !

التوحد مع الوطن

إن أحدا من رموز الفن والثقافة في تاريخنا الحديث لم يقدر له أن يصل إلى تلك المكانة الفريدة التي يتبوأها أديب العربية الأكبر نجيب محفوظ والتي لا تتأتى إلا حين يتوحد الفنان مع وطنه فيصبح رمزا له وتعبيرا عنه، فتلك هي أعلى المراحل التي يمكن أن يصبو إليها الفنان، وقد نعرف أدباء عظامًا أو فنانين لا ينكر أحد قيمتهم المتميزة وفنهم الرفيع، لكنهم قد لا يتحولون بالضرورة إلى رمز لأمتهم وعلم لها، لقد وصلت أم كلثوم مثلا إلى هذه المرتبة كما وصلت إليها مطربة فرنسا الراحلة إديت بياف، لكن لم يصل إليها طه حسين ولا المازني ولا العقاد كما لم يصل إليها جان بول سارتر ولا مالارمية ولا جان أنوي، رغم أن البعض قد يرى أن القيمة الفنية لأي منهم قد تفوق قيمة أي ممن أصبحوا رموزا وأعلاما لشعوبهم .

فالرمز لا يتحقق بالقيمة الفنية وحدها، وإنما أيضا بالارتباط بالجماهير وبالتعبير عنها؛ حتى يصبح المرء تجسيدا حيا لهذه الجماهير، وفي مسرحية شكسبير «انطونيو وكليوباترا» يقدم الشاعر ملكة مصر باعتبارها رمزا لوطنها فلا يقول لها انطونيو حين تركع أمامه : «انهضي يا كليوباترا»، بل يقول : «انهضي يا مصر!» .

وأم كلثوم لم تكن مجرد مطربة ذات صوت عظيم وموهبة فذة، ولو كانت كذلك لكفاها، وإنما كانت أيضا ابنة بارة لهذا الوطن ارتبطت بقضاياه وعبرت عن آلامه وآماله أدق تعبير، ومدخل أم كلثوم في كتاب تاريخ مصر لن يتضمن فقط روائعها الغنائية الكبرى، وإنما سيتضمن أيضا مواقفها الوطنية النبيلة التي جعلتها - على سبيل المثال وليس الحصر- تجوب عواصم الدنيا شدوا بصوتها العظيم ؛ كي تجمع الأموال للمجهود الحربي وقت كان جزء غالٍ من تراب هذا الوطن يدنسه الوجود العسكري الصهيوني .

كذلك الحال أيضا مع أديبنا الأكبر نجيب محفوظ الذي لم يحصل على جائزة مالية إلا وتبرع بها للعمل العام، وقد لا يعرف البعض أن قيمة جائزة نوبل التي تعدت الآن المليون، لكنها كانت أقل قليلا من ذلك حين فاز بها محفوظ عام 1988 ، رأى أديبنا لقيمتها المرتفعة ألا يحرم منها أسرته فقام بتقسيمها حسب الشرع بينه وبين زوجته السيدة عطية الله وكريمتيه أم كلثوم وفاطمة، أما نصيبه هو فقد تبرع به بالكامل لعمل الخير فأودعه بالبنك وأوقف دخله السنوي الكبير لمرضى الفشل الكلوي، وجعل الكاتب الصحفي الكبير عبد الوهاب مطاوع (رحمه الله) المشرف على باب البريد «بالأهرام»، والذي ترد إليه آلاف حالات طلب العلاج كل سنة مسئولا عن توزيع هذا التبرع السنوي الذي يعتبر بمثابة صدقة جارية .

ومازلت أذكر بعد فوز أديبنا بجائزة نوبل أني كنت قد حددت موعدا مع بعثة تليفزيونية أجنبية أرسلتها لجنة نوبل بالسويد؛ لإجراء حديث مع الأديب المصري الكبير في فندق شهرزاد القريب من منزله بالعجوزة،

ومررت على الأستاذ نجيب في الموعد المحدد لنذهب معا لموعدنا، ولما كان أديبنا يفضل دائما السير في الشوارع على ركوب السيارات التي لم يمتلك طوال حياته واحدة منها، فقد مشينا سويا إلى الفندق، وحدث في الطريق أن مررنا على إحدى العمارات، ولاحظ بوابها أن هذا الذي مر أمامه كان نجيب محفوظ فلم يتمالك نفسه ونهض من مقعده وأخذ يلوّح بيده للأستاذ قائلا : «أهلا يا أستاذ نجيب .. ربنا يحميك .. ربنا يخليك لنا!»، وتصورت أن الأستاذ سيرد عليه التحية بإشارة من يده كما فعل البواب، لكني وجدته قد عاد أدراجه إلى حيث كان يجلس البواب وسلم عليه باليد وشكره، ولما نبهت الأستاذ إلى أننا قد تأخرنا عن موعدنا مع بعثة نوبل، قال لي ببساطته المعروفة وهو يشير إلى البواب : «ما هم دول اللي ادوني نوبل، فلولا اهتمام الناس بي في بلدي ما كان قد سمع بي أحد في الخارج، ولا كان قد فكر أحد في منحي الجائزة» .

وبالإضافة إلى ما تقدمه هذه الواقعة من دلالة صادقة على طبيعة شخصية أديبنا الأكبر وتواضعه الجم ، فهي توضح أيضا كيف أن الجمهور العادي لا ينظر إلى نجيب محفوظ باعتباره مثقفا متعاليا ولا أديبا في برج عاجي، وإنما كرمز لنا جميعا، كعلم للوطن، كتعبير عن ضمير الأمة؛ ومن ثمّ فهو ملك لنا جميعا، ملك للمثقف كما هو ملك للبواب ؛ ولذا فهو يصافح الاثنين سواء بسواء .

إن رحلة التواصل هذه بين نجيب محفوظ وجمهوره العريض بدأت بالطبع من جانب محفوظ نفسه، الذي اختار أن تكون كتاباته الأدبية التي أمتعنا بها على مدى ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن تعبيرا عن واقع هذا

الشعب، الذي عرفه خير معرفة، من خلال معايشته له في الأحياء الشعبية التي فضّلها على أرقى أحياء المدينة .

وهذا لا يعني أن نجيب محفوظ اكتفى بتصوير الواقع الذي حوله دون أن يتطرق إلى معالجة القضايا الفلسفية أو الوطنية التي يموج بها هذا الواقع. لقد عبر محفوظ عن البعد الفلسفي للواقع المصري في مختلف مراحله كما لم يفعل أحد، لكنه كان يفعل ذلك ليس من خلال كتابة الأدب الذهني الذي كان يقدمه البعض، وإنما من خلال تصوير واقعي يتضمن في طياته بعدا فلسفيا لا يكتمل معنى العمل إلا به، فإذا نظرنا إلى روايات «**الطريق**» أو «**الشحات**» أو «**اللص والكلاب**» وغيرها، نجد أن هناك بعدا فلسفيا واضحا لمن يبحث عن الفلسفة، لكن هذا البعد لا يقف حائلا دون استمتاع القارئ العادي الذي قد لا يهوى الفلسفة، وربما كان خير دليل على ذلك هو أن جميع هذه الروايات قد تحولت إلى أفلام تجارية ناجحة رغم أبعادها الفلسفية الواضحة .

أما بالنسبة للقضية الوطنية فقد كانت ثلاثية محفوظ العظيمة، هي خير تجسيد لتاريخنا الوطني خلال فترة النصف الأول من القرن العشرين، بما قدمته من أجيال ثلاثة لعائلة واحدة .

على أن هذا الاهتمام بالوطن وهمومه لم يأت فقط في المرحلة الواقعية من إنتاج نجيب محفوظ الأدبي، وإنما كان اهتماما ملازما لاهتمامه بالأدب ذاته بدأ مع بداية كتاباته الأدبية، فقد بدأ محفوظ حياته بكتابة الروايات المستوحاة من التاريخ المصري القديم، وكان يدمن قراءة كتب التاريخ الفرعوني، حتى إنه قام بترجمة أحد هذه الكتب من الإنجليزية، وكان

محفـوظ يسـتلهم ما يراه مناسـبا للمعالجة الروائية. وقـد أخبرني ذات مرة أنـه كان يحتفظ لديـه بمفكرة يدون فيها بعض الأفـكار التي ينوي تحويلها إلىٰ روايات، وكان يتصور أنه سيهب حياته الأدبية كلها للكتابة عن التاريخ المصـري القديـم كما فعل الكاتب البريطاني سـير والتر سـكوت، على أن الموهبـة الإبداعيـة لنجيب محفوظ أبـت أن تظل حبيسـة للتاريخ القديم، وارتباطه بالواقع المحيط به سـرعان ما دفعه إلى الواقعية، ثم إلى ما أسـماه بالواقعيـة الجديـدة، ثم إلـى المرحلة الفلسـفية، ثم إلى المرحلـة الصوفية التأمليـة التـي أتحفنا فيها بـ «**أصداء السـيرة الذاتية**»، والتي مـا زال فيها لم يبرحها، وذلك بما يكتبه الآن من «**أحلام فترة النقاهة**» .

ولقـد أحـس الجمهور طوال تلـك المراحل المتعددة للإنتـاج الروائي لمحفـوظ أن الكاتب لـم ينصرف عنه وعن مشـاكله للحظـة واحدة؛ لذلك فقـد التـف حوله الجمهـور بعد أن وجد فيـه أصدق تعبير عن نفسـه طوال مـا يقرب من قـرن من الزمان. ولقد انفرد محفوظ بيـن كتّابنا جميعا في أنه عاصـر أهم الأحداث الوطنية لهذا البلد وتفاعل معها جميعا، فوجدناه إلى جانب تعبيره عن تاريخ مصر القديم وواقعها الجديد في النصف الأول من القرن العشـرين، قد عبر أيضا عن مجتمع ما بعد قيام ثورة يوليو في العديد مـن قصصـه القصيرة، ثم عبر عـن مرحلة ما بعد حـرب 67 في «**ثرثرة فوق النيل**» وغيرها، ثم عن مجتمع الانفتاح ومشاكله في «**أهل القمة**» و«**الحب فوق هضبة الأهرام**»، ثم عبر عن نهاية هذه الحقبة الساداتية برواية «**يوم قتل الزعيم**» .

هل هادن محفوظ السُلطة؟!

«لأ يا عبد الحكيم، لأ!» .. هذا ما قاله الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بالحرف الواحد للمشير عبد الحكيم عامر حين اتصل به هذا الأخير في إحدى ليالي عام 1966 ، يطالبه بضرورة اتخاذ إجراء عقابي ضد نجيب محفوظ بسبب روايته «**ثرثرة فوق النيل**»، التي وجد المشير أن محفوظ تخطى فيها كل الحدود بنقده لبعض الأوضاع المتعلقة بالمناخ البوليسي الذي كان سائدا قبيل حرب 1967، وهو نقد ينال مباشرة من دولة المخابرات التي كان يرأسها صلاح نصر، والتي قال عنها عبد الناصر بعد ذلك إنها كانت دولة داخل الدولة، لكن صلاح نصر كان أحد رجال عبد الحكيم عامر، ولم يكن ليسمح بأن يوجه له النقد وتنتقد تجاوزاته ؛ لذا أراد أن يجعل من نجيب محفوظ عبرة لغيره من الكتّاب والمثقفين، والذين كانت قد علت آنذاك نبرة انتقادهم لمثل هذه الأوضاع .

ولقد روى لي السيد سامي شرف منذ بضع سنوات بعض تفاصيل تلك الواقعة التي كنت قد سمعتها من مصادر أخرى أيضا، وكان سامي شرف يُعد في ذلك الوقت لإصدار الجزء الأول من مذكراته القيّمة التي صدرت بالفعل بعد ذلك، وكانت تتضمن شهادة الرجل الدقيقة والصادقة على فترة

من أهم فترات تاريخنا الحديث، ولقد تذكرت ذلك أخيرا حين وجدت أمامي في مكتبة مدبولي الجزء الثاني من المذكرات التي سعدت بأن قرأت الجزء الأول منها، وهو مسودة لم تكن قد نشرت بعد ؛ لذا سارعت بشرائها.

ومن بين الوقائع التي لم يتطرق إليها الجزء الأول من المذكرات ما يتعلق بأديبنا الأكبر نجيب محفوظ، ولقد سألته في ذلك مباشرة فقال لي: أنه يذكر جيدا أن المشير عبد الحكيم عامر قد اتصل به في ذلك الوقت في ساعة متأخرة من الليل مستفسرا إن كان الرئيس مازال موجودا في مكتبه، فقال له سامي شرف : إن الرئيس في قاعة السينما الملحقة بمنزله، وكان ينزل إليها بين الحين والآخر للترويح عن نفسه بمشاهدة الأفلام، فقال عبد الحكيم عامر لسامي شرف أن يخبر الرئيس بعد خروجه من القاعة مباشرة بأنه يريد أن يتحدث إليه في أمر هام، وبالفعل قام سامي شرف بإبلاغ الرسالة للرئيس، وما إن خرج عبد الناصر من قاعة السينما حتى عاد إلى مكتبه، وطلب من سامي شرف أن يطلب له المشير .

ويروي السيد سامي شرف، والذي كان إلى جوار الرئيس وهو يتحدث للمشير، أنه لا يعرف ما قاله المشير لعبد الناصر، لكنه سمع بوضوح الرئيس وهو يقول بكل حزم للمشير : «لأ يا عبد الحكيم، لأ!»، ثم أردف قائلًا : «إحنا عندنا كام نجيب محفوظ؟!»، على أن أهم ما قاله عبد الناصر في تلك المكالمة ما معناه أن مثل هذه الأعمال تنير الكثير من بقع الظلام فتكشف السلبيات التي تجري في الخفاء قبل أن تستفحل، ثم قال للمشير بالحرف الواحد : إمال عايزنا نعتمد على التقارير الرسمية وبس؟!

وبعيدا عن رواية سامي شرف، فقد كان معروفا أنه لولا تدخل عبد الناصر شخصيا لكانت قد اتخذت بعض الإجراءات العقابية ضد نجيب محفوظ على الموقف الجريء، الذي اتخذه في نقده لدولة المخابرات ولبعض الممارسات الانتهازية لرجال الاتحاد الاشتراكي في أعماله في فترة الستينيات. وفي بعض الأقاويل أن أمرا بالاعتقال كان قد صدر بالفعل ضد نجيب محفوظ من صلاح نصر، ووفق هذه الرواية تكون مكالمة عبد الحكيم عامر العاجلة للرئيس في تلك الليلة من عام 1966 قد جرت بغرض إخطاره بالقرار وليس استئذانه قبل التنفيذ، ألم تكن المخابرات دولة قائمة بذاتها داخل الدولة حسب ما وصفها عبد الناصر نفسه؟ . وفي تلك الرواية أيضا أن رفض عبد الناصر الحازم لذلك القرار الذي لم يسمعه سامي شرف قد أوقفه على الفور، وأن القوة التي كانت قد تحركت إلى منزل نجيب محفوظ أوقفت في منتصف الطريق قبل أن تصل إلى منزل نجيب محفوظ بالعجوزة، وذلك على إثر مكالمة الرفض الحازم من الرئيس، على أن ذلك كله لم يثن محفوظ عن مواصلة نقده للأوضاع التي لم يكن يقبلها، فأصدر بعد ذلك في العام التالي مباشرة رواية في نفس الاتجاه هي «ميرامار»، والتي صدرت في نفس عام النكسة حين لم تكن الأجهزة السياسية على استعداد لتقبل مثل هذا النقد القوي .

وفي واقعة أخرى تتعلق برواية **«أولاد حارتنا»** التي صدرت عام 1959، كنت قد سمعت من الأستاذ نجيب محفوظ تفاصيل الاتفاق الذي توصل إليه في ذلك الوقت مع المرحوم حسن صبري الخولي حول الرواية؛ حيث كان الخولي قد اقترح على محفوظ أن يقابله ببعض شيوخ الأزهر الذين

كانت لهم تحفظات على الرواية، وسأله إن كان مستعدا لمناقشتهم، فقال له محفوظ في شجاعته الأدبية المعهودة إنه على أتم استعداد لذلك . وقام الخولي - وكان في ذلك الوقت رئيسا للرقابة على المطبوعات - بتحديد الموعد مع الشيوخ وأخبر به الأستاذ نجيب، وفي الموعد المحدد حضر الأديب إلى مكتب الخولي وهو على أتم استعداد للدفاع عن موقفه، لكن الشيوخ هم الذين تخلفوا عن المواجهة، فقد جلس محفوظ مع الخولي ينتظران لكن أحدا من الشيوخ لم يحضر !

ولقد وجدت السيد سامي شرف على علم كامل بهذه الواقعة، وقال لي: إن المرحوم حسن صبري الخولي كان موجها فيما أقدم عليه من الرئيس عبد الناصر شخصيا، فقد قال له الرئيس عبد الناصر : حاول أن تصفي هذا الموقف بينه وبين الشيوخ؛ لأني لن أتخذ أي إجراء ضد نجيب محفوظ .

وإذا كان نجيب محفوظ قد اتخذ موقفا في «**أولاد حارتنا**»، ورضي أن يواجه به مَن كانوا يعترضون عليه من الشيوخ، وإذا كان قد واجه دولة المخابرات بكل جبروتها في «**ثرثرة فوق النيل**» وغيرها، وحذر مسبقا من كارثة 1967 قبل وقوعها، فهل كان هذا الرجل مهادنا للسلطة؟! وهل كان رجلا بلا موقف كما كان يحلو لبعض المراهقين السياسيين من نقاد الماركسية أن يقولوا؟ ولقد كان هناك فريق ثالث من النقاد يقول بأن محفوظ كان يتخفى وراء رواياته التي كان يضمنها بعدا سياسيا بشكل غير مباشر، لكنه في حياته لم يتخذ موقفا سياسيا صريحا بعيدا عن أدبه، ومثل هذا النقد لا يقل سذاجة عما سبقه. ففي عهد الرئيس السادات وقع محفوظ العريضة الشهيرة التي وقعها الكثير من الأدباء، والتي كانت ترفض

حالة اللاسلم واللاحرب التي كانت سائدة قبل حرب 1973، وبسبب هذا الموقف اتخذت ضد محفوظ بعض الإجراءات التي لم تتخذ ضده في عصر عبد الناصر، فمنع من الكتابة في الصحف، وحظر إذاعة أفلامه في التليفزيون، فهل كان ذلك عقابا لرجل يهادن السلطة.. رجل ليس له موقف سياسي؟!

لقد كان محفوظ رجلا متواضعا دمث الخلق لا يحب أن يغضب أحدا، لكنه كان صاحب موقف، وكان موقفه صلبا وواضحا لا يتزعزع، وقد كنت شاهدا على مواقف له اضطرته لمواجهة مباشرة مع قمة السلطة، فتشبث الرجل بموقفه في هدوء ودون عجرفة ولا ضجيج ولم يتراجع قيد أنملة، وقد يأتي قريبا الوقت الذي تُروى فيه هذه الوقائع التي هي أمانة ؛ لأنها جزء من تاريخ أديبنا الراحل ومن سيرته العطرة .

إن البعض وصل في سطحيته إلى الخلط بين دماثة الخلق والمواقف السياسية، وتصور أن الرجل المجامل الذي لا يحب أن يغضب أحدا لا يمكن أن تكون له مواقف سياسية، لكن صلابة الموقف ليست من الضرورة أن تعبر عن نفسها بالصخب الطفولي الذي يرى أن النضال السياسي يكون بحمل اللافتات والخروج إلى المظاهرات، فرواية واحدة يمكن أن تحدث ثورة كاملة قد تعجز عنها هتافات المظاهرات، وهذا درس من آلاف الدروس التي تقدمها لنا تجربة نجيب محفوظ، لكن الدرس إن لم يجد الطالب النجيب ليستوعبه فهو يضيع هباء، والنجيب - للأسف - قد رحل عنا بلا رجعة!

«الخوف» .. والسُلطة

كلما تجدد الحديث حول الأزمات التي أثارتها كتابات أديبنا الأكبر نجيب محفوظ انحصر الاهتمام في رواية «**أولاد حارتنا**» وحدها، رغم أن الكثير من أدب محفوظ أثار الجدل والنقاش وكاد يعرض كاتبه لبعض الإجراءات الانتقامية .

ولا أتحدث هنا عن روايات مثل: «**الكرنك**» و«**ثرثرة فوق النيل**» و«**ميرامار**» وحدها، ولا عن روايتي «**اللص والكلاب**» و«**الشحاذ**» فقط، وإنما أيضا عن أعمال أخرى قد لايعرف البعض أنها أثارت من الأزمات أكثر مما أثارت الروايات سالفة الذكر .

ولقد سألت الأستاذ نجيب محفوظ ذات مرة عن إحدى قصصه القصيرة التي تحمل عنوان: «**الخوف**»، والتي أصدرها في بداية الستينيات، وعاش بسببها في حالة من الرعب دامت لفترة طويلة خشية ما يمكن أن يتخذ ضده من إجراءات، فقال لي إنه لم يشعر بالخوف من أي عمل كتبه قدر شعوره بذلك من قصة «**الخوف**» .

واعترف لي الأستاذ أن قصة «**الخوف**» كانت في الحقيقة تمثل نقدا مقصودا للأسلوب غير الديمقراطي الذي اتبعه النظام في ذلك الوقت،

وقال: منذ نشرت القصة في «الأهرام» بدأ يكثر الهمس حولها ومَن ترمز إليهم شخصياتها، وفي أكثر من مرة اعترض طريقي في الشارع بعض الضباط وكانوا يسألوني مباشرة ماذا كنت أقصده من القصة، ومَن هو المقصود بالضابط المستبد بطلها، لدرجة إني اقتنعت أن تلك المقابلات في الطريق العام لم تكن من قبيل المصادفة، وإنما كانت نوعا من التحقيق غير الرسمي.

وتروي «**الخوف**» قصة مجتمع يسيطر عليه الفتوات الذين يتصارعون فيما بينهم، لكن أحد الضباط يتصدى لهم ويهزمهم فيصبح هو المتحكم في كل شيء، ويترك الضابط الملابس العسكرية ويرتدي الملابس المدنية ويعيش بين الفتوات ويجلس على مقاهيهم، وينتهي به الأمر أن يخطف منهم الفتاة التي كانوا يتنافسون جميعا للفوز بها.

قال الأستاذ: لقد فسر الناس الضابط على أنه جمال عبد الناصر والفتوات المتصارعين على أنهم الأحزاب القديمة والفتاة التي يتصارعون حولها على أنها السلطة، ثم قال الأستاذ: لكن بصرف النظر عن هذه الشخصيات بعينها فلا جدال أن القصة كانت تهاجم الحكم حين يكون ديكتاتوريا، وقد كنت أقول للضباط: إنني لم أكن أقصد جمال عبد الناصر بشخصه، وإنما قصدت الضابط أبو زيد الذي اشتهر قبل الثورة بعد أن أرسلته الدولة إلى الصعيد للحد من سيطرة الفتوات هناك، لكن كيف السبيل لإنكار أن القصة تهاجم الديكاتورية؟!

وإذا أضفنا لهذه القصة عشرات القصص الأخرى التي هاجمت أوضاعا لم يكن يرضى عنها أحدٌ مثل «**أهل القمة**» أو «**الحب فوق هضبة الهرم**»

وغيرهما إلى جانب الروايات سالفة الذكر - خاصة **«ثرثرة فوق النيل»** التي صدر على أثر نشرها قرار باعتقال أديبنا الكبير أوقفه جمال عبد الناصر في اللحظة الأخيرة - اتضح لنا سذاجة الرأي الذي كثيرا ما يردده بعض مَن لم يتخطوا مرحلة المراهقة السياسية من أن محفوظ كان مهادنا للسلطة .

الحب الأول

هل هي «عبلة» أم «علا» أم «عبير»؟ أم أن لها اسما آخر غير دارج مثل «عنبر» أو «عند»؟ مَن هي تلك المعشوقة التي كثيرا ما تعود للظهور في أعمال نجيب محفوظ دون أن يفصح عن اسمها الحقيقي، فمرة هي عايدة شداد كما في «الثلاثية»؛ حيث أحبها كمال عبد الجواد، الذي هو أقرب شخصيات محفوظ شبها به، ومرة أخرى لم يشأ أن يخلع عليها اسما غير اسمها في أعماله الأخيرة، فصار يرمز لها في «أحلام فترة النقاهة» مثلا بحرف «العين» فقط، فهي صاحبة الحلم 144، وهي صاحبة الحلم 14، ثم هي التي تزوجت من آخر في الحلم 191 ، كما تزوجت عايدة من غير كمال عبد الجواد .

ولقد سألت الأستاذ نجيب ذات مرة عن الحب الأول في حياته، فقال لي : إن الحب الأول كان حين انتقلت الأسرة للعيش في العباسية، وهناك كان يلعب الكرة مع أبناء الحي، وفي إحدى المرات وجد في إحدى النوافذ وجها مضيئا كأنه يخرج من إحدى اللوحات العالمية التي تمثل الجمال في أبهى صورة، كان جمال الفتاة صاحبة الوجه خلابا ولم يكن يشبه جمال بقية بنات الحي، بل كانت به سمات غربية واضحة، وعلى الفور وقع الصبي نجيب محفوظ الذي لم يكن عمره يزيد على الـ 13 عاما أسيرا لهذا

الوجه، فكان يجلس في الشارع أمام النافذة ساعات طوالا منتظرا أن يهل عليه كما يهل القمر .

تلك كانت «عين» التي تحدث عنها الأستاذ في أعماله، والتي كانت حبه الأول فلم ينسها أبدا، وقد كان محفوظ حريصا دائما على ألا يبوح باسمها، لكني علمت أن الاسم الحقيقي للمعشوقة كان «عنايات»، وقد كانت ابنة أحد أكابر حي العباسية في ذلك الوقت، لكن تلك لم تكن المشكلة، وإنما كانت المشكلة أن عنايات التي كان الأستاذ كثيرا ما يشبهها بلوحة «موناليزا» لليوناردو دافنشي، في العشرين من عمرها ؛ ولذا فسريعا ما تزوجت ممن هو مناسب لسنها، كما تزوجت عايدة من غير كمال، وكما تزوجت عين من غير راوي الحلم 191 .

ويبدو أن الحب الأول في حياة نجيب محفوظ قد ترك في نفسه جرحا غائرا، ليس فقط لأنه عاد يذكر صاحبته في أكثر من عمل، ولكن أيضا لأنه اتجه في سن المراهقة إلى حياة العربدة كما كان يعترف، وهكذا تحولت المرأة التي لم تبادله الحب إلى مجرد أداة للجنس، فعرف محفوظ عالم العوالم وبنات الهوى، وظن أنه لن يرتبط بامرأة أبدا، لا بالحب ولا بالزواج.

ويروي لي الأستاذ أنه بمرور الوقت بدأ يشعر بالحاجة إلى الزواج والاستقرار، وهكذا وجدناه يتزوج في بداية الخمسينيات، لكنه تزوج سرا لأنه لم يشأ أن يغضب والدته التي كانت أعدت له أكثر من عروسة رفضهن جميعا ؛ مما كان يسبب لوالدته إحراجا شديدا مع أهل الفتاة .

ولقد لاحظت أن الأستاذ حين تزوج كان اسم زوجته يبدأ هو الآخر بحرف «العين» فهل هي مصادفة، أم إنه كان قدرا؟!

محفوظ والمظاهرات

قد لا يعرف البعض أن الكثير من مشاهد المظاهرات الوطنية التي صورها كاتبنا الأكبر نجيب محفوظ في «**الثلاثية**» ضمن أحداث ثورة 1919 ، كانت مشاهد حقيقية عايشها بنفسه وهو طالب حين كان يخرج في المظاهرات مع أصدقائه، ولقد روى لي الأستاذ أن أول مرة شارك فيها في المظاهرات كانت وهو في الـ 13 من عمره، وكان ذلك أثناء الخلاف الذي وقع بين سعد زغلول والملك فؤاد عام 1924 حول الدستور، وقال: في ذلك الوقت لم أكن أعرف ما هو الدستور لكن دافعي للخروج في المظاهرة كان مجرد أن أرى سعد زغلول، وهكذا خرجنا أنا وأصدقائي من المدرسة واتجهنا إلى ميدان عابدين وأخذنا نردد هتافات قادة المظاهرة المؤيدة لسعد زغلول، لكن حين وصل سعد باشا بسيارته إلى الميدان كان الزحام شديدا جدا فلم أتمكن من رؤيته .

أما المرة الثانية التي يشارك فيها محفوظ في المظاهرات فكانت في أثناء حكومة محمد محمود باشا سنة 1929، وكان سبب خروج المظاهرات هذه المرة هو استقبال مكرم عبيد لدى عودته من انجلترا، ويروي الأستاذ أن رفيقه في هذه المظاهرة كان صديق العباسية حسن عاكف، ثم يقول:

ظللنا نجري وراء موكب مكرم عبيد حتى بيت الأمة كي نستمع هناك إلى خطابه وخطاب النحاس باشا، لكن حسن عاكف اعتدى على أحد الضباط الذين كانوا يتابعون المظاهرات، ودون سابق إنذار ضربه بقوة في بطنه فسقط الضابط مغشيا عليه ، فما كان من ضابط زميله من سلاح الخيالة إلا أن أخذ يطاردنا بحصانه إلى أن وصلنا إلى سور بيت الأمة، فقفز حسن بسرعة إلى داخل البيت وأمسك بي من ذراعي محاولا سحبي معه إلى الداخل لكن الضابط كان قد لحق بنا وتمكن من إمساكي من قدمي قبل أن أقفز إلى داخل سور البيت، وحين قفزت بالفعل كان الضابط في الخارج يمسك في يده بفردة حذائي .. وهكذا دخلت بيت الأمة لأول مرة في حياتي وأنا بفردة حذاء واحدة، بينما كانت الفردة الثانية مع الضباط في الخارج، ومن حسن الحظ أن النحاس ومكرم عبيد كانا في تلك الأثناء قد انتهيا من إلقاء خطابيهما وانصرف معظم الناس، لكنا سعدنا باستقبال السيدة صفية زغلول «أم المصريين» لنا، وقد أشفقت علينا بعد أن روينا ما حدث ولم تدعنا نخرج من البيت إلا بعد أن تأكدت أن الضباط الذين كانوا في الخارج قد انصرفوا، ومشيت في الشوارع من بيت الأمة إلى العباسية وأنا بفردة حذاء واحدة !

أما تجربة محفوظ الثالثة مع المظاهرات فكانت ضد إسماعيل صدقي باشا الذي عطل دستور 1923 ، فأراد أن يفرض على البلاد دستورا آخر. وهنا يقول الأستاذ : كان رفيقي في هذه المظاهرات هو سامي صادق، وبرغم أننا لم نعتد هذه المرة على أحد إلا أننا أثناء مرورنا بجوار «كونستابل» إنجليزي في شارع حسن الأكبر رمى أحد المارة حجرا

على رأس «الكونستابل» فسقط في الحال مضرجا في دمائه فانطلقنا أنا وصديقي نجري خشية أن يظن بقية العساكر في الموقع أننا الذين اعتدينا عليه.. انطلق وراءنا العسكر فدخلنا في عطفة ضيقة لكننا اكتشفنا أنها حارة سد، لكن فجأة انفتح باب أحد البيوت، وأشارت إلينا سيدة بالدخول، ثم أغلقت الباب خلفنا ولم نخرج من البيت إلا بعد فترة وعن طريق السطح الذي أوصلنا إلى عمارة أخرى في الشارع الخلفي، ولولا هذه السيدة لكنا أنا وصديقي في خبر كان !

كيف يكتب نجيب محفوظ؟

تزخر المكتبة العربية بل والعالمية بالكتابات عن أديب مصر الكبير نجيب محفوظ : عن روائعه الأدبية، عن حياته، عن آرائه في الحياة .. لكن أحدا لم يقترب بالقدر الكافي من تفاصيل العملية الإبداعية عند هذا الكاتب العملاق الذي أثرى الفن الروائي العربي كما لم يفعل أحد قبله أو بعده، وقد كان إعلانه لي أخيرا بأنه عائد إلى الكتابة مرة أخرى بعد توقف دام أكثر من أربع سنوات، مناسبة لكي أسأله عن تجربته الشخصية مع العملية الإبداعية التي طالما عني بها النقاد منذ الأزل، ونشأت عنها مدارس متعاقبة في النقد الأدبي من أرسطو إلى ما بعد الحداثة، ومن التصور الفولكلوري القديم بأن الشعراء مجانين يهبط عليهم الوحي من المجهول، إلى النظرية الرومانسية التي ترى - كما قال الشاعر البريطاني وليام ورد زورث -: إن الأدب هو «التدفق التلقائي للمشاعر القوية»، إلى المدارس الحديثة في القرن العشرين، والتي أصبحت تقترب كثيرا في تحليلها للعملية الإبداعية من حدود التحليل النفسي، والتي كان أبرز منظريها الناقد الكبير أ.أ. ريتشاردز I.A.Richards .

فكيـف يكتب نجيب محفوظ ؟ كيف تأتيه الفكرة الأولى للعمل؟ كيف يشـرع في تحقيقها؟ كم يسـتغرق من الوقت في كتابـة العمل الجديد؟ هل يعيد كتابة أعماله أكثر من مرة؟

قلت للأستاذ : دعنا نبدأ من البداية فنسأل : كيف تكتب؟ هل تبدأ بفكرة مبهمة المعالم تتطور وتتضح أثناء الكتابة؟ أم أنك تكتب وأنت تعرف تماما أدق تفاصيل الأحداث؟

قـال : لقـد كتبت بأكثر مـن طريقة، فقد دخلت في بعـض الأحيان على القصة وأنا أعرف مسـبقا جميع أبعادها من أحداث وشـخصيات وخلافه، فلم يطرأ عليها أثناء الكتابة إلا ما هو وحي القلم فقط .

قلـت : هل كانـت الكتابة في هذه الحالة مجرد إخـراج للعمل إلى حيز الوجـود؟ أي أن العمـل كانت قـد اكتملت جميع أبعاده فـي ذهنك قبل أن تمسـك بالقلـم، فكنـت تراه كشـكل متكامـل قبـل أن تكتبه حسـبما تقول النظرية التي يطلق عليها التعبير الألماني Gestalt «جشطالط» ؟

قـال : لا .. ليس إلى هذه الدرجة يكون اكتمـال الأحداث، فمهما يكن العمل مكتملا قبل الكتابة، فإن هناك دائما الإضافات والتعديلات التي تتم أثناء الكتابة، وهي ما أسميها «وحي القلم»، فمثلما للكاتب وحي يأتي إليه فـي لحظة الإلهام الأولى، فإن للقلم أيضـا وحيا يأتي حين يبدأ الأديب في الكتابة .

ثـم أضاف : أما في أحيان أخرى، فقد كنت أبدأ القصة من نقطة الصفر ؛ أي أنني كنت أمسك القلم وأكتب جملة واحدة مثل : «دخل فلان الحارة»

دون أن أعـرف ماذا سـيفعل هذا الشـخص في الحارة أو مـا هي الأحداث التي ستشهدها الحارة، إلى أن أصل إلى نقطة أنتهي فيها من القصة .

قلـت : لكن تلك الطريقة الأخيـرة وراءها تجربة تأليف عمرها أكثر من نصـف قرن من الزمان، فهل يمكن أن تقول بالفعل إنك تدخل على القصة وأنت خالي الوفاض تماما؟

قـال : بالطبـع لا .. لأن نفسـي وإن بـدت خاوية من الأفـكار عند بداية الكتابـة، إلا أنهـا في الحقيقـة مليئة بالأفكار والاتجاهـات التي تفصح عن نفسـها أثناء الكتابة؛ لذلك فالقصة تأتي دائما متسـقة مع بقية كتاباتي وغير متناقضة معها .

قلت : تؤمـن مدارس النقد الحديث بأن العملية الإبداعية في جزء منها عمليـة واعيـة وفي جـزء آخر هي عمليـة غير واعيـة ؛ أي أن العمـل الفني لا يكمـن كلـه في العقـل الواعي وإنما جـزء منه يكمن في العقـل الباطن ؛ لذلـك فالفنـان لا يعي عملـه بالكامل منـذ البداية، لكن العمـل يفصح عن جوانب منه أثناء الكتابة .

قـال : وفي بعض الأحيان هو يفصح عن نفسـه في غيـر أوقات الكتابة؛ أي أثنـاء قيـام الفنان بأشـياء أخـرى ؛ إذ فجأة ترد له فكـرة لتطور جديد في قصته لـم تكن قد وردت على باله .

قلـت : وقـد كان كاتـب روسـيا الكبيـر ليـو تولسـتوي يقول إنـه كثيرا مـا كان يصحـو من نومه على فكـرة طرأت له كان يبحث عنهـا أثناء الكتابة ولا يجدهـا.. لكن ما هي التعديلات التي تسـميها «وحـي القلم»، وما هي حدودها؟

قال : مثلا في بعض الأحيان أجد أن شـخصية ثانوية تكبر وتأخذ أبعادا أكثـر بكثيـر مما كنت مقدرا لهـا، وفي أحيان أخرى تتغيـر النهاية عما كنت أتصوره .

قلـت : هل يمكـن أن تعطينـي أمثلة لبعـض أعمالك التـي كتبتها بتلك الطريقة وأخرى كتبتها بالطريقة الثانية؟

قـال : القصص القصيرة التي كتبتها في الفترة السـابقة مباشـرة لحادث الاعتـداء كتبـت كلها دون أن أعرف مسـبقا كيف سـتتطور، فكنـت أبدأها بالفعل بجملة أو بموقف لا أعرف مسبقا إلى أين سيأخذني .

أمـا «**الثلاثية**» مثلا فقد أمضيت وقتا طويلا جدا في تحديد شـخصياتها ومعالم كل منها والأحداث التي ستتعرض لها أثناء الرواية، إلى درجة أنني كنـت أحتفظ بفهـرس لكل شـخصية يتضمن كل ما يخصهـا من أوصاف، بما في ذلك صفاتها الجسدية والنفسية والأخلاقية .

قلت : وهل كنت ترجع إلى هذا الفهرس كلما عالجت هذه الشـخصية في الرواية ؟

قال : كنت أرجع إلى فهرس الشـخصية كلما وجدت نفسـي في حاجة لتذكـر شـيء، فـ«**الثلاثية**» كمـا تعلم شـخصياتها كثيـرة وأحداثهـا أكثر، وهـي ممتـدة عبـر ثلاثة أجيـال، ولـولا هـذا الفهـرس لتاهت منـي معالم الشخصيات.

ثـم قال مازحـا : لقد كان هذا الفهرس ينفعني جدا؛ حتى لا أظهر البطل مرة بعينين سوداوين، ومرة أخرى بعينين «بمبي»!!

قلـت : ألـم تكـن أثنـاء الكتابة تجـد أنك محتـاج لتغيير بعـض صفات هـذه الشـخصيات؟ .. ألم يكن يطـرأ مثلا موقف يتطلـب أن تكون إحدى الشخصيات ذات صفات تختلف بعض الشيء عما حددته مسبقا؟

قال : لا .. أبدا، فإذا طرأ مثل هذا الموقف، فإن الموقف هو الذي يتغير وليس الشخصية .

وعجبت لتلك الدقة المتناهية التي يتبعها الأستاذ في كتاباته وخاصة في رسم شخصياته؛ مما جعل كلا منها كيانا حيا يعيش بيننا ويجسد قيما معينة فـي حياتنـا، فمَن منا لا يعرف «سـي السـيد» مثلا أو زوجته أمينـة أو كمال عبـد الجـواد، ومَن منا لم يعايش كلا منهم وكأنه شـخصية حية ليسـت من وحي الخيال؟!

قلت للأستاذ : بهذا المعنى فإنه يبدو وكأن «**الثلاثية**» رغم ثراء الأحداث الذي تزخر به إلا أن المحرك الأول فيها بالنسبة لك كان الشخصيات وليس الأحداث، وإنك كنت تخضع الأحداث للشخصيات ؟

قال : هذا صحيح؛ لأن «**الثلاثية**» تعرض أساسا لحياة هذه الشخصيات في مجرى زمني ممتد .

قلـت : وماذا عن الفترة التي تسـتغرقها كتابـة كل قصة؟ هل القصة التي أعددت لها كل شـيء مسـبقا تأخذ مثـلا وقتا أقل في الكتابـة من تلك التي تبدأها مما يبدو أنه نقطة الصفر؟

قال : بل العكس هو الصحيح .. فالقصة التي أبدأها من الصفر تستغرق وقتـا أقل بكثير من تلك التي أمضيت وقتا طويلا في تحديد معالمها، فتلك

الأخيرة كنت أجيء في «التسويدة» الأولى فأكتب كل ما أعددته لها في ذهني إلى أن أنتهي منها في فترة شهر أو شهر ونصف الشهر، ثم أبدأ بعد ذلك عملية «التبييض» التي هي «الشغل» الجد والجهد الحقيقي الذي يستغرق مني بقية السنة في إعادة الكتابة والحذف والإضافة، إلى أن أشعر بأن الرواية قد وصلت إلى شكلها النهائي المكتمل .

قلت : وبالنسبة للمسودة الأولى التي تحدثت عنها .. هل يمكن القول بأن تلك الدفقة الأولى هي نتاج الموهبة الأدبية حين تجيئها لحظة الإلهام، وأن الأشهر التالية التي تعيد فيها الكتابة عدة مرات هي الحس النقدي للأديب؟ .. أي أنك في هذه الفترة تنظر إلى الرواية بعين الناقد فتغيّر فيها ما يستدعي التغيير؟

قال : بلا شك إن الكاتب خلال فترة «التبييض» يعمل حسه النقدي، لكن موهبته في أثناء ذلك لا تكون معطلة، فهو يعمل النقد والموهبة معا.

قلت : أذكر أن الأستاذ إحسان عبد القدوس قال لي مرة إنه عند الانتهاء من الكتابة الأولى للقصة لا يعود لقراءتها مرة ثانية، وحين سألته عن السبب في ذلك قال : لأني في كل مرة أعيد قراءتها أغيّر فيها !!

فقال الأستاذ : لا تنس أن إحسان كان صحفيا ؛ أي أنه تعوّد أن يكتب في وقت محدد، وإلا فاته موعد الطبع، فالجريدة لا تستطيع انتظار الكاتب الذي يعيد كتابة مقالاته عشرات المرات قبل أن يبعث بها إلى المطبعة، ويبدو أن إحسان طبّق ذلك في كتاباته الأدبية أيضا ؛ لذلك فإن مَن هو مثل إحسان تجد كتابته الأولى جميلة تقرأ لأنه قصد لها أن تخرج مكتملة من

أول كتابـة، أمـا أنا فـإذا اطلعت علـى كتابتي الأولى لأي قصة فسـتضحك منها.

قلت : هل تحتفظ بالمسودات الأولى لرواياتك؟

قال : لا الأولى ولا الثانية ولا أي مسـودة، فبمجرد أن أنتهي من الرواية أقـوم بتقطيـع كل أوراقها، أيـن تريدني أن أضع كل ذلـك؟! .. إنني بحاجة إلى مخزن كامل .. لا، لقد كنت أعدمها ما عدا النسخة النهائية التي أرسلها للآلـة الكاتبـة تمهيدا لإرسـال نسـخة إلـى «الأهـرام» وأخرى إلى الناشـر سعيد السحار، وحين تعود إليّ الرواية بعد ذلك في بضع نسخ من الكتاب المطبوع فإني أرسـلها كلها إلى أصدقائي فلا يتبقى عندي منها شـيء .. إلا الذكرى الحسنة!!

ويضحك الأسـتاذ وأضحـك معه، لكنني أعود فأسـأله : ألم يحدث في بعض الأحيان أن توقفت القصة في مرحلة المسودة الأولى ولـم تكتمل ؟

قـال : حـدث لي ذلك مرة واحدة فقط طوال حياتـي الأدبية، فقد بدأت فـي كتابة روايـة لكنها لم تصل إلى مرحلة النضـج، وكنت في ذلك الوقت أشـترك في كتابة أحد السـيناريوهات السـينمائية وتصورت أن بعض ما في القصة قد يفيد السـيناريو، فأعطيتها للسيناريست الذي كان يعمل معي ولم أعد إليها ثانية .

قلت : ماذا كان موضوعها؟

قـال : لسـت أذكر، كل ما أذكـره أنني وجدت أنني قـد عبّرت عن نفس الموضوع بطريقة أفضل في روايات سابقة، فلم أجد الدافع لاستكمالها .

قلت: متى كان ذلك؟

أعتقد أن ذلك كان في بداية السبعينيات؛ وتفسيري لذلك أنه كانت لدي الرغبة في الكتابة، ولكن لم يكن لدي ما أكتبه؛ لذلك أعدت كتابة ما سبق أن كتبته من قبل .

ووجدت في ذلك فرصة لأسأل الأستاذ عن نقطة أخرى، اختلف حولها الكثير من منظري العملية الإبداعية في العالم، فقلت : هل يكفي يا أستاذ نجيب أن يكون لدى الكاتب الرغبة في الكتابة لكي يبدع ؟ أم أنه يجب أن يكون لديه أيضا موضوع مكتمل؟

قال : الرغبة في الكتابة ليست هي كل شيء ولكنها ضرورية، فبدونها لا تكون هناك كتابة. وأذكر أنني في فترة من حياتي ذهبت عني هذه الرغبة، وقد كانت لدي آنذاك مجموعة أفكار وموضوعات أحتفظ بها في عدة «كشاكيل»، لكني لم أكتب منها شيئا، وكان ذلك في الفترة من 1952 إلى 1956 ، وهي سنوات الجفاف في حياتي .

قلت : وهل واتتك الرغبة في الكتابة دون أن تكون لديك موضوعات تكتب فيها ؟

قال : نعم .. وهذا هو ما جعلني أبدأ بعض القصص من الصفر كما شرحت لك منذ قليل .

قلت : وأين أنت الآن يا أستاذ نجيب من حالة الإبداع ؟

قال : أشعر لأول مرة منذ سنوات بالرغبة في الكتابة، ولكن ليست لدي في هذه اللحظة موضوعات جاهزة لذلك، فأنا في حالة بحث عن

الموضوع الذي يمكن أن يهز وجداني ويتخلق أمامي في شكل أحداث روائية، فالموضوعات حولنا في كل مكان وقراءة الجريدة تكفي لإعطاء الكاتب أكثر من موضوع، لكن هناك دائما موضوعا معينا هو الذي «يشبك» مع الكاتب، وهو قد يجده في الجريدة أو في حديث لصديق أو في حادثة شخصية أو قد يختلقه من خياله .

ثم أضاف : هذا هو الموضوع الذي يهتز له وجدان الكاتب، والذي يدفع الأديب إلى الكتابة، بينما يمكن أن يمر عليه موضوع آخر مر الكرام..

وبعد لحظة صمت يقول الأستاذ : من الصعب أن أصف هذه الحالة التي يلمع فيها أمام الكاتب شيء كالبرق، لكني أستطيع أن أقول: إن الكاتب حين يمسك بالبرق، فإن تلك تكون هي بداية العملية الإبداعية .

ثم يصمت ثانية وأصمت معه احتراما لما قد يكون يفكر فيه، إلى أن يقول: إن الصعوبة التي أواجهها الآن هي أنني أشعر بأنني كتبت كل ما كنت أريد كتابته، ولم يتبق شيء لم أكتبه، ففي الماضي مثلا كنت وأنا أكتب «**زقاق المدق**» تجيئني فكرة «بداية ونهاية» .. وربما مشهد من مشاهد «**الثلاثية**» أو موقف منها، والآن أريد الكتابة، لكن الصعوبة في أن أجد ما لم أعالجه من قبل في كتاباتي السابقة .

قلت : هل تفتقد الكتابة يا أستاذ نجيب؟

قال بلا لحظة تفكير واحدة : جدا .. وأكثر منها القراءة، فالقراءة هي التي كانت تدفعني للكتابة .

قلت : عسى أن يزيد هذا الحديث من حماسك للعودة إلى الكتابة ..

قـال : أتعـرف لماذا أعلنت لك أنني قد عاودتنـي الرغبة في الكتابة ؟ .. حتـى ألتزم بذلك، فقـد كان من الممكن أن أحتفظ بتلك الرغبة في نفسـي إلى أن أكتب قصة جديدة فأنشرها، لكني رأيت أن أطلعك على تلك الرغبة حتى تشاركني في ذلك، فأضطر لتلبية ما هو منتظر مني ..

قلت : وأنا سأنشر ذلك حتى يشاركنا القراء فتتسع دائرة التزامك لتشمل قرائك على امتداد الوطن العربي بل والعالم أجمع ..

الكراسات المفقودة

احتفظ الأستاذ نجيب محفوظ على مدى حياته الأدبية بثلاث كراسات كان يدون فيها الأفكار التي كان ينوي تحويلها إلى روايات، أو الملاحظات التي كان يسترشد بها عند كتابته أعماله الروائية، وللأسف فإن الكراسات الثلاث قد فقدت ولم يعد لها الآن وجود .

أما الكراسة الأولى فكانت تلك التي كان يحتفظ بها الأستاذ في المرحلة الأولى من حياته الأدبية حين عكف على كتابة الروايات المستوحاة من التاريخ المصري القديم، وقد حدثني عن تلك الكراسة فقال : كنت أنوي كتابة تاريخ مصر القديمة عن طريق الروايات كما فعل «سيروالترسكوت» مع التاريخ الاسكتلندي ؛ لذلك كنت اقرأ في هذا التاريخ وأدون في كراستي ما يصلح منه كي يتحول إلى رواية، وقد تجمع لديّ ما يصلح لكتابة حوالي أربعين عملا، لكني فجأة كما تعلم تحولت عن الموضوعات التاريخية إلى الواقع فنحيت الكراسة جانبا ولم يعد لي حاجة إليها، ولا أعرف الآن أين ذهبت !

أما الكراسة الثانية فكانت تلك التي تضمنت أفكار أديبنا الأكبر التي صنع منها «الثلاثية»، وكان الأستاذ يحتفظ في تلك الكراسة بوصف كامل

لكل شخصية من الشخصيات الرئيسية، وقد قال لي : كنت أعود إلى تلك الكراسة طوال فترة كتابتي لروايات «**الثلاثية**» حتى لا أحيد عن طبيعة كل شخصية والأحداث المتصلة بها، ولولا تلك الكراسة لفلتت الأمور من يدي، وبعد أن انتهيت من «**الثلاثية**» لم تعد لي حاجة لتلك الكراسة أيضا فلم أحتفظ بها .

ثم يضيف الأستاذ : وهكذا أصبح وجود مثل هذه الكراسة إلى جانبي شيئا أساسيا، فقد وجدت نفسي بعد ذلك أدون في كراسة ثالثة الأفكار التي كانت ترد لي، والتي كنت أعتزم العودة إليها وقت الكتابة، وهذه الكراسة الأخيرة أعطيتها طواعية لعبد الرحمن الشرقاوي ؛ لأنه أعجب بمشروع رواية دونتها فيها، وكانت تحمل اسم «العتبة الخضراء»، وتحكي قصص بعض المارة في ميدان العتبة المزدحم بالناس، وقد قال لي الشرقاوي إنها تصلح موضوعا لمسرحية، وأستأذنني في أن يكتبها فأعطيته الكراسة، لكنه لم يكتب المسرحية، وهكذا فلا أفادتني هذه الكراسة ولا أفادت الشرقاوي!

قلت : إن الكراسات الثلاث كانت ستفيد المتخصصين في أعمالك من النقاد والباحثين فائدة جمة، ومتاحف العالم مليئة بالوثائق الشخصية للأدباء والتي توضح طريقة عملهم وتطورات عملهم الإبداعي .

هذا ما قاله أديبنا الأكبر عن كراساته الثلاث المفقودة، فهل يسعد حظ الباحثين أن تظهر فجأة إحدى هذه الكراسات، ربما بين أوراق عبد الرحمن الشرقاوي أو حتى لدى بعض بائعي «الروبابيكية»؟!. لقد ظهر في إنجلترا منذ سنوات خطاب كتبه برناردشو لناشره عن مسرحيته «السلاح والرجل» وقت كتابته لها فأثار اهتماما هائلا في الأوساط الأدبية، وأعمال نجيب محفوظ ليست أقل قيمة من أعمال شو !

التوقف عن الكتابة

تعرض كاتبنا الأكبر نجيب محفوظ مرتين في حياته لحالة من العقم الفني لازمته لبضع سنوات في كل مرة، أما المرة الأولى فكانت بعد قيام ثورة يوليو عام 1952 ؛ حيث توقف الأستاذ عن الكتابة لمدة سبع سنوات كاملة تصور خلالها أن معينه الروائي قد نضب فاتجه إلى كتابة السيناريوهات السينمائية، وحين انضم إلى النقابة سجل نفسه ككاتب للسيناريو وليس كروائي .

ولقد سألت الأستاذ ذات مرة عن سبب ذلك، فقال : لقد كانت أعمالي السابقة على الثورة تتطلع دائما إلى تحقيق الآمال الوطنية التي نشأ عليها جيلي، مثل جلاء المستعمر وإعلان الاستقلال، ومثل تحقيق العدالة الاجتماعية وبناء الدولة الحديثة. ولقد حققت الثورة الكثير من هذه الأحلام ؛ لذلك لم أعرف عن ماذا أكتب، طبعا في السنوات التالية كانت لي تحفظات كثيرة على مسار الثورة ، لكن في تلك السنوات الأولى كانت الثورة تمثل لي كل الآمال الوطنية التي كنا نتطلع إليها، من عزل الملك وإعلان الجمهورية وتوقيع اتفاقية الجلاء إلى الإصلاح الزراعي ومجانية التعليم .

والحقيقة أن نجيب محفوظ كانت لديه إلى جانب تلك الأسباب السياسية، التي دفعته إلى التوقف عن الكتابة لأول مرة منذ نشرت له أول رواية عام 1938، أسباب شخصية وأخرى فنية، أما الأسباب الشخصية فقد تمثلت في أن محفوظ في ذلك الوقت كان قد انتهى من كتابة «**الثلاثية**» التي استهلكته على مدى أربع سنوات من العمل الشاق، فلم يعد قادرا على مواصلة العمل بعد ذلك، وكان في حاجة للابتعاد عن الكتابة لفترة، وأما السبب الفني فإنه كان قد وصل بالاتجاه الواقعي في «**الثلاثية**» إلى قمته ولم يعد قادرا على الاستمرار في نفس الأسلوب الفني، وكان عليه أن يبحث عن اتجاه جديد، وهذا هو بالضبط ما حدث، فبعد سنوات التوقف عاد إلينا محفوظ برائعته «**أولاد حارتنا**» التي انتقل بها إلى مرحلة جديدة تماما في إنتاجه الأدبي هي مرحلة ما بعد الواقعية، والتي اتسمت بقدر كبير من الرمزية غير موجود في أعماله السابقة .

أما فترة التوقف الثانية فكانت في عام 1987 قبيل حصول محفوظ على نوبل، وقد قارن هو بين فترتي التوقف، فقال : في المرة الأولى كان ذهني خاليا تماما من الأفكار، أما في الفترة الثانية فكان رأسي مليئا بالأفكار لكني كنت أفتقد الرغبة في الكتابة ؛ حيث كنت أجلس إلى مكتبي والأفكار في رأسي، لكني لا أجد ما كان يدفعني في المضي إلى وضع هذه الأفكار على الورق .

وقد جاءت بداية هذه المرحلة بعد أن انتهى من رواية «**قشتمر**» التي حصل على نوبل وقت أن كانت تنشر مسلسله في «الأهرام»، وهو يعتقد أن السبب في ذلك هو ضعف بصره الذي جعل عملية الكتابة أشق عليه مما كانت من قبل .

لكـن الكاتب الحق لا يسـتطيع الإقلاع عن الكتابـة مهما حدث، لذلك فمثلمـا عاد محفوظ في المرة الأولى بـ «**أولاد حارتنا**»، فقد عاد هذه المرة بـ «**أصداء السـيرة الذاتية**»، التـي مثلت هذه المرة أيضـا مرحلة جديدة في الأدب المحفوظـي اسـتمرت معـه حتـى «**أحلام فتـرة النقاهـة**»، التي ظل يكتبها حتى آخر أيامه، ولم ينشر البعض منها إلا بعد رحيله .

العودة للكتابة

لاشك أن هذا هو أهم خبرا أدبي عربي هذا العام، بل قد يكون أيضا أحد أهـم الأخبار الأدبية في العالـم .. فحين يعود أحد أكبر أدباء العالـم الفائزين بجائـزة نوبل إلى الإبداع بعد فترة توقف دامت أكثر من أربع سـنوات، فإن ذلك يعد حدثا أدبيا وثقافيا لا يمكن التقليل من أهميته، فمنذ تعرض أديب مصر الكبير نجيب محفوظ لمحاولة الاغتيال الغاشـمة مسـاء يوم الجمعة 14 أكتوبر 1994 ، وجاءت طعنة الغدر في الجانب الأيمن من رقبته تعطلت تماما ذراعه اليمنى، ولـم تعد أصابعه تستطيع الإمساك بالقلم، فكان آخر ما سـطره قلمه قبل الحادث بـ 24 سـاعة فقط هو أقصوصـة صغيرة أكمل بها مجموعة الأقاصيص التي ظلت تنشر بقلمه خلال السنوات الأربع الأخيرة، لكنـه أخبرني أخيـرا أنه بدأت تراوده لأول مرة منذ توقف عن الكتابة أفكار لأعمال أدبية جديدة، كتلك التي أثرى بها حياتنا الأدبية طوال ما لا يقل عن نصف قرن من الزمان .

وطوال السـنوات الأربع الأخيرة كان محفوظ - تنفيذا لأوامر الأطباء- يتـدرب يوميـا على الكتابـة في كراسـة كالتي يكتـب بها الطلبـة واجباتهم المدرسـية، وقـد تحوّش لدى محفوظ مجموعة كبيرة من هذه الكراسـات

يشـهد تسلسلها على التقدم البطيء الذي أحرزته إرادته الفولاذية في إعادة أصابـع يده إلـى الإمسـاك بالقلم، وخط أحـرف عربية طالمـا تحولت بين أنامله السحرية إلى روائع أدبية مجيدة ليس كمثلها أعمال .

وفي جلسـتي الأسـبوعية الأخيرة مع الأسـتاذ نجيب محفوظ، فاجأني بأنـه اتسـاقا مع التقـدم الذي أحرزتـه يده، فإن عقلـه بدأ يتفتـح مرة أخرى للكتابة الأدبية .

والحقيقةأننـي طـوال السـنوات الأخيرة كثيرا ما سـألت الأسـتاذ لماذا لا يملي ما قد يود كتابته مادام لا يستطيع أن يكتبه بنفسه .. وقد عرضت أن أحضـر له جهازا يملي عليه ما يريد وقتمـا يريد، ثم يجري تفريغه بعد ذلك وعرضه عليه للتصحيح والتنقيح، لكنه كان يقول إنه طوال حياته لم يعرف وسيلة أخرى للكتابة غير القلم الذي بين يديه، والذي يعتبر - على حد قوله - الأصبع السادس في يده، والذي بدونه لا تأتي إليه الأفكار ولا العبارات، فعملية الإبداع كثيرا ما تتحول عند الفنان إلى نوع من الطقس يجب اكتماله حتـى يخرج العمل الفني إلى النور . وطقـوس الكتابة عند نجيب محفوظ كان القلم والورقة دائما جزءا أساسـيا منها، وقد قال لي محفوظ ذات مرة: لـو كنت مثل طه حسـين قـد تعودت الإملاء، لأمكننـي أن أؤلف الآن دون الحاجة إلى الكتابة، لكني لـم أتعودها .

وإلـى جانب أن خط الإبداع الفنـي عند محفوظ لم يمر قط عبر الإملاء فـإن محفوظ أيضا لم يلجأ أبدا إلى الآلـة الكاتبة أو الكمبيوتر، وإنما ظلت أداة الكتابـة عنـده هي يده ولا شـيء غيرهـا، ومع تعطل هـذه الأداة توقف لحيـن معين الإبداع الأدبي الذي ظـل يثري الحياة الأدبية العربية لأكثر من نصف قرن من الزمان .

وقد اطلعت أكثر من مرة على «كراسة الواجب» التي كان محفوظ يتدرب فيها على الكتابة، فكانت أعدادها الأولى لا تتضمن أكثر من بعض أسماء أصدقائه أو أرقام تليفوناتهم، والحقيقة أنني في معظم الأحيان لم أكن أستطيع تبينها، لكني كنت أطمئن كاتبنا الكبير أنها واضحة ومقروءة، فكان كثيرا ما يختبرني، فيقول لي : هل وجدت اسمك بين هذه الأسماء أم أنني لم أكتبه هذه المرة؟ .. وعندئذٍ كنت أبحث جاهدا حتى أجد أقرب شيء إلى أحرف اسمي لكي أجيب على السؤال .

ثم تابعت تطور تدريبات الكتابة حتى جاء يوم تحقق فيه إنجاز كبير حين أصبحت اليد تكتب على السطر ولا تنزل عنه كما كان الحال في البداية، وتأثرت لموقف الكاتب الكبير الذي كرمه العالم بأكبر جائزة عالمية على ما كتب، ثم عاد وقد قارب سن التسعين إلى التدرب مرة أخرى على الكتابة وكأنه يتعلمها لأول مرة، وذلك موقف كان يكفي لكي يصيب صاحبه باليأس الكامل من الحياة، أما نجيب محفوظ ذلك العملاق الهادئ الوديع، فقد كان فرحا بما تحقق من تقدم وما استطاع بإرادته التي لا تلين أن ينجزه .

ولقد طلبت من الأستاذ أن أستعير تلك الكراسة التي استطعت لأول مرة أن أقرأ ما بها من كتابة تقترب كثيرا من خط يده المميز ذي الأحرف الكبيرة الواضحة، والذي يعرفه أصدقاؤه جيدا، فاستجاب الأستاذ إلى طلبي، لكنه في مقابلتنا التالية وقبل أن أردها إليه سألني عن تلك الكراسة التي وجدت أن اعتزازه بها لم يكن يقل عن اعتزازي .

ثم كان ذلك اليوم حين أطلعني الأستاذ على أنه لأول مرة منذ سنوات بدأت تراوده بعض الأفكار لكتابات جديدة، وأوضح أنه منذ بضعة أسابيع

بدأ يساوره القلق بعد أن وجد أن مجموعة الأقاصيص القصيرة التي كانت قد تجمعت لديه قبل الحادث - وكان بين الحين والحين يسلم إحداها لمجلة «نصف الدنيا» لتقوم بنشرها - قد نفدت عن آخرها، وكان نشر هذه القصص بشكل دوري يحافظ على إحساس الكاتب الكبير بأن الصلة المتجددة بين معين إبداعه وبين جمهوره مازالت قائمة لم تنقطع، لكنه فجأة وجد هذه الصلة مهددة بالزوال بعد أكثر من خمسين عاما من الاتصال المستمر .

وقال الأستاذ : كانت هذه القصص موضوعة في ملف خاص، وكلما طلبت مني قصة الست سناء - يقصد الكاتبة سناء البيسي رئيسة التحرير - كنت أفتح الملف وآخذ منه واحدة أو اثنتين فأراجعها وأبعث بها إليها، لكني في المرة الأخيرة وجدت الملف فارغا فأخذت أقلبه وأبحث على الأرض ربما وقعت منه بعض الأوراق دون أن أدري، وعندئذٍ بدأ ينتابني قلق شديد .. ماذا سأفعل الآن؟.. هل سأتوقف عن النشر نهائيا؟ .. لقد كانت هذه المجموعة الكبيرة من القصص تمثل رصيدا كبيرا تصورته لن يفنى، لكن ها هي القصص قد نفدت عن آخرها، فماذا أفعل؟ .. وأحسست بأنني ملتزم بهذا النشر الذي اتفقت عليه مع الست سناء ووجدت أن عليّ مسئولية أدبية أن ألبي هذا الالتزام .

ومَن يعرفون الأستاذ نجيب محفوظ جيدا يعرفون معنى الالتزام عنده ومعنى الإحساس بالمسئولية، ومعنى ألا يخذل أحدا، فمع كاتب آخر كان الموقف سيختلف، فإذا لم يكن قادرا على الكتابة فهو لن يكتب، وكل ما كان سيتطلبه ذلك منه هو الاعتذار ليس أكثر، أما مع محفوظ فالالتزام التزام .

وقلت لمحفوظ : لكن في جميع الأحوال فإن القصة التي ستجيء نتيجة لعودتك إلى الكتابة أتصور أن تنشر في ملحق عدد الجمعة بـ «الأهرام» ؛ حيث كنت تنشر رواياتك في السابق، وسيكون الناشرون في العالم كله في انتظار نشرها حتى يسارعوا بترجمتها، فقال لي : لكني اتفقت مع الست سناء، وقد ارتحت لنشر القصص الأخيرة في «نصف الدنيا»، كما أننا أفسحنا المجال في ملحق الجمعة لغيرنا فلندع كلا يأخذ دوره .

وسألت : أين وصلت في عملية إبداعك الجديد؟

قال : مازلت في البداية، فعقلي الذي كان قد ركن في السابق إلى وجود ما ينشر من كتابات جديدة بين الحين والحين، بدأ الآن يتلمس بعض المواقف والأفكار التي أخذت تبرق في خيالي ثم تمضي، وهذا لم يكن يحدث لي في الفترة الأخيرة .

وبعد لحظة صمت قال الأستاذ : لقد بدأت بالفعل أضع بعض الجمل على الورق بهذا الخط غير المقروء الذي أنت أكثر مَن يعرفه .

قلت : لكن خطك يا أستاذ نجيب أصبح الآن مقروءا لا مشكلة فيه، قد لا يكون جميلا كما كان في السابق، لكني أستطيع قراءته .

قال : لكن مازالت هناك دائما بعض الكلمات التي تستعصي على القراءة .

قلت : إذن فأنت مثلنا جميعا، فكم من الكلمات نكتبها ولا يستطيع أحد قراءتها، فتعود إلينا من المطبعة في «البروفة» بمعنى يختلف تماما عما قصدناه، بل إنك في ذلك يا أستاذ نجيب أفضل بكثير من الأطباء

الذين يشرفون على علاجك، والذين لا يستطيع أحد قراءة ما يكتبون غير الصيادلة المتدربين .

فقال : على أي حال رداءة الخط ليست هي المشكلة الوحيدة، فهناك هذا القلق الذي ينتابني ما بين فكرة انتهاء الصلة تماما مع القارئ من ناحية، ومحاولتي من ناحية أخرى الإمساك بتلك الأفكار التي أصبحت تبرق في خيالي .

قلت : لكنك مررت في الخمسينيات بمرحلة مشابهة حين توقفت عن الكتابة لفترة تقرب من السنوات الأربع ..

قال وكأنه قد تذكر شيئا غاب عنه : هذا صحيح .. كنت وقتها قد انتهيت من «**الثلاثية**» وتصورت أنني أفرغت كل ما كان عندي، ولم يعد لدي شيء آخر أقدمه لدرجة أنني اتجهت إلى كتابة السيناريوهات؛ لأنني لم أجد القدرة على كتابة روايات جديدة، وسجلت نفسي بالفعل بنقابة السينمائيين ككاتب سيناريو، لكن فجأة عاودتني مرة أخرى أفكار جديدة أخذت تلح عليّ وواصلت المشوار .

قلت : كأنك يا أستاذ نجيب تتحدث عن حالتك الراهنة ..

وبعد لحظة صمت بدا لي فيها الأستاذ شاردا ينتظر شيئا ما، قلت له : هل تبينت أي معالم للعمل الجديد ؟

قال : لست أعرف بعد .. كل ما أتمناه أن يقبل هذا العمل كما هو، فقد يكون عملا كبيرا، وقد يكون أقصر مما تتصور .

قلت : إن من أجمل ما كتبت يا أستاذ نجيب كان «**أصداء السيرة الذاتية**» وقد كتبت كلا منها في سطرين أو ثلاثة ليس أكثر، ومع ذلك حين صدرت ترجمتها أخيرا باللغة الإنجليزية، كتبت عنها الكاتبة العالمية نادين جورديمر الفائزة بجائزة نوبل أنها «زبد الفكر الإنساني كله»، فلا تقلق فإن أي شيء ستقدمه لنا سيكون عظيما، وسنكون ممتنين لك مهما كان حجمه .

قال مازحا : بس ربنا يجيب .. فقط لا أريد أن يطلب مني أحد شيئا .. حين سيجيء ما سيجيء سأقدمه للناس، حتى لو لم يزد في حجمه على حجم الكف !

قلت : قد يكون في حجم الكف، لكنه بالتأكيد سيسر مائة وألفا!

فضحك الأستاذ ملء شدقيه ضحكة مليئة بالبهجة افتقدتها منذ فترة طويلة، فتطلعت إلى ما سيجود به قلمه من روائع افتقدناها منذ فترة ليست بقصيرة .

الرواية الفرعونية

زار مصر هذا الأسبوع كاتب فرنسي هو حديث الأوساط الأدبية الآن في العالم وهو كريستيان جاك الذي تخصص في كتابة الروايات المستمدة من التاريخ المصري القديم، وقد كانت آخر رواياته هي تلك التي يتحدث فيها عن فرعون مصر العظيم رمسيس الثاني، والتي ترجمت إلى معظم لغات العالم (فيما عدا العربية!!) وبيعت منها أكثر من 11 مليون نسخة؛ مما جعل الناشرين في جميع أنحاء العالم يتسابقون للحصول عل نشر رواياته .. والحقيقة أن الروايات الأدبية التي تدور أحداثها في مصر القديمة ليست ظاهرة جديدة، فقد عرف الأدب العالمي على مر تاريخه روايات مماثلة راج الكثير منها، وإن كان لم يصل أبدا لحجم الانتشار الذي تحققه الآن روايات كريستيان جاك، وربما كانت أشهر هذه الروايات هي رواية «سنوحي المصري» التي كتبها الفنلندي ميكافالتاري في الأربعينيات من القرن العشرين، وحققت نجاحا بعد ترجمتها إلى معظم لغات العالم؛ مما شجع هوليوود على إنتاجها في أحد أجمل أفلامها وكان عنوانه : The Egyptian .. ونحن في مصر كثيرا ما ننسى أن أديبنا الأكبر نجيب محفوظ بدأ حياته بكتابة الرواية الفرعونية، وكان يعتزم أن يوقف حياته الأدبية كلها على تحويل تاريخ مصر القديم إلى أدب روائي، لكن في

الوقـت الـذي كان اهتمام كريسـتيان جاك الأول هـو التاريخ، فـإن اهتمام محفوظ كان دائما بالأدب، وهكذا دخل الكاتب الفرنسـي الأدب من باب التاريخ بينما دخل الأديب العربي التاريخ من باب الأدب !

وبالمصادفـة البحتـة تصدر اليـوم بالتحديد (20 مـارس) رواية جديدة لكريسـتيان جـاك في 60 دولة مختلفة في العام مترجمـة إلى 22 لغة وبعدد مليون ونصف مليون نسخة كطبعة أولى، من بينها 200 ألف نسخة في فرنسا وحدها ، أما الرواية فاسـمها «نيفر الصامت» Nefer le Silencieux، وهي الجزء الأول في رباعية يعتزم كريستيان جاك إصدارها بعنوان : «حجر النور» La pierre de lumiere، ولقـد عَرفت كريسـتيان جـاك في عام 1988 ولـم يكـن وقتها كاتبا روائيا بل كان عالما للآثـار المصرية، وكنت وكيلا لوزارة الثقافـة للعلاقـات الخارجية، وكنت قد قرأت بعـض الكتب التي أصدرها كريسـتيان جاك عن مصر القديمة، فوجدت فيها فهما عميقا للحياة اليومية في بلاد الفراعنة ينم عن حب شـديد لمصـر القديمة وتاريخها، وذلك بعد أن حصل على درجة الدكتوراه في موضوع مثير هو: التحولات التي طرأت على الإنسـان المصري القديم في رحلته إلـى العالم الآخر ؛ لذلك فعندما لجأ إليّ طالبا تصريحا خاصًا لزيارة بعض الأماكن الأثرية التي كانت تهمه، تحدثت إلى رئيس هيئة الآثار آنذاك فمنحه تصريحا لزيارة جميع المواقع، وبعد عودته إلى فرنسا أرسل لي كريستيان جاك أحدث كتبه بإهداء رقيق .

وبعـد سـنوات من الجهـد المضني فـي البحث فـي التاريـخ المصري القديم ونشـر الكتـب التاريخية، قرر كريسـتيان جاك الاتجـاه إلى التأليف الروائي مستثمرا كم المعرفة التي تكونت لديه عن الحياة في مصر القديمة،

وكانـت المفاجأة هي أن روايتـه باعت أضعاف ما باعته باقي كتبه مجتمعة، فقرر الرجل الاستمرار في هذا الطريق . وفي العام الماضي حين صدرت روايتـه الأخيرة عن رمسـيس الثانـي صدر في نفس الوقـت كتاب آخر عن نفس الفرعون العظيم لعالمة المصريات الفرنسـية ذائعة الصيت كريستيان ديروش نوبلكور، لكن رواية كريسـتيان جاك الأدبية باعت بالملايين، بينما لم تزد مبيعات كتاب عالمة المصريات على بضعة آلاف .

على نفس الساحة العالمية تجد روايات نجيب محفوظ التاريخية رواجا كبيـرا في الوقت الحالي، وذلك بعد أن تمـت ترجمتها متأخرة بعد رواياته الأخـرى، رغـم أنه كتبها قبلها، فقد صدرت «**عبـث الأقدار**» لأول مرة عام 1939 و«**كفـاح طيبة**» عام 1944 . وفي آخر زيـارة لي لباريس كان الجميع يتحدثـون عـن روايات محفـوظ الفرعونية باعتبارها اكتشـافا جديدا، وفي العام الماضي قررت جريدة «الموندو» الإسبانية واسعة الانتشار نشر رواية «**كفاح طيبة**» بالإسـبانية في محلق خاص مع الجريدة، بعد أن تم اختيارها كواحدة من أهم الروايات التي صدرت في العالم خلال القرن العشرين .

ولقد اعترف لي نجيب محفوظ بأن عينيه وقت كتابته لرواياته الفرعونية الثـلاث بالإضافـة إلـى بعـض القصـص القصيرة الأخـرى، لـم تكن على التاريخ المصري القديم، وإنما على مصر المعاصرة وما يشغلها من قضايا، وقـد كانت مصر وقت صـدور هذه الروايات تناضل من أجل الاسـتقلال، وكانـت خارجـة لتوها من ثـورة 1919 وأزمة دسـتور 23 وتعاظـم الحركة الوطنيـة التـي أحدثت صحـوة كبيرة فـي وجدان الأمـة، كمـا كان التاريخ

المصري القديم يكشف عنه النقاب بعد اكتشاف هوارد كارتر مقبرة توت عنخ آمون عام 1922، وقد اجتمعت كل هذه العوامل في روايات محفوظ الأولى التي عبرت عن النزعة الوطنية التي سادت الحياة في مصر في ذلك الوقت، واعتبرها مؤرخو الرواية إسهاما مهما في خلق فن روائي مصري وفي تصوير الشخصية المحلية، فإذا نظرنا إلى رواية **«رادوبيس»** أو **«عبث الأقدار»** أو **«كفاح طيبة»** نجد أن بكل منها ما يفيد في فهم الواقع أكثر مما يفيد في معرفة التاريخ، فالكاتب هنا لم يهتم كثيرا بالتدقيق في التفاصيل التاريخية، بل اكتفي بما يتيح له إضفاء الجو التاريخي المطلوب على موضوعه الذي كان موضوعا وطنيا معاصرا، وإذا كانت **«كفاح طيبة»** تصور نضال الشعب من أجل التحرر والاستقلال، فإن تلك كانت قضية الشعب المصري وقت صدور الرواية، وقد كان هذا هو سبب اختيار جريدة «الموندو» لها كواحدة من أهم روايات القرن العشرين؛ لأنها عبّرت في موضوعها عن إحدى القضايا المهمة التي شغلت العالم في ذلك القرن وحددت مسار الأحداث السياسية فيه، ألا وهي قضية التحرر والاستقلال التي كانت السمة المميزة لتاريخ القرن العشرين، وقد جسدت **«كفاح طيبة»** هذا المعنى وأضفت عليه بعدا تاريخيا فريدا. إن **«كفاح طيبة»**، مثلها كمثل **«رادوبيس»** قد عكست آمال الأمة المصرية في التحرر وتحقيق النهضة الوطنية، كما عبرت عن تطلع الشعب المصري إلى ماضيه المجيد يستمد منه العون على طرد المستعمر وتحقيق الاستقلال، فكانت الرواية بذلك رمزا لحركة التحرر الوطني في العالم كله.

ولقد كان نجيب محفوظ أول المفاجئين بالإقبال الذي لاقته رواياته التاريخية في الخارج، وأذكر أنني حين أخبرته باختيار **«كفاح طيبة»** كواحدة

من أهم روايات القرن العشرين أنه استكثر ذلك، إلى أن شرحت له حيثيات هذا الاختيار .

ولاشـك أن الولع بما ينتمي لمصر القديمة المنتشـر في الغرب والذي يصل إلى قمته في فرنسـا بما يعرف باسم «الجنون بمصر» Egyptomanie هـو أحـد أسـباب رواج روايـات محفوظ وكريسـتيان جاك معـا، لكن إلى جانب ذلك هناك أيضا الحبكة المثيرة التي كانت السـمة المميزة لكتابات أديبنا الأكبر في هذه المرحلة المبكرة من إنتاجه الأدبي .

ولقـد بدأ اهتمام نجيب محفوظ بالتاريـخ المصري القديم منذ الصغر؛ حيـث روى لـي أن والدتـه كثيرا مـا كانت تأخذه وهـو طفل لزيـارة الآثار القديمـة وتأمل عظمتها، وقد لا يعرف البعـض أن أول كتاب صدر لأديب نوبـل الكبير لم يكن عملا روائيا، وإنما كان كتابا تاريخيا عن مصر القديمة ترجمـه محفـوظ عـن الإنجليزيـة وقـت كان طالبـا بالجامعة فـي الحادية والعشـرين من عمره، وبرغم أن دراسـته الجامعية كانت في الفلسـفة، فإن الكتـاب الـذي اختـار أن يترجمه كان فـي التاريخ المصـري القديم، وكان اسـمه «**مصر القديمة**» للمؤلف البريطاني جيمس بيكي حاملا اسـم نجيب محفـوظ كمترجـم وقـد صـدر عـام 1932، ومـن الواضح أن ما اسـتهوى محفـوظ في هـذا الكتاب الذي لا تزيـد صفحاته على المائـة، هو أنه يقدم فـي كل فصل مـن فصوله الـ 13 جانبا من جوانب الحيـاة في مصر القديمة بأسـلوب إنسـاني يقترب كثيرا من الفن الروائي الذي كان محفوظ سيهب له حياته بعد ذلك .

وإذا كان محفـوظ قـد بـدأ حياتـه الأدبيـة بالاهتمام بالتاريـخ المصري القديـم، ثـم تحولـت بعد ذلـك إلـى موضوعات معاصـرة، فإنه لـم يترك

التاريخ القديم وراءه تماما، بل عاد إليه ثانية بعد ذلك بأكثر من أربعين عاما في روايته العظيمة التي يتحدث فيها عن إخناتون وهي **«العائش في الحقيقة»** التي أصدرها عام 1985، ولكريستيان جاك هو الآخر كتاب عن إخناتون اسمه «إخناتون ونفرتيتي : زوجا الشمس» صدر عام 1976، لكن بينما يحكي الكاتب الفرنسي قصة «الفرعون المارق»، والديانة الجديدة التي أدخلها، فإن كاتبنا المصري يركز في روايته على الجانب المأساوي في حياة فرعون مصر وكيف تخلى الجميع عنه بما في ذلك - في النهاية - زوجته نفسها نفرتيتي ..

ولقد تحدث محفوظ عن نفسه ذات مرة، فقال : «هناك أدباء الفعل الماضي وأدباء الفعل المضارع وأدباء المستقبل، وأنا من أدباء الفعل المضارع، أكتب عن الحاضر ولا أحب الكتابة عن الماضي ولا يستهويني التنبؤ بالمستقبل». ويذهب محفوظ إلى أبعد من ذلك، فيقول : «إن تجربتي في الرواية التاريخية قد فشلت كرواية تاريخية؛ لأنني حولت فيها الماضي إلى حاضر!». لكن حديثه هذا كان قبل حصوله على جائزة نوبل بحوالي 15 عاما، وقبل اكتشاف العالم لرواياته الفرعونية بأكثر من 25 عاما، والآن لا أحد من القراء في الخارج سيتفق مع الرأي القائل بأن الروايات الفرعونية لأديب نوبل الكبير قد فشلت، حتى لو كان قائل هذا الرأي هو نجيب محفوظ نفسه، علما بأن ما قصده محفوظ من هذا الرأي هو أن رواياته قد فشلت في أن تكون تاريخية، وهذا صحيح، فهي ليست تاريخا وإنما هي أدب، والأدب يعني دائما بالواقع، حتى وإن استمد موضوعه من الماضي أو حتى من المستقبل، وتلك هي إحدى الفروق الواضحة بين كريستيان جاك ونجيب محفوظ. فالكاتب الفرنسي هو في

البداية عالم مصريات وهو في النهاية أيضا عالم مصريات وإن كان يكتب الرواية، بمعنى أن ما يعنيه هو دقة المعلومات التاريخية التي يقدمها وكأنه يكتب كتابا في التاريخ وليس رواية أدبية تعتمد على الدراما الإنسانية، برغم ما في روايات كريستان جاك من مواقف إنسانية نبيلة، أما الكاتب المصري فيتفوق على الفرنسي في الناحية الأدبية لرواياته، وإن ظهرت بها بعض الأخطاء في المعلومات التاريخية، فإن عينيه كانت طوال الوقت على حاضر بلاده ونضالها من أجل التحرر والاستقلال من ناحية، ومن ناحية أخرى على المتطلبات الدرامية لرواياته الأدبية .

وأمامي أول مقال نقدي كتب عن رواية «**كفاح طيبة**»، وقد نشر في مجلة «الرسالة» عام 1944 أي في نفس عام صدور الرواية، وكتبه الناقد الكبير سيد قطب زعيم جماعة الإخوان المسلمين الأشهر وفيه يشيد بالرواية، فيقول : «أحاول أن أتحفظ في الثناء على هذه القصة، فتغلبني حماسة قاهرة لها، وفرح جارف بها! .. هذا هو الحق، أطالع به القارئ من أول سطر، لأستعين بكشفه على رد جماح هذه الحماسة، والعودة إلى هدوء الناقد واتزانه !!.. هي قصة استقلال مصر بعد استعمار الرعاة على يد «أحمس» العظيم.. قصة الوطنية المصرية في حقيقتها بلا تزيد ولا ادعاء، وبلا برقشة أو تصنع.. قصة النفس المصرية الصميمة في كل خطوة وكل حركة وكل انفعال ..» .

وبرغم هذا الحماس الذي يعترف به سيد قطب لروايات محفوظ فهو مثل أديبنا نفسه قد تعرف على تلك الأخطاء التاريخية التي جعلت محفوظ يقول إن رواياته التاريخية قد فشلت من الناحية التاريخية، لكنه

مـع ذلك لم يفقد حماسـة لها، فيقـول : «بعض هنات كهـذه وتلك، ولكن مـاذا؟.. إن الفنـان ليسـتطيع أن يخطـئ مائة مرة هـذا الخطـأ دون أن يؤثر ذلـك في عملـه الفني الأصيـل». ويصف سـيد قطب «كفاح طيبـة» وصفا صحيحـا فيقول : «هي قصة الوطنية المصرية، وقصة النفس المصرية، تنبع مـن قلـب مصري، يدرك بالفطـرة حقيقة عواطف المصرييـن .. هؤلاء هم المصريـون الخالدون، وهؤلاء هم ثقة وعن يقيـن..». ويخلص في النهاية إلـى القـول : «لـو كان لـي من الأمر شـيء لجعلـت هذه القصة فـي يد كل فتـى وفتـاة، ولطبعتها ووزعتها على كل بيت بالمجـان، ولأقمت لصاحبها - الـذي لا أعرفه - حفلة مـن حفلات التكريم التي لا عـداد لها في مصر، للمستحقين وغير المستحقين!» .

أي نظـرة ثاقبـة تلك التي عبر عنها سـيد قطب، والتـي لا تقدم فقط الرد علـى تواضع محفـوظ التقليدي في وصـف رواياته التاريخيـة، وإنما تنبئ بما سـيحققه من مجد بعد ذلك، وإذا لم يكن بيد سـيد قطب آنذاك أن يقيم حفـل تكريم لكاتـب «كفاح طيبة» الذي لم يكن يعرفه، فقد أقامت له الدنيا بأسـرها احتفالات مازالت تترد أصداؤها فـي مختلف أنحاء العالم منذ أن حصل عام 1988 على أكبر جائزة أدبية عرفها الإنسان .

«ليالي ألف ليلة» .. والخبر الأسود!

صدرت في مثل هذه الأيام سنة 2005 في نيويورك طبعة فاخرة من رواية نجيب محفوظ «**ليالي ألف ليلة**»، وكان الناشر الأمريكي الصديق سيدني شيف قد اتصل بي قبل ذلك بحوالي عام يطلب مني أن أختار له إحدى روايات نجيب محفوظ؛ كي يصدرها في طبعة فاخرة بمصاحبة رسوم فنية فيما يعرف باسم كتاب الفنان «Livre d'artiste» .

ولقد عرضت الأمر على الأستاذ نجيب محفوظ حتى يرشح الرواية التي يراها، فقال : قل له يختار ما بين «**ليالي ألف ليلة**» و«**الحرافيش**»، وحين نقلت رأي الأستاذ إلى الناشر الأمريكي اختار على الفور «**ليالي ألف ليلة**» .

ويمتلك سيد شيف دار نشر ذات طبيعة خاصة، فهي تحمل اسم «Limited Editions Club» ؛ أي نادي الطبعات المحدودة، وتتخصص في إعادة إصدار أمهات الكتب العالمية بعدد محدود لا يزيد على الخمسمائة نسخة، تطبع بطريقة فاخرة على ورق مصنوع يدويا من قش الأرز، وبحجم كبير قد يصل فيه طول وعرض الكتاب إلى 40 أو 50 سم، ويضم إلى جانب النص الأدبي رسوما أصلية لأحد كبار الفنانين يقوم بتنفيذها خصيصا لتلك

الطبعة، أما توزيع الكتاب فيكون في الأساس للأعضاء المشاركين في هذا النادي من محبي الطبعات الفاخرة، وتباع النسخة الواحدة والتي تحمل كل منها توقيع كل من الكاتب والفنان بخمسة آلاف دولار!

وأذكر حين أرسل الناشر لمحفوظ النسخة الخاصة به، وأبلغته بثمنها.. كاد الكتاب يسقط من يده المرتعشة، وهو يقول: «يا خبر أسود!».

قلت: أسود ليه بس يا أستاذ نجيب؟!

قال: «هل تعلم كم كان ثمن أول كتاب صدر لي؟».. وقبل أن أجيب قال: «كان رواية «**عبث الأقدار**»، وكان سعره قرش صاغ واحد!».

قلت: إن هذا - إذن - هو الخبر الأسود، قرش صاغ واحد؟!.. قال: «ويا ريتني أخذته كمان!».

ثم روى لي أن ذلك كان في عام 1938، وأنه لم يتقاض أجرا عن الكتاب، بل حصل من الناشر على 500 نسخة.

قلت: وماذا فعلت بها؟ قال: «وضعتها على عربة حنطور إلى أن وصلت لأقرب مكتبة، وكان اسمها مكتبة «الوفد»، فتفاءلت بها وعرضت الكتب على صاحب المكتبة، فقال لي: مين نجيب محفوظ ده ؟، قلت له: أنا! ويبدو أن الرجل رأف بحالي فقبل أن يعرض الكتاب للبيع بقرش صاغ، وقال إنه كلما بيعت نسخة سيعطيني تعريفة ويأخذ هو تعريفة!».

ويواصل الأستاذ حديثه، فيقول: «وظللت أمر على المكتبة كل يوم وأسأل صاحبها إن كانت أي نسخة قد بيعت، لكنه كان يقول إن أحدا لم يشتر الكتاب، وبعد فترة لم أجد عند مروري على المكتبة أي نسخ للكتاب

فتصورت أنها بيعت كلها، لكن صاحب المكتبة أخبرني أنه أودعها المخزن؛ لأنها على حد قوله «ملهاش سوق»، وخشيت أن يعيد إليّ النسخ فمضيت دون أن أجادله .

لكن بعد أن صدرت لي بعد ذلك رواية «**خان الخليلي**» التي ذاع صيتها اكتشفت أن صاحب المكتبة أخرج نسخا من «**عبث الأقدار**» من المخزن، وكان يبيعها بخمسة قروش، لكنه كان يحاسبني على اتفاقنا القديم، فكنت لا أحصل من الخمسة قروش إلا على الخمسة مليمات المتفق عليها !

وتمنيت من جانبي لو أن صاحب المكتبة كان على قيد الحياة؛ كي يرى كيف أن هناك الآن في العالم مَن يشتري كتب نجيب محفوظ بخمسة آلاف دولار!».

ولقد تضمن كتاب «**ليالي ألف ليلة**» في طبعته الأمريكية هذه نبذة كتبتها عن الرواية، ذلك أن الناشر طلب مني أن أكتب مقدمة للكتاب تقرّب موضوعه من القارئ الأجنبي، وتقدم الرواية من وجهة نظر أحد أبناء وطن المؤلف، فقلت له : إن محفوظ لا يقدم، فإذا أردت أن أكتب لك عن الرواية فليكن في شكل تذييل في نهاية الكتاب وليس في أوله، أما الرسوم فقد اقترح عليّ الأستاذ نجيب أن تكون للفنانة المصرية نازلي مدكور التي كان يعرف أعمالها الفنية .

وفي التذييل الذي كتبته للكتاب ركزت على الجوانب المعاصرة في تناول محفوظ لحواديت بنيت على نسق كتاب «**ألف ليلة وليلة**»، لكنها كلها من تأليفه، فقد وجدت فيها محاكاة للواقع المعاصر رغم أجوائها التاريخية المتعمدة، فقلت فيما كتبت أن محفوظ يأخذنا في هذا الكتاب

إلى عالم خيالي غريب، لكنه ليس عالم «**ألف ليلة وليلة**» القديم، والذي خلب ألباب أجيال متتالية في جميع أنحاء العالم منذ تم ترجمته لأول مرة في القرن التاسع عشر، فهو يعمد إلى تصوير عالم «الحواديت» الشيق الذي خلقته شهرزاد في حكاياتها باعتباره واقعا معاشا في حياتنا الآن .

إن عالم الدسائس والمؤامرات السياسية، وعالم الشهرة والغَيرة ليس حكرا على عصر شهريار وحده، وإذا كان الحب الطاهر قائم بين نور الدين ودنيا زاد شقيقة شهرزاد، فإنه محاط بالانتهازية الممقوتة التي تسيطر على جمصة البلطي وأمثاله والذين يتنصلون على الفور من عائلة صديقه صنعان حين يتهم بقتل الحاكم .

ولكن أين ومتى تقع أحداث رواية محفوظ إن لم تكن في عصر الخلافة البغدادية؟.. ذلك هو السؤال الذي اختار محفوظ ألا يجيب عليه، فبعدم تحديد أي زمان أو مكان لأحداث روايته يعطي محفوظ لـ «**ليالي ألف ليلة**» دلالة إنسانية عامة تتخطى الزمان والمكان!

فمنذ البداية يستبعد محفوظ من ذهن القارئ أن تلك رواية خيالية، فعندما يحلم صنعان في أثناء نومه أن الجني قمقم قد عضه أثناء نومه، فإنه يصحو في اليوم التالي ليجد علامة أسنان الجني على ذراعه، بل إن الألم من العضة يدفعه إلى العطار طالبا العلاج .

وهكذا يتحول عالم الجن الخيالي في «**حكايات ألف ليلة وليلة**» إلى عالم واقعي في «**ليالي ألف ليلة**»، فنجد أفراد الجن يلهون بحياة أبطال الرواية كيفما شاؤوا، وهم الذين يحرضون صنعان التاجر الذي لم يعرف طوال حياته إلا البيع والشراء على قتل حاكم المدينة، بل يدفعونه إلى ذلك دفعا .

وهنـا أفتـح قوسـين خارج مـا كتبته عـن الرواية فـي طبعتهـا الأمريكية لأروي ما قاله لي بعد ذلك الأستاذ نجيب عن تلك الرواية المثيرة التي كان يتم نشـرها مسلسـلة في جريدة «مايو» الحزبية وقـت حادثة اغتيال الرئيس أنور السـادات، وحين وقع الاغتيال توقف النشـر لبضعة أسابيع، ثم عادت الجريدة تنشر بقية فصول الرواية بعد أن استقرت الأوضاع .

وقـد كتب الدكتور يحيـى الرخاوي - وهو متابع قديـم لأعمال نجيب محفـوظ، وقـد صار صديقا مقربا لـه بعد ذلك - كتب تحليلا نفسـيا بارعا لروايـة «**ليالـي ألـف ليلـة**» قال فيـه : إن نجيب محفـوظ تأثر علـى ما يبدو بحادثة المنصة، فكتب عن اغتيال صنعان الجمال للحاكم .

وقد أخبرني الأستاذ أنه فكر في ذلك الوقت أن يصحح تلك المعلومة، لكنه بعد تفكير وجد أنه قد يكون من الأفضل أن يُعرف عنه أنه تأثر بحادث اغتيال السادات عن أن يُقال أنه حرّض عليه .

لكـن علـى أي حال، فـإن القاتل يأخذ جـزاءه في الروايـة ؛ حيث يعدم صنعـان، ويتم تعليق رأسـه على باب بيته، رغم أننـا نعرف طوال الوقت أن المجـرم الحقيقي هو مَـن دفعه، وهو الرجل الصالـح إلى اغتصاب إحدى الفتيـات، ثم حرّضـه بعد ذلك على قتـل الحاكم علي السـلولي، فهل كان في هذا تنبؤ من محفوظ بما سـيحدث وإشـارة صريحة إلى المدبر الفعلي لواقعة اغتيال السادات، التي ما كان فاعلوها إلا أدوات مسيّرة؟

من بين الاختلافات التي لاحظتها بين حكايات شهرزاد ورواية محفوظ أن شهريار عند محفوظ ليس ذلك القاتل المتعطش لدماء العذارى، وإنما هو

باحث عن الحقيقة في هذا العالم العبثي الذي نعيش فيه، والذي تتلاعب بنا فيه قوى أخرى خفية. إنه عالم يذكرك بكتابات ألبير كامي ويوجين يونسكو وصمويل بيكيت، وقدرة محفوظ هنا تكمن في أنه استخدم عالم الخيال الذي نسجته شهرزاد ليعبر به عن رؤية فلسفية طرحها أدباء اللامعقول، فأكد أن عدم معقولية الحياة هي حقيقة إنسانية دائمة سواء كنا في عصر شهرزاد أو في عصر نجيب محفوظ !

رائعة «ميرامار» الأوبرالية

لـم يصدق ولي عهد الدنمـارك الأمير جواكيم هولجـر أن عرض أوبرا «ميرامـار» الـذي حضر ليلة افتتاحه في الإسـكندرية الأسـبوع الماضي هو العرض الأول فـي العالم لهذه الأوبرا الجديدة، فالعرض الأول لأي أوبرا فـي العالـم، والذي يعرف باسـم World Premiere هو حـدث ثقافي كبير تتحدث عنه الأوسـاط الفنيـة والثقافية في جميع أنحـاء العالم . هكذا كان الحـال مع أوبـرا «عايدة» مثلا، والتـي أصبح العالم كله يعـرف أن عرضها الأول كان فـي أوبـرا القاهـرة يـوم 24 ديسـمبر عـام 1871. وإذا كان هـذا هـو الحال فـي القرن التاسـع عشـر الـذي كان عصـر الأوبـرات الكبرى، فـإن الحال قد تغير الآن حيـث أصبحت الأوبرات أكثر ندرة، وهذا سـبب أدعـى للاحتفاء بخروج أوبرا جديدة إلـى الوجود، فما بالك إذا كانت هذه الأوبـرا تعتمد على واحدة من أهم روائع روائـي العرب الكبير أديب نوبل نجيب محفوظ؟!

يعـود تاريخ الأوبـرا المصرية إلى أوائـل الأربعينيات مـن القرن الـ 20 حيـن كان المؤلـف الموسـيقي الراحل يوسـف جريس هـو أول من وضع مسـودة لأوبـرا مصرية باسـم «القدر»، لكنها للأسـف لم تكتمـل، أما أول

أوبرا مصرية مكتملة فكانت «مصرع أنطونيو» التي كتبها حسن رشيد عام 1947، والتي قدم منها فصل واحد لأول مرة بعد ذلك بنحو ربع قرن من الزمان في عام 1973 بمسرح الجمهورية . وفي عام 1952 كتب المؤلف الموسيقي كامل الرمالي أوبرا «حسن البصري»، وقد قدم منها فصل واحد هي الأخرى في عام 1956 بقاعة إيوارت، وكانت من إخراج حمدي غيث. أما ثالث أوبرا مكتملة فكانت أشهر الأوبرات المصرية جميعا وهي «أنس الوجود» للموسيقار الراحل عزيز الشوان التي كتبها عام 1970 وأخرجت للمسرح لأول مرة عام 1996، ومن المعروف أن لعزيز الشوان أوبرا أخرى لم تكتمل تحمل اسم «عنترة». وفي نهاية 1994 ألّف سيد عوض أوبرا «مصرع كليوباترا» وقدمت على شكل كونسير في نفس العام، كما انتهى كامل الرمالي من تأليف أوبراتين في أواخر التسعينيات هما «نفرتيتي» و«الساحر» .

أما المؤلف الموسيقي الشاب شريف محيي الدين الذي وضع موسيقى «ميرامار»، فقد ألّف قبل ذلك أوبرا «ثلاث أوبرات في ساعة» عام 1994 التي كتب لها النص شاعر العامية القدير سيد حجاب عن قصص للكاتب الراحل يوسف إدريس، وقد قدمت في نفس العام بإخراج لمحسن حلمي، وها هو الثنائي شريف محيي الدين وسيد حجاب يقدمان لنا الآن هذا العمل الأوبرالي العظيم «ميرامار» الذي تصوّر ولي عهد الدنمارك أن يتم الاحتفاء به بشكل أكبر مما تم، حيث عرضت الأوبرا أربعة أيام على مسرح الجمهورية في القاهرة، وكأنها أحد أعمال «الربرتوار» القديم، والتي تقدم كل سنة فلا تستدعي أكثر من الاهتمام العادي الذي تحظى به بقية الأعمال الأوبرالية التي يعاد تقديمها كل موسم .

إن أوبـرا «**ميرامار**» عمل أوبرالي على أعلى مستوى مـن التقنية الفنية، وهـو يثبت للعالـم - إن كانت هذه الأوبرا ستصل إلى أسـماع العالـم - أن لدينـا مؤلفيـن أوبراليين يضارعـون المؤلفين الجـدد في العالـم من أمثال فيليـب جـلاس الذي ذاع صيتـه بعد أن كتب أوبرا «إخناتـون» منذ نحو 30 عاما، وربما كان أهم ما في هذه الأوبرا أن شـريف محيي الدين اسـتطاع أن يطـوع اللحن الأوبرالي لمخارج حـروف العامية المصرية الحية التي كتبها الشـاعر الكبير سـيد حجاب بعد أن كانت مستعصية عليها في أعمال سابقة خاصة في الأوبرات الغربية التي كان يتم ترجمتها إلى العربية، وهكذا جاء الغنـاء في «**ميرامار**» طبيعيا لا افتعال فيـه ولا اصطناع. ولقد كان قرار كتابة الأوبرا باللغة العامية قرارا سديدا بالرغم من أن الحوار في الرواية الأصلية كتـب بالفصحى. ورغـم أن جميع الأوبرات المصرية السـابقة كتبت أيضا بالفصحى. لقد استطاع سيد حجاب أن يستلهم روح رائعة محفوظ الخالدة التـي تتحـدث عـن الواقع المعيشـي، والتي كثيـرا ما اسـتعار فيها محفوظ تعبيرات وتراكيب جمل من العامية مباشـرة، ويكفي كلمة «فريكيكو» التي هي مفتاح شـخصية حسـني علام في الرواية، والتي كانت هي أيضا مفتاح الألحان التي كتبت لها في النسخة الأوبرالية .

لقد نجح سيد حجاب أيضا في وضع يده على العنصر الدرامي في هذا النص الروائي الذي لا يعتمد على تسلسل الأحداث وتصاعدها إلى لحظة الـذروة، وإنمـا على تقابل الشـخصيات. فالصراع الدرامـي هنا لا ينبع من تفاعل الأحداث بقدر ما ينبع من تصادم الشخصيات، وإن كنت قد وجدت أنه قد أسـهب قليلا في مرحلة العرض حتى كان الفصل الأول يبدو طويلا وخاليـا تمامـا من الدرامـا ، فلا يمكن أن نخصص فصـلا كاملا في الأوبرا

لوصول زبائن بنسيون «ميرامار» الواحد تلو الآخر، ثم تبدأ الدراما في الفصل الثاني حين تبدأ هذه الشخصيات في التفاعل مع بعضها البعض .

ولقد أدخل سيد حجاب عنصر بائعي الصحف كوسيلة للسرد ما بين المشاهد وهو عنصر غير دخيل على النص. فبائع الصحف محمود عباس هو إحدى شخصيات الرواية، وإن كان لا يظهر بها أبدا، وقد اتخذ سيد حجاب لفصلي الأوبرا شكلا فنيا واحدا وهو تجمع الشخصيات انتظارا لاحتفال ما، وهو حفل أم كلثوم في الفصل الأول وليلة رأس السنة في الفصل الثاني، ومن هنا جاء هذا التقابل الدرامي بين الاثنين ؛ حيث ينتهي الفصل الأول بصوت أم كلثوم الذي يأتي إلينا من خلال الراديو، وقد تجمع حوله نزلاء البنسيون، ويجيء كورال نهاية الفصل الأول :

تعيش لنا الست وتخلي ليلنا نهار

وعمار يا مصر عمار يا إسكندرية عمار

وعمار يا مصر عمار يا بنسيون ميرامار

وعلى خلاف ذلك تأتي نهاية الفصل الثاني، وقد تحولت ليلة رأس السنة المنتظرة إلى مأتم بانتحار سرحان البحيري . ويختتم العرض بواحدة من أجمل أغاني الأوبرا وهي «الأريا» التي تغنيها زهرة بعد أن انكسر قلبها:

لا الدنيا زي ما هي

ولا إحنا زي ما احنا

يا ترى ده غضب إلهي

ولا إحنا اللي جمحنا؟

لقد جعل محفوظ من زهرة رمزا لمصر، وهكذا يكون قد تنبأ في «ميرامار» بهزيمة 1967، واليوم فإن ما تمر به مصر يشابه مرة أخرى ما كان سائدا عام 1966 ، حين كتب محفوظ رائعته مصوّرا رجال التنظيم السياسي الحاكم الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية ويستنزفون خيرات البلد، بينما ينزوي باقي الشعب كل في ركنه البعيد وتبحث مصر / زهرة عن بطلها فلا تجده .

أما على المستوى الموسيقي، فقد أكدت أوبرا «ميرامار» العبقرية الموسيقية التي يمثلها شريف محيي الدين في وقت نحن أحوج ما نكون لا أقول للعبقرية، وإنما لمجرد الموهبة الموسيقية. إن عبقرية شريف محيي الدين تتسم بالخيال والسيطرة في آن واحد، وهي تتسم بالحداثة والتراث في آن واحد أيضا، فرغم جموح الصيغ الموسيقية التي قدمها شريف محيي الدين في هذا العمل، المهم إلا أنه كان دائما مسيطرا على أدواته، وقادرا على أن يكبح جماح نفسه فلم يَنْسَقْ وراء الألحان السكرية العذبة ولا الزخرف الموسيقي الذي كان يمكن للآلات الشرقية التي أدخلها الأوركسترا أن تجره إليه، وقد كان تأثير أستاذه الراحل جمال عبد الرحيم واضحا في هذا الجانب، ومن ناحية أخرى جاءت المفردات والجمل الموسيقية التي استخدمها شريف محيي الدين غاية في الحداثة رغم لجوئه المتكرر إلى اللحن الشرقي الذي يرجعنا للتراث، فهذه الأوبرا هي نتاج طبيعي للعصر الموسيقي الحديث، ولم يكن من الممكن أن تكتب في القرن الـ 18 أو الـ 19 .

وقد تميز الإخراج والسنوغرافيا التي قدمها محمد أبو الخير برؤية فنية ثاقبة، فقد حوّل فيها غرف البنسيون إلى ما يشبه زنازين السجن التي ينزوي

فيهـا النـزلاء، لكن الملابس لـم تكـن على نفس المســتوى، فقد تأرجحت بين البعد الرمزي الذي تمثل في ألوان «الباسـتل» التي اتســمت بها ملابس منصور باهي وحسني علام وبين الواقعية الرخيصة التي اتسمت بها ملابس زهرة، والتي جعلتها تبدو وكأنها غسالة سوقية في حي شعبي تركت وراءها سـنوات الشـباب، واختفت معالم الأنوثة من جسدها، وليســت فتاة ريفية فاتنة تجسد جمال مصر وشموخها، يطمع في جمالها نزلاء البنسيون.

أما الأصوات فقد كانت متوســطة في معظمها، وإن تميز بشـكل واضح كل من أشــرف ســويلم ورضا الوكيل وإلهامي أمين ونيفين علوبة وجيهان الناصر .

وهناك ملاحظات أخرى لا يتســع لها المجـال هنا، لكن ينبغي تداركها في العرض القادم. فأنا أتصور أن الأوبرا التي أنتجت هذا العمل العظيم مع مكتبة الإسـكندرية، لابد سـتقوم بإعادة عرضه كما يليق بالعمل الأوبرالي الجديد، وبالدعاية اللازمة، وإلا ذهبت أموال الإنتاج كلها هباء .

أحلام محفوظ التي لم تنشر

من بين جميع روائع أديبنا الأكبر نجيب محفوظ، والتي تربو على الـ40 رواية والـ350 قصة قصيرة والخمس مسرحيات من ذوات الفصل الواحد، مازالت آخر أعماله جميعا وهي «**أحلام فترة النقاهة**» الأقرب إلى قلبي .

وأقول أقرب إلى قلبي وليس إلى عقلي أو حتى إلى ذوقي الأدبي؛ لأن العلاقة التي تربطني بـ «**الأحلام**» علاقة عاطفية، فقد عايشت كل حلم منها معايشة الأبوين لأبنائهم، فكان بعضهم يولد على يدي، والبعض الآخر يقرأ عليّ قبل أن ينشر، والبعض الثالث يستبعد أمامي ؛ لأن ولادته جاءت مبتسرة فلم يقبل أديبنا الأكبر أن يجيء أقل اكتمالا من إخوته .

على أن تقديري لـ «**أحلام فترة النقاهة**»، وإن كان مفعما بالعاطفة، إلا أنه ليس تقديرا عاطفيا فقط، فتلك اللآلئ النادرة التي ظل محفوظ يتحفنا بها طوال أكثر من خمس سنوات إلى أن توقفت برحيله عن عالمنا 2006 تعبر في رأيي عن مرحلة من صفاء البصيرة لا يصل إليها الفنان إلا في نهاية العمر، حين تكون غشاوة الحياة الدنيا بصخبها قد زالت وانكشفت أمامه الحكمة العليا في أبهى صورها .

إن مكانة «**أحلام فترة النقاهة**» في المكتبة المحفوظية هو نفس مكانة رباعيات بتهوفن الأخيرة التي استغنى فيها عن صخب الأوركسترا السيمفوني الضخم واكتفى بأربع آلات وترية، لكنه جعل تلك الآلات تشدو بما يعجز عنه الأوركسترا، كما حلّت السكينة والحكمة في تلك الرباعيات محل الثورة والتمرد التي ميزت سيمفونياته السابقة.

لذلك فإذا كانت لآلئ الحكمة التي قدمها محفوظ في سنواته الأخيرة قد جاءت متناهية القصر ؛ فذلك لأن محفوظ في مرحلة نضجه الأخيرة لم يعد يحتاج الكثير من الكلام، فقد استطاع لتمكنه من الحرفية السردية التي خابرها لأكثر من 70 عاما أن يختصر في الكلام ويزيد في الرمز والمعنى إلى حد غير مسبوق، فجاء كل حلم من «**أحلام فترة النقاهة**» في فقرة واحدة أو فقرتين على الأكثر، لكن كلماته تشع بمعانٍ قد يحتاج كاتب آخر لصفحات كي يعبر عنها.

وقد جاءت أحلام نجيب محفوظ بمثابة انقلاب لم نعتده في أدبنا الذي يفيض تاريخه بالإسهاب والبلاغة الزائدة، وهي بذلك أقرب ما تكون إلى شعر «الهايكو» الياباني الذي لا تزيد فيه القصيدة عن بيتين أو ثلاثة، لكنها مفعمة بالرمز ومشعة بالمعاني، وحين شبهتها لأول مرة بشعر «الهايكو» في محاضرة لي بجامعة «مونبلييه» الفرنسية كان في ذهني ذلك القصر المتناهي، وذلك الإشعاع بعيد المدى الذي يصل بالقصيدة عند الشاعر الياباني «باشو» وبالحلم عند نجيب محفوظ إلى آفاق بعيدة لا يصلها إلا كاتب مقتدر عبر مئات الكلمات!

ولقد سألت محفوظ ذات مرة إن كان قد قرأ شعر «الهايكو» أو استمع إلى رباعيات بتهوڤن، فأبدى معرفة «بالهايكو»، وإن كان لم يقرأه . أما رباعيات بتهوڤن فقد أخبرني أنه استمع إليها لأول مرة في الستينيات مع شرح وتحليل في برنامج صديقه الدكتور حسين فوزي الذي كان يقدمه أسبوعيا من البرنامج الثاني الثقافي بالإذاعة .

وسألته: لماذا أسمي تلك الأقاصيص أحلاما؟ فقال لي : لأنها بالفعل كذلك، ثم شرح لي أنها تعتمد على ما يأتيه في المنام كل ليلة، لكنه يُعمل فيها قلمه بالحذف والإضافة وبالتجويد السردي إلى أن تصل إلى الصيغة الأدبية التي يرضى عنها فيقرر نشرها .

وكان محفوظ منذ بدأ يكتب «**الأحلام**» عام 1999 وحتى 2002 يقوم بكتابتها بنفسه وبخط يده؛ ونظرا لضعف بصره لم يكن يستطيع رؤية ما تخطه يده على الورق، فكانت النقاط مثلا لا تأتي على أحرفها، وكنا نبذل جهدا كبيرا في تبين الكلمات، ومازال لديّ بعض تلك الأحلام المكتوبة بخط يد أديبنا الأكبر، والتي رغم افتقارها إلى خطه السابق الجميل الذي يعرفه أصدقاؤه، إلا أنها بالإضافة لقيمتها التاريخية النادرة فهي أعز عندي من بعض ما كتبه لي قبل حادث الاعتداء الذي تعرض له في نوفمبر 1994، والذي أفقده القدرة على استخدام ذراعه اليمنى من الكتف وحتى أصابع اليد ..

ومع مرور الوقت أصبحت الكتابة بالنسبة لمحفوظ أكثر صعوبة رغم صفاء ذهنه وتأجج موهبته، فصار يملي «**الأحلام**» على الحاج محمد صبري سكرتيره الخاص .

لكن الحاج صبري الذي كان يأتيه كل صباح ليقرأ له الصحف كان ينصت لإملائه الأحلام يوم الثلاثاء من كل أسبوع ؛ لذلك درّب محفوظ نفسه على أنه حين يجيئه حلم من الأحلام يحفظه عن ظهر قلب ويقوم بتجويده في الذاكرة، حتى إذا ما حل يوم الثلاثاء أملاه على الحاج صبري في شكله النهائي .

وكثيرا ما كان يسمعني بعض هذه الأحلام حين كنت أذهب إليه مساء السبت من كل أسبوع؛ لأجري معه الحديث الأسبوعي الذي ظللت أجريه طوال الـ12 عاما الأخيرة من حياته تحت عنوان : «حوارات نجيب محفوظ»، وتلك الأحاديث كنت أسجلها على جهاز «كاسيت» صغير، وقد أصبح لديّ الآن رصيدا يصل إلى مئات الساعات .

لكن أكثر ما أعتز به في هذه التسجيلات هو ما كان يقرأه لي بصوته من أحلام نشر بعضها ولم ينشر البعض الآخر، ومن بين الأحلام التي لم تنشر حلم غريب مسجل لديّ بصوت نجيب محفوظ الرخيم، وقد أعرض عن إملائه على الحاج صبري فلم يعرف طريقه إلى النشر .

وكانت مناسبة هذا الحلم أني سألت الأستاذ إن كانت كل الأحلام التي تجيئه تصلح أن تتحول إلى أعمال أدبية ..

قال على الفور : بالطبع لا .. فهناك الأحلام التي لا يمكن إلا أن تظل أحلاما، كما أن هناك أحلاما ما أتذكره منها ليس كافيا لأن يصنع قصة، ففي البداية كانت الأحلام تمر وكنت أنساها .. أما الآن فإن الذي أتذكره من هذه الأحلام يزيد بكثير عن ذي قبل، وهذا يمنحني مخزونا وفيرا أصيغ منه مزيدا من تلك القصص، لكن بشرط أن يكون الحلم قابلا للاستخدام

الأدبي، فهناك بعض الأحلام العقيمة التي لا يمكن أن تنتج قصة أبدا .. على الأقل بالنسبة لي، وهي قد تكون أحلاما مسلية أو مثيرة أو جميلة، لكنها تظل أحلاما أتذكرها بكل تفاصيلها كحلم وليس كقصة، وهناك أحلام أخرى ما أن أصحو من نومي حتى أجدني عثرت على صيغتها الأدبية، في نفس اللحظة التي أتذكر تفاصيل أحداثها .

قلت : لاحظت أنك تتبع في هذه القصص منطق الأحلام، أو فلنقل «اللا منطق» الذي يميز الأحلام، فالأحداث يمكن أن تنتقل دون سابق إنذار من مكان إلى آخر ؛ حيث يمكن أن تبدأ القصة في مكان لنجد أنفسنا فجأة في مكان آخر، كذلك وجدنا في بعض القصص أن الراوي يتحدث بضمير المتكلم لتتحول الرواية فجأة إلى ضمير الغائب .

قال : هذا طبيعي؛ لأن هذه القصص هي بالفعل أحلام، لدرجة أن بعض مَن كتبوا عنها قالوا إنها أحلام كاملة لا تحتاج إلا لمن يفسرها، لكن ذلك غير صحيح، فالقصة تبدأ عندي بالحلم، لكنها تتحول بعد ذلك إلى عمل أدبي له مقوماته، وإذا لم يكن للحلم هذه المقومات الأدبية فهو لا يتحول إلى قصة، وأنا لديّ أحلام كاملة، لكني لم أصنع منها شيئا لأنها غير مكتملة.

فقلت له : لماذا لا تكملها بنفسك ؟

فقال : لأني ارتضيت أن تكون «**أحلام فترة النقاهة**» سردا لأحلامي الفعلية، والتي رغم ما أعمله فيها من تغيير وتبديل، إلا أن قوامها الرئيسي يظل هو ما رأيته في حلمي .. ثم إن هناك الحلم الذي أتذكره بحذافيره، لكني أحار فيه ولا أعرف كيف أخضعه للمعالجة الأدبية .

في ذلك المساء استطرد محفوظ حديثه عن الأحلام، فقال لي : إن هناك حلما يحيره، فقد جاءه منذ بضعة أيام لكنه كان مازال يفكر كيف سيحوله إلى نص أدبي ينتظم مع بقية **«أحلام فترة النقاهة»**، ثم رواه لي، فقال : حلمت بأنني كنت سائرا في أحد الشوارع، وكان ينتابني خوف بسبب وجود بعض قُطاع الطرق الذين يهاجمون المارة ويسرقونهم، وقد يصيبونهم بأذى أيضا بالمطاوي والسكاكين التي يحملونها .

ووسط خوفي هذا قابلت بالمصادفة صديقي المرحوم الدكتور حسين فوزي الذي أصبح يظهر الآن بشكل متكرر في أحلامي، وما أن رأيته حتى قصصت عليه قصة هؤلاء المجرمين الخارجين على القانون، والذين يتربصون بالناس في الطريق العام .

فقال لي حسين فوزي على الفور : ده أنا أمنيتي أن أقابلهم .. الحقني بهم ! فدهشت لذلك لكني أخذته إلى حيث يوجدون وتركته ومضيت إلى حالي .

وبعد مضي فترة جاءني الدكتور حسين فوزي يقول : تعالى بقى شوف الحرامية بتوعك! فذهبت معه وأنا ما بين الخوف وحب الاستطلاع، فوجدت المجرمين الذين كنت أخافهم وقد ارتدوا البدل السموكنج السوداء مثل عازفي الأوركسترا السيمفوني، وكل منهم أمامه النوتة، وفي يده آلته الموسيقية .

وهنا قال لي الدكتور حسين فوزي : حاسمعك دلوقت سيمفونية بتهوفن الخامسة! وبالفعل عزفت لي أوركسترا قُطاع الطرق السيمفونية الخامسة لبتهوفن!.. وما أن انتهى الأستاذ من الحلم حتى قلت له : إنه حلم جميل ومعناه أجمل، قال : لكني مازلت أقلبه لا أعرف ماذا سأصنع به !

وإلى أن رحل محفوظ بعد ذلك بخمس سنوات لم يكن قد نشر هذا الحلم، لكنني الآن أدرك السبب. فالمعنى الذي وراء هذا الحلم يقترب بعض الشيء من العظة أو الدرس الأخلاقي، بينما ما كان يبحث عنه أديبنا الأكبر في الأحلام هو الرمز الذي يشع بالمعاني، ويستطيع كل قارئ أن يجد فيه ما لا يراه الآخرون .

وهناك من الأحلام الأخرى المسجلة لديّ، والتي لم تنشر ما كان يسميه محفوظ رؤيا وليس حلما، لأنه لم تكتمل عناصره . ومن بين تلك الرؤى ما رواه لي من أنه وجد نفسه ذات يوم مع زعيم كبير، وكان اللقاء في منطقة وعرة وغير ممهدة، بها انحناءات وارتفاعات وطرق معوجة، وكان محفوظ يحاول أن يقود هذا الزعيم إلى الطريق السليم وسط تلك المطبات، لكن مجموعات كبيرة كانت تتعقبهما وهي تردد هتافات عدائية، فأخذ محفوظ في الحلم يقول لنفسه : «يا للمصيبة لو لحقت بنا هذه الجماهير الغاضبة!».

وتلك رؤيا بها معنى واضح له أبعاد سياسية، لكن محفوظ لم يجد فيه مقومات «الحلم» كما ارتضاها في «**أحلام فترة النقاهة**»، فظل مسجلا عندي بصوته كمولود مبتسر لم تكتب له الحياة . ومن بين تلك الرؤى التي لم تتحول إلى «أحلام» نبأ وفاة أحد أصدقائه من الأدباء، والذي ذكر لي اسمه بعد تردد لأنه كان مازال على قيد الحياة، ثم قال : وحين ذهبت لتقديم واجب العزاء وجدت النعش موضوعا في عربة ترام سائرة في الطريق العام والمعزين جلوس حوله في العربة في أثناء سيرها ، ورغم غرابة الموقف فلم أسأل أحدا من المعزين عن هذا الوضع الغريب !

ثـم صمت الأسـتاذ قليلا وعاد يقـول : «إن تلك الرؤيا تسـتهويني كثيرا ومازلت أحاول أن أحولها إلى «حلم» من «**أحلام فترة النقاهة**». وقد أنجح - فـي النهايـة - في تحويله إلى قصة . لكنها ظلـت رؤيا كما رواها لي ولم تتحول إلى واحد من أحلامه الأدبية .

وفـي ذلك يقـول الأسـتاذ : «إن الحلم إذا نشـرته كما رأيته فـي المنام، فسـيظل حلمـا ولن يدخـل عالـم الأدب . أما مـا يعنيني فهـو الحلم الذي أسـتطيع أن أصيغـه كعمل أدبـي، لأن الحلم في الحقيقة هو «لطشـة» .. أو مسـحة لون لكني أتخذ منها أساسـا لبنـاء لوحة متكاملة؛ وقـد كانت قصة الدكتور حسـين فـوزي متكاملة؛ ولذلك لم أجد لنفسـي فيها عملا أقوم به (وقال بالعامية : مالقتليش فيه شغلة؟!) .

قلـت : ومَن مِـن أصدقائك الآخريـن تراهم في أحلامـك غير الدكتور حسين فوزي ؟

قـال : عبد المنعم الصاوي وجمال الغيطاني وآخرون قد لا يكونون من دائـرة الأصدقاء، لكنهم يظهـرون في الأحلام لا أعرف لمـاذا؟ مثل الفنان سمير صبري الذي كان أفراد فرقته الراقصة في أحد الأحلام يريدون الذهاب إلى الحسـين، فقام سـمير صبري بتغيير ملابسـهم حتى تتواءم مع المكان، وهكذا ألبس الراقصين جلاليب وألبس الراقصات فساتين خضراء وطرح، وزحفـوا هكذا على منطقة الحسـين، وهذا الحلـم لا يخصني من قريب أو بعيد، فأنا فيه مجرد متفرج، ومثل هذه الأحلام أشعر بأنها ليست ملكي . أما الأحلام التي تحدث لي شـخصيا وأكون أنا جزءا من أحداثها فإني أجدني بسهولة أتمكن من تحويلها إلى قصة بعد إعادة بنائها بشكل جديد .

أمـا عبد المنعم الصاوي فقد ظهر لي حيـن كان وكيلا للوزارة وقبل أن يصبح وزيرا للثقافة، وذلك حلم تحول معي إلى قصة، لكنها لم تنشر بعد، كما كتبت قصة أخرى عن وكيل آخر لوزارة الثقافة هو حسن عبد المنعم .

ثم يقول الأسـتاذ : وهناك أحلام من نوعية أخرى لا تصل هي الأخرى إلـى مرحلـة التحول إلـى قصة أدبية، منها مثلا أنني وجدت نفسـي جالسـا مع أحد الزملاء الذين كنت أكتب معهم في الماضي سيناريوهات الأفلام، وبرغم أنني لا أذكر شـخصية هذا الزميـل ، فإنني أذكر جيدا أن القصة التي كنا بصددها كانت «الإخوة كرامازوف»، وقد أراد الزميل أن يبدأ السـيناريو ببعـض رجال الأزهـر وقد توجهوا إلـى العائلة بعد أن سـمعوا بالخلافات التـي كانت بين الأخوين ليذكّروهما بالدين ومبادئه، لكني لم تعجبني تلك البداية التي وجدت فيها بعض التكلف .

وسـألت الأسـتاذ : إن لك الآن نحو سـنتين وأنت تنشـر هذه القصص الصغيـرة، وقد وصفتها لي ذات مرة بأنها «قـد الكف»، فقلت لك : «لكنها تفـرح مائـة وألـف!» .. فهـل لاحظت أنها تقـدم رؤية جديـدة تختلف عن رؤيتك السابقة في الأعمال الأخرى؟

قـال : لكل فنان رؤية تقوم عليها أعمالـه، وهذه الرؤية قد تتطور بطبيعة الحال مع مضي السنين؛ لأنها تكون حصيلة تجاربه في الحياة ؛ لذلك فهي أشـمل وأعم مـن الأيديولوجية أو الفلسـفة، وإن دخلت فيهـا هذه وتلك، وهنـاك مـن الكتّاب والشـعراء مَن تحولـت رؤيتهم مع الزمـن من النقيض إلـى النقيـض، كما حدث مثلا مع أبـي نواس الذي تطور مـن المجون إلى الحكمة والتصوف !

قلت : وماذا عن حالتك أنت؟

قـال : أترك لك أنـت البحث في هذه الأمور، فالكاتب يكتب . أما النقد فهو الذي يحلل ويفسر .

قلـت : إذن فلنتـرك الرؤيا جانبا ونتحدث عـن الموضوع .. ألـم تلاحظ تطورا قد دخل على موضوعات القصص منذ بدايتها وحتى الآن؟

قـال : لقـد لاحظت تطورا لـم أكـن أتوقعه في خط سـير هذه القصص، فلقد بدأت معي الأحلام، وكانت لها طبيعة فلسفية تتحدث عن كنه الحياة وتقـوم علـى الأفـكار التأملية، وقـد تصورت أن ذلك سـيكون هـو الطابع المميز لتلك القصص، باعتبارها قادمة من عالـم العقل الباطن ؛ حيث تتولد الأحـلام، لكني لاحظت أخيـرا أنني قد عدت في هـذه القصص إلى النقد الاجتماعي المتصل بالاتجاه الواقعي أكثر منه بالاتجاه الفلسـفي، وقد كان هـذا النوع من الكتابـة مرتبطا عندي بالروايات الواقعيـة التي كتبتها، والتي كنت قد تركتها ورائي منذ فترة طويلة واتجهت اتجاهات أخرى .

قلت : لكني وجدت على الرغم من ذلك أن هناك مسـحة فلسـفية شـبه صوفيـة تصبـغ جميع القصص، حتى مـا يبدو منها واقعيـا أو نقديا أكثر من غيره .

قال في اقتضاب: معك حق .

ومـن بيـن ما يقرب «**أحـلام فترة النقاهة**» إلى نفسـي أنهـا أقل إبداعات أديبنـا الأكبر حظا في اهتمـام نقادنا، على الرغم مـن الاهتمام الكبير الذي حظيت به في الخارج، لدرجة أنها نشـرت في فرنسـا مثلا قبل أن تصدر في

مصر، فكانت بذلك سابقة فريدة تصدر فيها الترجمة الأجنبية قبل الأصل العربي، لكنها كانت تحمل دلالة لا تخيب على الاهتمام الذي تحظى به ويحظى به كاتبها في العالم، والذي يفوق في بعض الأحيان ما يحظى به وسط أهله !

فقد حدث في عام 2000 أن اتصل بي مسئول بدار نشر «لوروشين» الفرنسية طالبا أن ينشر كتابا جديدا لمحفوظ، فاقترحت عليه «**أحلام فترة النقاهة**»، باعتبارها آخر إنتاج أديبنا الأكبر، فاطلع على ما كان ينشر منها في مجلة «نصف الدنيا»، وتحمس لها على الفور طالبا مني أن أكتب لها المقدمة.

وما هي إلا أشهر قليلة وصدرت الطبعة الفرنسية من «**أحلام فترة النقاهة**» قبل أن تكون قد صدرت في كتاب بالعربية، وفي السنة التالية صدرت الطبعة الإنجليزية من «**الأحلام**» عن دار نشر الجامعة الأمريكية مع مجموعة الناشرين الأمريكيين الذين تتعامل معهم في الولايات المتحدة، وقد ترجمها «ريموند ستوك»، وكتب لها المقدمة . أما الكتاب العربي فقد صدر بعد ذلك بسنوات، وهو لابد سيربك الباحثين حين يجدون تاريخ صدور الترجمة سابقا على تاريخ صدور الأصل، لكن هذا حالنا الذي لا نملك إزاءه حولا ولا قوة !

«الأحلام» .. واهتمامات الصحافة

حين صدر كتاب «**أحلام فترة النقاهة**» أخيرا في مصر عام 2005 ، وقبل رحيـل محفوظ بعـام واحد، كنت أتوقع أن يحـدث اهتماما نقديا وإعلاميا كبيـرا، باعتبـاره أول كتـاب يصـدر منذ سـنوات لأديبنا الأكبـر، لكن ذلك لـم يحدث، بل إن أحـد الروائيين من تلامذة محفـوظ وصف الأحلام في حديث صحفي منشـور بأنها «هـلاوس» (!!!) وقـد رددت عليه في حينه، ودار بينـي وبينه سـجال، ولا داعي الآن للعودة إلى هـذا الموضوع بعد أن رحل الروائي المذكور عن عالمنا .

وأذكـر بعد صدور الطبعة الأولى من «**الأحـلام**» أن جاءني عبر الهاتف صوت شاب قدم لي نفسه على أنه محرر بإحدى الصحف المستقلة، وقال لي إنه يريد أن يحدثني حول نجيب محفوظ، فقلت : أهلا وسهلا، ماذا عن أديبنـا الأكبـر ذي الصيت الدولـي وأحد الأعلام الذين يفتخـر بهم العرب جميعا؟.. قـال: هناك مجموعة من الكتّاب الذيـن يتحلقون حوله لينتفعوا منه، فما رأيك في ذلك؟

وأصبـت بخيبـة أمـل، أهذا هو مـا تذهب إليـه الصحـف إذا أرادت أن تتحدث عن نجيب محفوظ ؟.. وقلت للصحفي الشاب في حزم : آسف أنا

لا أخوض في هذه الموضوعات، فقال : لماذا؟ إنك رئيس اتحاد الكتّاب ويجب أن يكون لك رأي في هذه القضية، قلت : أولا هذه ليست قضية، وإنما وشاية أو نميمة من الدرجة الثالثة، قال : ولكن .. فقاطعته : ماذا تريد بالضبط ؟ هل تبحث عن عنوان يقول : رئيس اتحاد الكتّاب يهاجم مَن يحيطون بنجيب محفوظ ويتهمهم بالانتفاع منه؟!، قال : لو قلت ذلك لضمنت لك أن يكون هذا هو أحد «مانشيتات» الصفحة الأولى .

وفكرت في إنهاء المكالمة وعدم إضاعة الوقت لكني (قايست) وقلت لمحدثي : أهذه هي الصحافة التي تعلمتها يا بني؟ مَن الذي علمك ذلك؟ وفكرت في أن الاحتمال الأكبر هو ألا يكون قد درس الصحافة أصلا؛ بحيث لم يتعلم ما هو الخبر الجدير بأن ينشر في الجريدة والفرق بينه وبين النميمة التي لا تصلح إلا لأن تقال في الشارع، وهل وظيفة الصحافة أن تنقل ما قد يقال من وشايات أو شتائم أو خلافه؟ أليست هناك رسالة سامية للصحافة لا يستطيعها إلا الإنسان النبيل ذو الحس الوطني، والذي ردد القسم الصحفي الذي كان على كل مَن ينضم إلى نقابة الصحفيين أن يردده؟، وهل مازال هذا التقليد معمولا به في النقابة؟ أم أنه لم يعد مسايرا لمتغيرات العصر الذي جعل الصحفي الشاب يبدأ حياته بالبحث عن وشاية أو فضيحة صغيرة يقدمها لرئيس تحريره الذي قد يكافئه عنها إذا صنعت «مانشيت» الجريدة؟!

وسألت محدثي : هل سمعت بـ«**أحلام فترة النقاهة**»؟، قال : أحلام ماذا؟.. قلت : هذا هو اسم كتاب جديد أصدرته دار الشروق لأديبنا العالمي نجيب محفوظ، وهو أول كتاب يصدر له منذ أكثر من عشر سنوات حين نشر «**أصداء السيرة الذاتية**»، قال : وما دخل هذا في موضوعنا؟ قلت : إنه

خطأ مني، فقد تصورت في البداية حين قلت لي إنك تريد الحديث عن نجيب محفوظ أنك تود عمل موضوع حول صدور كتابه الجديد «**أحلام فترة النقاهة**»، لكن يبدو لي الآن أنك لم تسمع به. فقدم الصحفي الشاب دفاعه عن منطقه قائلا : أنا لا أنكر بالطبع أن صدور كتاب لنجيب محفوظ شيء جيد، لكنه يصلح فقط لصفحة الأدب وليس للصفحة الأولى، قلت: مَن علمك هذا ؟ قال : وهل تعلمت أنت غير ذلك؟ قلت : نعم، تعلمت أن أمير الشعراء أحمد شوقي حين يكتب قصيدة جديدة، فذلك حدث كبير تفرد له الصحف صفحاتها الأولى، ولديّ بعض أعداد من كبريات الصحف المصرية، ومنها «الأهرام»، وقد نشرت قصيدة لشوقي في الصفحة الأولى. أما عن نجيب محفوظ فقد نشرت جريدة «الحياة» اللندنية موضوعا في أحد أعدادها الأخيرة اتخذ مكانه في صفحتها الأولى عن كتابه الجديد الذي لم تسمع به، وهو الكتاب الذي تهافتت عليه دور النشر الأجنبية قبل العربية، فقامت دار «لوروشيه» الفرنسية بالحصول على حقوق ترجمته وصدر بالفرنسية في بداية العام الماضي، ثم توالت الطبعات فصدرت بعد ذلك الطبعة الإنجليزية عن دار نشر الجامعة الأمريكية، وذلك كله قبل أن نصدر نحن «**أحلام فترة النقاهة**» بالعربية، وهذا يعني أن نجيب محفوظ حين يكتب - أيا كان ما يكتب - فذلك حدث تتعقبه دور النشر ووسائل الإعلام. فالطبعتان الفرنسية والإنجليزية لم تنتظرا صدور الكتاب بالعربية، وإنما بمجرد أن سمع القائمون على داري النشر اللتين أصدرتاه أن نجيب محفوظ يكتب شيئا جديدا، وينشره شهريا في مجلة «نصف الدنيا»، تعاقدت كل منهما على الفور على ترجمته وإصداره في كتاب قبل أن نفعل نحن ذلك !

وقلت للشاب : إن لديّ ملفا كاملا عما نشر عن **«أحلام فترة النقاهة»** التي لم تسمع عنها، وذلك في الصحافة الفرنسية والإنجليزية والأمريكية، بل إن لديّ مقالا بالألمانية نشر في مجلة «دير شبيجل» عن **«الأحلام»** رغم أنها لم تصدر بعد بالألمانية، فماذا نشرت صحيفتك عن هذا الحدث الأدبي الكبير، سواء في الصفحة الأولى، أو حتى في صفحة الأدب؟.. إن مثل هذا الموضوع يمكن أن يفيد القارئ بما يقدمه له من معلومات جادة حول الكتاب الجديد وأهميته وكيف استقبله العالم، ثم قلت للصحفي الشاب : أتحب أن أرسل لك بعض المقالات التي نشرت في الصحافة الأجنبية لترى كيف تعاملوا مع هذا الحدث المهم؟ فقال : للأسف أنا لا أقرأ الإنجليزية ولا الفرنسية ولا الألمانية، أليست لديك نسخ مترجمة من هذه المقالات ؟

ومرة أخرى أحسست برغبة جامحة أن أنهي المكالمة، لكني تمالكت نفسي وقررت أن أحاول أن أفيد الصحفي الشاب الذي لاشك في أنه ضحية للأوضاع الحالية للصحافة، فقلت : ألديك بعض الوقت؟، قال : نعم .. نعم، هل قررت أن تجيب عن سؤالي الأول؟ قلت : بل سأعطيك ما هو أهم من تلك الوشاية التي تبحث عنها، سأطلعك على أحد هذه الأحلام لتقدر قيمتها، فهي متناهية القصر ولن تأخذ من وقتك كثيرا لكنها تشع بالمعاني والرموز التي قد يحتاج البعض لصفحات كي يسردها، فاستمع إلى هذا الحلم :

«رأيتني في حي العباسية أتجول في رحاب الذكريات، وتذكرت بصفة خاصة المرحومة «عين» فاتصلت بتليفونها ودعوتها لمقابلتي عند السبيل، وهناك رحبت بها بقلب مشوق، واقترحت عليها أن نمضي سهرتنا في

الفيشاوي كالزمان الأول، وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا، غير أنه عتب على المرحومة «عين» طول غيابها، فقالت: إن الذي منعها عن الحضور هو الموت، فلم يقبل الاعتذار، وقال: إن الموت لا يستطيع أن يفرّق بين الأحبة» !

قلت : ما رأيك في هذه المعاني الجميلة، وفي هذا الأدب الراقي؟، قال الشاب : شيء جميل، لكن ما علاقته بالواقع؟ إننا في مرحلة يحتدم فيها الصراع السياسي بين مختلف الفرقاء، وأمامنا مشهد صاخب لا يتيح الكثير من الوقت لمثل هذه التأملات .

قلت : ليست كل الأحلام تتحدث عن معاني الحب والوفاء، فهناك منها ما يمكن أن يكون موضوعه هو ما تتحدث عنه، ثم قرأت عليه الحلم «5» لأدلل على ذلك :

«أسير على غير هدى وبلا هدف، ولكن صادفتني مفاجأة لم تخطر لي في خاطري، فصرت كلما وضعت قدمي في شارع انقلب الشارع سيركا، اختفت جدارنه وأبنيته وسياراته والمارة، وحل محل ذلك قبة هائلة بمقاعدها المتدرجة وحبالها الممدودة والمدلاة وأراجيحها وأقفاص حيواناتها والممثلين والمبتكرين والمهرجين والرياضيين حتى البلياتشو، وشد ما دهشت وسررت وكدت أطير من الفرح، ولكن بالانتقال من شارع إلى شارع، وبتكرار المعجزة، مضى السرور يفتر، والضجر يزحف، حتى ضقت بالمشي والرؤية وتاقت نفسي للرجوع إلى سكني، ولكم فرحت حين لاح لي وجه الدنيا وآمنت بمجيء الفرج، وفتحت الباب فإذا بالبلياتشو يستقبلني مقهقها» !

قال لي الصحفي الشاب : كيف يكون ذلك معبرا عن الواقع السياسي الذي أتحدث عنه؟، قلت : إن المسألة كلها رمزية، فهل تريد مني أن أسمي لك المهرجين بالاسم والحيوانات والحواة؟ هل تريد مني أن أشرح لك أيضا كيف يسبقوننا إلى بيوتنا من خلال التليفزيون مثل البلياتشو؟. إن ذلك ينزل بالأدب من عليائه ويسطّح معانيه ويحيله إلى شيء آخر .

قال : إنك تعرف يا سيدي أن البلاد تمر بمرحلة حرجة من تاريخها.. صَحت فيها الجماهير من سباتها، وأنا عائد لتوي من مشوار بوسط البلد وقد شاهدت المظاهرات في الشوارع .

قلت: وهل تتصور أن الأدب يمكن أن يكون غير واع لذلك؟ إني سأقرأ عليك الحلم «156»، والذي لن تجده في كتاب «**أحلام فترة النقاهة**»؛ لأن الأستاذ كتبه بعد صدور الكتاب :

«أخيرا تنمرت القطة الوديعة، وهاجت رياح الغضب، وتساقط الشرر يشعل الحرائق حيثما وقع، ولم أجد من أكلمه إلا الرياح، فقلت لها : عندنا وسائل سلمية كنا على وشك استعمالها، فقالت : ما فات وقته تعطل فعله، واستمرت زمجرة الرياح وتساقط الشرر» !

قلت للشاب : إن تلك القصة هي صيحة تحذير إن كنتم تعلمون، وهي أبلغ من أي «مانشيت»؛ لأنها نابعة من وجدان هذه الأمة وضميرها الحي، فهل عرفت لماذا اهتمت بكاتبها دور النشر في العالم وأجهزة الإعلام؟!

من الكتابة إلى الإملاء

على أن كتابة محفوظ لـ «**أحلام فترة النقاهة**» مرت بعدة مراحل، فقد ظل يكتبها على مدى أكثر من ثلاث سنوات تطورت خلالها الموضوعات التي عالجتها الأحلام، كما تطور شكلها الفني وازدادت قصرا ؛ وسبب ذلك أن محفوظ في السنتين الأخيرتين لم يعد قادرا على الكتابة، واليد اليمنى التي أعجزها الاعتداء الغاشم الذي تعرض له لم تعد قادرة على الإمساك بالقلم، بعد أن كانت جلسات العلاج الطبيعي قد نجحت - في البداية - في أن تجعله يكتب لفترة لا تزيد على نصف الساعة في اليوم الواحد .

وهكذا بدأ محفوظ لأول مرة حياته، وقد تخطى التسعين يملي أعماله بدلا من أن يكتبها بنفسه، وكان كل حلم جديد يمليه الأستاذ على سكرتيره الخاص الحاج صبري يدخل إلى نفسه سرورا كبيرا، ويرفع من روحه المعنوية بشكل واضح .

وأذكر أنني وصلت ذات يوم إلى منزل الأستاذ في موعدي الأسبوعي فاستقبلني أديب نوبل الكبير بابتسامته البشوشة قائلا : أهلا حبيبي! وهو تعبير لم يكن معتادا عليه، ثم قبّلني على كتفي الأيمن ثم الأيسر، وفعلت

نفس الشيء، فالأستاذ نجيب ليس من هواة تقبيل الوجه، وقد أخبرني شيخ كبير ذات مرة أن تلك كانت طريقة النبي محمد عليه الصلاة والسلام في تقبيل أحبائه، كما أكد لي أحد الأطباء أن القبلات هي أكثر وسائل نقل العدوى خاصة في الأمراض التي تنتقل عن طريق التنفس، لكن الأستاذ نجيب يفعل ذلك كعادة ارتضاها طوال العمر دون أن تكون في ذهنه مسألة الوقاية من الأمراض هذه !

ومن متابعتي لمختلف الأمزجة التي تعترض الأستاذ نجيب أدركت على الفور أن وراء ابتسامته هذه المرة شيئا ما كان قد أدخل السرور إلى نفسه، ففي بعض الأحيان تكون فرحة الأستاذ بقدومي هي كرمه الأخلاقي المعتاد وترحيبه المعروف بزائريه، وأحيانا أخرى تكون هي تهلله لرؤية طوق نجاة يخرجه من شيء قد كدر مزاجه، أما في لقائنا الأخير فقد كانت بهجته تنم عن شيء قد أفرحه .

وظللت أحاول التعرف على سبب فرحته بالسؤال عن حاله تارة وعن آخر أخباره تارة أخرى، وهو يجيبني دائما بتعبير: «الحمد لله»، لكن دون أن تزول ابتسامته، ثم سألته فجأة سؤالا كنت كثيرا ما أوجهه إليه وهو : «إيه أخبار الأحلام يا أستاذ نجيب؟» . والمقصود بذلك هو سلسلة القصص القصيرة التي كان يكتبها باسم «**أحلام فترة النقاهة**»، والتي وصلت في قصرها المتناهي إلى أن تصبح كل منها عبارة عن فقرة واحدة أو فقرتين على الأكثر، لكنها مثل شعر «الهايكو» الياباني الذي لا تزيد فيه القصيدة عن أربعة أو خمسة أبيات، تشع بالرموز وبالمعاني التي قد تتطلب في يد أديب آخر صفحات طويلة .

وقـد مـرت أوقات كانـت إجابة الأسـتاذ نجيب عـن سـؤالي تأتي غير مطمئنـة، وذلـك حين كانـت الأحلام التي ينسـج منها قصصـة تغيب عنه، فكان يكتفي بالقول : «مازال لديّ مخزون مما كتبته لم ينشـر بعد»، فكنت أتابعه بالسؤال : «لكني أسأل عن الجديد وليس عن المخزون .. هل كتبت أحلامـا جديـدة؟»، فكان أحيانا يقول في اقتضاب : «لا»، أو يشـرح لي في أحيـان أخرى أنـه ليس له سـيطرة على أحلامـه، ففي بعض الأحيـان تأتيه أحـلام تصلـح لكي يصيغ منها قصة جديدة، وفي أحيان أخرى لا تأتي مثل هذه الأحلام .

وقد لاحظت هذه المرة أن ابتسامة الأستاذ اتسعت عند سماعه السؤال، وتصـورت أن ذلـك راجع إلى أن مجلـة «نصف الدنيا» نشـرت في عددها الأخير الحلم رقم مائة في هذه السلسلة، لكن الأستاذ قال لي : «لقد أمليت 14 حلمـا اليوم!». وهنا انتقلت الفرحة إليّ، فأنا من بين مَن يعشـقون تلك الأحلام، وأنتظر مع الكثير من القراء نشـرها، فأناقشـها مع الأسـتاذ نجيب في زيارتي الأسبوعية إليه .

والجديـد هـذه المـرة كان أنه قـرر أخيرا أن يسـتمع إلـى نصيحة بعض القريبيـن منه بأن يملي كتاباته بدلا من إرهاق يده في كتابتها، والتي أصابها بعـض الضعـف بعد حـادث الاعتداء الغاشـم عليه في أكتوبر عـام 1994، وقد دفعني هذا لسـؤال الأسـتاذ : «ماذا تفعل حين يكتمل لديك الحلم في وقـت لا يكـون الإملاء فيـه متاحا؟»، فقال لي شـيء غريب حقـا، وهو أنه يقـوم بحفظ الحلم الذي يريـد كتابته، بل ويقوم بكتابته فـي مخيلته بكامل الأسـلوب والصياغـة التي يكون قد اختارها له، ثـم يحفظه عن ظهر قلب، فإذا جاء موعد الإملاء كان مستعدا له، فأملاه بالضبط كما يريد كتابته .

وهنا لم أستطع مقاومة أن أطلب منه أن يسمعني أحد هذه الأحلام التي يحفظها عن ظهر قلب، وأن يسجلها لي بصوته في جهاز التسجيل الصغير الذي اعتدت أن أصطحبه معي في زيارتي الأسبوعية له، فأسمعني الأستاذ ما أعتبره أروع أحلامه حتى الآن، وقد أخذت أستمع إليه بعد ذلك في السيارة في طريق عودتي إلى منزلي بالمعادي حتى حفظته أنا الآخر عن ظهر قلب !

لقد قرأت ذات مرة كتابا إنجليزيا عن الكاتب الروائي العظيم جيمس جويس، اعتمد المؤلف فيه على مسودات أعمال جويس الروائية، وخاصة رائعته المعروفة «عوليس» ؛ لكي يقدم دراسة موثقة كانت في الأصل رسالة دكتوراه عن طريق كتابة جويس لأعماله، وكيف اختلفت في شكلها النهائي عن مسوداتها الأولى، فجاء الكتاب بمثابة دراسة متعمقة في عملية الإبداع الفني ذاتها. وكثيرا ما سألت نفسي : متى يقوم أحد طلاب الدراسات العليا عندنا بدراسة طريقة نجيب محفوظ في الكتابة، وكيف أثّرت محاولة الاغتيال مثلا على كتابته، والتي أصبح بعدها لا يكتب إلا لمدة نصف ساعة فقط في اليوم؟.. ثم يبرز الآن السؤال : هل كانت ستتأثر كتاباته بعد أن أصبح يمليها لأول مرة في حياته؟

إن عالم نجيب محفوظ الأدبي عالم ثري يحتمل الكثير والكثير من الدراسات حول مختلف جوانبه .

الرواية المحفوظية

لم يقدر لأحد من أدباء العربية أن يلعب ذلك الدور التاريخي الفريد الذي قام به أديبنا الأكبر نجيب محفوظ في تشكيل الرواية العربية وتطويرها من بداياتها الأولى إلى ما وصلت إليه الآن، فقد التقط محفوظ الرواية في مطلع القرن العشرين من أيدي روادها هيكل والمازني والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وصعد بها إلى أعلى درجات الارتقاء متخطيا محاولاتهم الأولى إلى آفاق غير مسبوقة جعلت الباحث والناقد الأمريكي المعروف روجر ألن يقرر أن الرواية العربية قد أصبحت لها الآن هويتها الخاصة، وإذا كان تاريخ الرواية في مصر قصيرا نسبيا؛ حيث إنه لا يتعدى قرنا واحدا من الزمان، فإن هذا التاريخ مرتبط في تطوره بتطور الفن الروائي عند نجيب محفوظ، وبرغم أن جذور الفن القصص العربي ضاربة في التاريخ البعيد لأدبنا العربي، فإن الرواية العربية بمعناها النقدي الدقيق لم تنشأ إلا في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين. ولقد عاصر نجيب محفوظ هذه البدايات الأولى عند مولدها فقرأ «زينب» لهيكل و«سارة» للعقاد عند صدور كل منهما، كما قرأ أيضا «عودة الروح» لتوفيق الحكيم و«دعاء الكروان» لطه حسين عند صدورهما، فكانت هذه الروايات الخالدة في تاريخ الأدب الروائي العربي هي نقطة البداية التي انطلقت منها موهبة

نجيب محفوظ إلى الآفاق الجديدة التي فتحها بنفسه أمام الرواية العربية، والتي توّجها بالحصول لأول مرة للأدب العربي على أرفع جائزة أدبية في العالم وأكثرها احتراما.

ولقد دعيت ذات مرة للحديث في جامعة إكس آن بروفانس الفرنسية عن «نجيب محفوظ والرواية العربية»، فقلت إنه قد سبق محفوظ إلى الرواية بمعناها الحديث رواد آخرون بدونهم ربما ما كان محفوظ قد كتب، لكن نضج الرواية العربية لم يأت إلا على يديه هو، وقد استفاد محفوظ بلا شك من تجارب الرواد الذين سبقوه - كما يصر هو دائما على القول - برغم أن سبقهم له لا يتعدى سنوات قليلة، لكن ما لا يقوله محفوظ هو أن إنتاج جيل الرواد كان فيه الكثير مما يعيبه من الناحية الفنية. وإذا كانت «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل هي أول رواية عربية بالمعنى النقدي الدقيق، إلا أنها مليئة بالصفحات المطولة من وصف الطبيعة في الريف المصري دون أن يكون لهذا الوصف أي غرض وظيفي في البناء الفني للرواية، ولقد كان هيكل لا يزال يتلمس طريقه في الفن الروائي فكان مثلا يعتذر للقارئ لأنه يعرف ما يدور في ذهن شخصيات روايته، بينما تلك من خصائص الرواية المسلم بها منذ نشأة الرواية العالمية في بداية القرن التاسع عشر. كما أن رواية «إبراهيم الكاتب» للمازني يعوق تدفقها الدرامي صفحات مماثلة من الوصف على لسان المؤلف. وحتى «عودة الروح» للحكيم، والتي هي بلاشك أنضج الروايات العربية التي ظهرت في عقد الثلاثينيات، فهي حافلة بالتأملات السياسية والفلسفية المطولة. أما «سارة» العقاد فهي في الحقيقة ليست رواية على الإطلاق، فالقصة فيها ليست أكثر من خيط واهٍ لا غرض منه إلا أن يخلق مناسبة للعقاد ليدلي بآرائه في الحياة وفي

الحب وفي الفرق بين الرجل والمرأة وغير ذلك من الموضوعات التي كانت تشغله، وإذا كانت «عودة الروح» قد ظهرت في بدايات الثلاثينيات من القرن - وبالتحديد في عام 1933 - فإن أولى روايات نجيب محفوظ «**عبث الأقدار**» ظهرت في أواخر الثلاثينيات وبالتحديد في عام 1939، فكانت بداية ما يعرف بالمرحلة الفرعونية في إنتاج أديب نوبل الكبير، والتي اكتشفها الناشرون في الخارج أخيرا، فبدأوا يصدرون ترجماتها التي تلقى الآن نجاحا كبيرا في جميع اللغات الأجنبية التي نقلت إليها .

ولقد كان نجيب محفوظ قد هيأ نفسه على أن يكتب التاريخ المصري القديم كله في شكل روائي على غرار ما فعل الكاتب البريطاني الشهير سير والترسكوت في كتابه تاريخ اسكتلندا، وقال لي محفوظ إنه كان قد أعد بالفعل ما يقرب من أربعين موضوعا من التاريخ المصري القديم يصلح كل منها لرواية تاريخية تكمل سلسلة «**عبث الأقدار**» (1939) و«**رادوبيس**» (1943) و«**كفاح طيبة**» (1944)، لكن يبدو أن الكاتب لا يختار موضوعاته وإنما - كما قال تشيكوف - الموضوعات هي التي تختار الكاتب، بمعنى أن الكاتب يسيطر عليه موضوع معين فيخضع له خضوعا كاملا ولا يملك حياله أي خيار؛ لذلك فكما سيطر موضوع التاريخ المصري القديم على محفوظ في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات وتصوّر الكاتب وقتها أنه هو الذي اختار موضوعه فرأى - كما قال لي - أن يهب له حياته كلها، وجد محفوظ نفسه فجأة تحت رحمة موضوع آخر بعيد تماما عن التاريخ المصري القديم، موضوع مستمد من الواقع المعاش، فبدأ ما أصبح يعرف بعد ذلك بالمرحلة الواقعية في إنتاجه الأدبي، والتي ربما كانت أشهر مراحل إبداعه الروائي إلى درجة أن البعض لا يرى محفوظ إلا من خلال

زاوية هذه المرحلة التي غاص فيها أديبنا الأكبر في أعماق الحياة المصرية في المرحلة ما بين ثورة 1919 ونهاية الحرب العالمية الثانية، خاصة ما يخص منها منطقة القاهرة القديمة وأحياء الجمالية والحسين بحواريها وأزقتها التي لم يشتهر بعضها إلا من خلال روايات نجيب محفوظ. ولقد روى لي الصديق الروائي جمال الغيطاني أن أحد الكتّاب العرب حين زار مصر وشاهد على الطبيعة **«زقاق المدق»** دهش أن وجده زقاقا لا يزيد طوله على بضعة أمتار، فقال: إذا كان نجيب محفوظ قد صنع رائعته الخالدة من هذه الأمتار القليلة، فماذا يا ترى كان سيصنع لو كان هذا الزقاق شارعا كبيرا؟!!

ولقد ظهرت رواية **«زقاق المدق»** عام 1947، لكنها لم تكن بداية المرحلة الواقعية، فقد سبقتها رواية **«القاهرة الجديدة»** (1945) أو **«فضيحة في القاهرة»** كما سميت في إحدى طبعاتها أو **«القاهرة 30»** كما سميت في السينما، ثم تلتها رواية **«خان الخليلي»** التي صدرت في العام التالي، على أن **«زقاق المدق»** كانت هي نقطة البداية في شهرة محفوظ التي لفتت إليه أنظار القراء والناشرين على حد سواء، فبدأوا يبحثون عن مؤلفاته السابقة. وقد تمكن محفوظ بذلك من أن ينشر في عام 1948 رواية **«السراب»** اعتمادا على نجاح **«الزقاق»** برغم أنه كان قد كتبها قبلها، ثم توالت روايات هذه المرحلة برائعته **«بداية ونهاية»** (1949) ثم توّجها بثلاثيته الشهيرة التي نشرها ما بين عامي 1956 و1958، وفيها بلغ محفوظ الذروة في اتجاهه إلى الواقعية الاجتماعية؛ حيث اتسع فيها محور الزمان وطال ليغطي تاريخ ثلاثة أجيال من أسرة واحدة تمثل فيها تاريخ الحركة الوطنية المصرية من 1917 إلى 1944، وقد اتخذ منها محفوظ من اسم المكان دليلا لتحديد

مسـرح الأحداث في كل جزء من أجزاء «**الثلاثية**»: «**بين القصرين**» و«**قصر الشـوق**» و«**السـكرية**»، ثـم تجـيء المحطـة التالية فـي تطـور أدب نجيب محفوظ الروائي عام 1959 بروايته الخاصة التي ليست كمثلها رواية أخرى «**أولاد حارتنا**»، وبرغم أنها نشـرت في العام التالي مباشـرة للسـكرية فإنها في الحقيقة سـبقتها سـبع سـنوات من التوقف الكامل عن الكتابة الروائية، ذلك أن «**الثلاثية**» التي اكتملت بنشـر «**السكرية**» عام 1958 كانت قد كتبت كلهـا قبـل قيام الثـورة، وهذا يعنـي أن محفوظ لـم يكتب الروايـة منذ عام 1952 وحتى ظهور «**أولاد حارتنا**» مسلسـلة في «**الأهرام**» عام 1959. وقد أخبرني محفوظ أن السبب في ذلك يعود إلى أنه وجد أن الكثير من الآمال الوطنية التي تضمنتها رواياته في المرحلة الواقعية - خاصة «**الثلاثية**» - قد تـم تحقيقها على أيدي ثورة يوليو خاصة في سـنواتها الأولى، ومثال ذلك الاسـتقلال والسـعي نحو قدر أكبر من العدالة الاجتماعية، لكننا يجب أن نضيـف إلى ذلك سـببا آخر هو محنـة الكاتب الذي كان قد اسـتنفد جميع إمكانيات الأسلوب الفني الذي اتبعه، فتوقف لا يعرف إلى أين يمضي بعد ذلـك، أو إن كان مـازال هناك طريق بعد الطريـق الذي وصل إلى نهايته، أو فلنقـل إن الموضـوع الذي كان قد اختاره محفوظ ليعبـر عنه كان قد مضى بعـد أن أتـم الكاتب مهمته على أكمل وجه، بـل ووصل من خلاله بالرواية الواقعيـة إلـى مرحلة مـن النضج غير مسـبوقة فـي الأدب العربـي، فأطلق الموضوع سـراح الكاتب وبقي الكاتب حائرا لا يعرف ماذا يفعل وإلى أين يمضي. ولقد طالت فترة الانتظار لسنوات، لدرجة أن محفوظ تصور أنه لن يعود إلى الرواية مرة أخرى فاتجه إلى كتابة السـيناريو السينمائي، وسجل نفسه في نقابة المهن التمثيلية ليس كمؤلف، وإنما ككاتب سيناريو .

لكن فجأة حدثت المعجزة وتفجرت ينابيع الإبداع، وعاد محفوظ كاتبا روائيا برواية غير عادية، أثارت جدلا فنيا وفكريا كما لم يحدث مع أي من رواياته الأخرى، فهنا تحولت الحارة التقليدية في أعمال محفوظ السابقة إلى رمز للإنسانية كلها، وكأن «**زقاق المدق**» الذي كان طوله لا يتعدى بضعة أمتار قد اتسع ليشمل العالم كله، وكأن الزمن الذي صوّر في أرحب حالاته ثلاثة أجيال في «**الثلاثية**» قد امتد ليصور تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة .

وبرغم البعد الرمزي الواضح في «**أولاد حارتنا**»، فإن الحارة التي ترمز إلى العالم كله كانت مازالت حارة واقعية بكل تفاصيلها التي عودنا عليها محفوظ في رواياته الواقعية السابقة، لكن في العام التالي مباشرة تحرر محفوظ من الأسلوب الواقعي، فبدأ يعالج الواقع بطريقة جديدة وذلك برواية «**اللص والكلاب**» (1960) التي بدأ بها مرحلة جديدة في تطوره الروائي شملت: «**السمان والخريف**» (1962) و«**الطريق**» (1964) و«**الشحاذ**» (1965) و«**ثرثرة فوق النيل**» (1966)، ووصلت إلى نهايتها برواية «**ميرامار**» عام 1966.. فهنا أخذ محفوظ الرواية العربية إلى مرحلة جديدة في تطورها. وإذا كان الفن القصصي العربي قد اعتمد في أحد أصوله المهمة على «حديث عيسى بن هشام» للمويلحي، فإن هذا «الحديث» كان يعتمد على الواقعية الاجتماعية التي سيطرت على الرواية العربية لسنوات طويلة منذ نشأتها؛ حيث كانت العلاقة بين الواقع والرواية علاقة مباشرة، وصلت في بعض الأحيان من المذهب الواقعي إلى المذهب الطبيعي، لكن ها هو نجيب محفوظ يضع في «**اللص والكلاب**» وما تلاها من روايات الستينيات أساسا جديدا تماما لهذه العلاقة يعتمد على الجدلية بدلا من النقل المباشر، وإذا كانت «**اللص والكلاب**» تصوّر حادثا واقعيا

استقاه محفوظ من صفحات الحوادث بالصحف اليومية، فإنها في الحقيقة تصوّر هذا الحادث من خلال أعين الكاتب وليس كما حدث في الواقع. وإذا كان محفوظ في المرحلة الفرعونية قد انتمى لمدرسة والتر سكوت التي سادت في الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وفي المرحلة الواقعية للمدرسة التي كانت سائدة في الثلث الأول من القرن العشرين، فإنه في «**اللص والكلاب**» قد لحق بركب الرواية الحديثة في العالم في أحدث اتجاهاتها، ثم سرعان ما تطور عنها إلى عوالم جديدة تخطى فيها الحداثة الغربية، وذلك في المرحلة التالية، والتي لم يستطع أن يصنفها أحد من النقاد، وأقصد بها ما كتبه محفوظ بعد حرب 1967، والذي سنطلق عليه المرحلة الفلسفية. ففي هذه المرحلة لم يكتب محفوظ الرواية، وإنما تجزأت رؤيته وكأنها مرآة قد أصابتها طلقة فتعددت الرؤى فيها، وكانت نتيجتها عددا من القصص القصيرة.

ولأول مرة كتب محفوظ أيضا خمس مسرحيات فريدة في تاريخ كاتبنا الكبير، وإذا كانت تلك هي المرة الأولى التي يكتب فيها محفوظ المسرحية، فإنها لم تكن أول تجربة له مع القصة القصيرة التي صدرت له فيها قبل ذلك التاريخ عدة مجموعات قصصية ضمت عشرات القصص، وقد كانت قصص محفوظ القصيرة تعكس إلى حد كبير المرحلة الفنية التي كانت تمر بها روايته. أما في مرحلة ما بعد 1967 فقد سبقت القصة الرواية عند محفوظ وتطورت عنها إلى عوالم جديدة، وهكذا جاءت مجموعة «**خمارة القط الأسود**» (1969) و«**تحت المظلة**» (1969) لتقدم مرحلة خاصة ومتميزة في حياة محفوظ الأدبيةساير فيها اتجاه مسرح العبث فيما

كتبه من مسـرحيات، وتخطى فيها مدرسـة الرواية الجديدة في فرنسـا فيما كتبه من قصص .

وهكذا كان محفوظ شـأنه شـأن جميع الفنانين العظام من شكسبير إلى بيكاسـو وبتهوفن، قد انقسـمت أعمالـه إلى مراحل متعـددة جرّب في كل منهـا أسـلوبا فنيا خاصا، علـى أن محفوظ قد اختلف عن هـؤلاء في أنه لم يتـرك أيا من هذه المـدارس تماما، وإنما كان يتخطـى كلا منها لفترة ليعود إليها بعد ذلك بسنوات بشكل جديد، وهكذا عاد إلى جميع مراحله السابقة ابتداء من السـبعينيات بما في ذلك المرحلة الفرعونية الأولى، وذلك حين كتـب «**العائـش في الحقيقة**» عـن إخناتون والتي صدرت عـام 1985، وقد استمرت هذه المـرحلة حتى نهاية الثمانينيات، ثم إذا به بعد رواية «**قشتمر**» التي كانت تنشـر مسلسـله في «الأهرام» وقت أعلن عن فوزه بجائزة نوبل، يتجـه إلـى القصـة القصيرة فقط، ويصـل - بعد فترة توقف بسـبب محاولة الاغتيـال التي تعرض لها عـام 1994 - إلى مرحلة أخـرى جديدة تحولت فيهـا القصـة إلى أقصوصـة لا تزيد علـى فقـرة أو فقرتين أو ثـلاث، لكنها شديدة التركيز حتى لتذكرنا بشعر «الهايكو» الياباني الذي لا تزيد القصيدة فيه على بضعة أبيات، لكنها تشع بمعانٍ قد تعجز عن تصويرها الملاحم .. فمَن من الكتّاب الكبار استطاع أن يقـدم هذا التاريخ الطويل للفن الروائي مجسدا مراحل تطوره عبر ما يقرب من قرن كامل من الزمان؟!

***

الباب الثالث

كلمات له

حديث ينشر لأول مرة..
حياتي بين القراءة والكتابة

في نهايات عام 1998 طلب مني الصديق العزيز الكاتب الصحفي الكبير سلامة أحمد سلامة أن أجري حوارا موسعا مع أديبنا الأكبر نجيب محفوظ؛ لينشر في العدد الأول من المجلة التي كان يجري الاستعداد لإصدارها باسم «وجهات نظر»، والتي اختير الأستاذ سلامة رئيسا لتحريرها.

وقد عرضت الأمر على الأستاذ نجيب فوافق، ولما كنت أجري حديثا أسبوعيا «للأهرام» مع أديبنا الأكبر يتعرض فيه للأمور السيّارة من سياسة وثقافة وغيره، فقد رأيت أن يختص هذا الحديث «بالكتب في حياته ، ما بين القراءة والكتابة» حتى لا نكرر ما يرد بالأحاديث الأسبوعية.

لكن الحالة الصحية للأستاذ لم تكن تسمح بأن أرهقه في جلسة واحدة بحديث قد يمتد ساعتين أو أكثر يتعرض فيه لحكايته مع القراءة ومع الكتابة منذ الطفولة وحتى الآن؛ لذا اتفقنا أننا كلما التقينا مساء يوم السبت من كل أسبوع لإجراء حديث «الأهرام» الأسبوعي أن نمضي ربع ساعة إضافية لاستكمال حديث «الكتب».

وقد استغرق الحديث وقتا أكثر مما كان مقررا له، ففي بعض الأحيان كنت أجد الأستاذ مرهقا فكنت أكتفي بالحديث الأسبوعي وأؤجل حديث

الكتب للجلسة التالية، وفي فبراير 1999 صدر العدد الأول من المجلة بدون حديث محفوظ الذي كانوا يريدون نشره تحت عنوان: «الكتب في حياتي»، والذي بقي مسجلا عندي بصوت أديب نوبل الكبير على شريط مدته 90 دقيقة تم تسجيله على عدة جلسات.

ويعلم الله كم حاولت منذ رحيل أديبنا الأكبر أن أعود إلى هذا الشريط أو إلى أي من الشرائط الأخرى التي سجلتها معه على مدى الـ12 عاما الأخيرة من حياته، والتي تزيد مدتها عن الـ500 ساعة، فكنت كلما سمعت نبرات صوته الرخيم دفعتني شدة الانفعال إلى وقف التسجيل وإعادة الشريط إلى مكانه.

واليوم وقد مرت أكثر من خمس سنوات على رحيل نجيب محفوظ وحلت هذا العام الذكرى المئوية لميلاد ذلك الأديب الذي رفع اسم الأدب العربي بين الأمم كما لم يفعل أي أديب من قبل أو من بعد، فإني أقدم هذا الحديث لقرائه الذين لا شك يفتقدونه كثيرا، أما الشريط نفسه فإني سأهديه- ضمن متعلقات أخرى له- إلى متحف نجيب محفوظ الذي أعلنت وزارة الثقافة أنها ستقيمه له حتى يكون صوته متاحا لعشاقه جنبا إلى جنب أوراقه وكتبه ومتعلقاته الشخصية.

وهذا هو نص الحديث:

قلت له: هل تذكر يا أستاذ نجيب أول كتب قرأتها؟ وتوقعت أن يأخذ الأستاذ وقته ليعود بالذاكرة لأقل قليلا من قرن كامل من الزمان فيتذكر الكتب الأولى التي قرأها.. لكنني وجدته يقول على الفور وبلا تردد: نعم أذكرها جيدا ولا أنساها!.. ثم استطرد يقول بلا مقاطعة مني:

أول كتاب قرأته كنت في مرحلة الدراسة الابتدائية، ربما في السنة الثانية أو الثالثة؛ أي في عام 1922 أو 1923، وقد كان لي صديق في الدراسة هو يحيى صقر، وكنت أعتز بصداقته لأنه كان من العائلة التي كان منها نجم الكرة آنذاك ممدوح مختار، وكنت أنا في ذلك الوقت من المولعين بالكرة.. وأذكر أنني في الفسحة وجدت معه كتابا يقرأ فيه، فسألته عنه فقال لي: إنها رواية بوليسية ووعدني أن يعطيها لي أقرأها بعد أن ينتهي منها، وقد ظللت أسأله عن هذه الرواية كلما رأيته وكأنها الرواية الوحيدة في العالم، وفي النهاية سئم مني فأعطاني إياها ولازلت مدينا له بذلك حتى الآن؛ لأنني من ذلك الوقت وحتى توقفت عن القراءة منذ بضعة سنوات بسبب ضعف نظري وأنا بي نفس الشغف للقراءة الذي تولد عندي؛ بسبب ما كان صديق الطفولة يحيى صقر يقوله لي عن هذه الرواية البوليسية التي لا قيمة لها، ولأنني أيضا منذ ذلك الوقت وحتى توقفت عن القراءة ظللت مستمرا في قراءة الكتب بشكل منتظم وبلا توقف.

قلت: هل كان من قبيل المصادفة أنك أنت الروائي العربي الأكبر كان أول كتاب في حياتك هو رواية؟

قال ضاحكا: أحمد الله أن أول كتاب قرأته لم يكن في علم الحشرات، وإلا لربما تشكل مستقبلي بطريقة أخرى.

قلت: وهل تذكر هذه الرواية الأولى؟

قال: بالطبع.. فقد كانت رواية بوليسية مترجمة من سلسلة «ابن جونسون».

وربما وجد الأستاذ في تعبير وجهي ما يفيد جهلي الكامل بـ«ابن جونسون»، فأخذ يشرح لي: كانت هناك سلسلة بوليسية شهيرة آنذاك هي سلسلة جونسون التي كان يترجمها حافظ نجيب، وكنا نقرأها ونحن أطفال، ففي ذلك الوقت لم تكن هناك كتب لصغار السن، فكان أقرب شيء يصلح لنا هو الروايات البوليسية، وبعد عشرات من الروايات التي كان بطلها جونسون، والتي زاد عددها عن العشرين انتهت السلسلة، لكن النجاح الذي حققته دعا حافظ نجيب إلى إصدار سلسلة جديدة عن ابن البطل أسماها ابن جونسون، والحقيقة التي اكتشفتها بعد ذلك هي أنه لم يكن هناك سلسلة تحمل اسم «ابن جونسون»، لكن المترجم أراد استثمار نجاح السلسلة بعد انتهائها، ولما كان بطلها جونسون قد مات في الرواية الأخيرة، فقد رأى حافظ نجيب أن يستكملها بأن يجعل للبطل ابنا يواصل به إصدار الروايات.

أي أن حافظ نجيب كان يؤلف هذه الروايات كما علمت بعد ذلك، لكنه كان يضع عليها عبارة «ترجمة حافظ نجيب»؛ لأن القراء كانوا يحبون الروايات البوليسية المترجمة، والتي لم يكن هناك من كتّاب مصريين يكتبونها.

وبينما كانت أحداث روايات جونسون تجري في فرنسا باعتبار أن المؤلف كان فرنسيا، فإن حافظ نجيب جعل أحداث روايات ابن جونسون تقع في أمريكا اللاتينية.

المهم أنني في ذلك الوقت لم أكن أعرف جونسون ولا ابنه، لكني حين تعرفت على الابن من خلال هذه الرواية الأولى عدت إلى بقية السلسلة

الخاصة بابن جونسون، ومنها عدت إلى السلسلة السابقة عليها والخاصة بجونسون نفسه، ثم تعرفت بعد ذلك على سلاسل أخرى لملفيل توب وروكامبول وغيرهما، وعن طريق كتب «الأهرام» المترجمة بدأت دائرة قراءتي تتوسع؛ حيث كنت أتابع إعلانات هذه الكتب بالجريدة وأهرع لشرائها، ولم أعد بحاجة لاستعارة الكتب من صديقي العزيز يحيى صقر.

قلت: إذا كانت تلك هي المحطة الأولى في قصتك مع الكتب، فأين كانت المحطة الثانية؟..

قال: المحطة الثانية كانت حين تعرفت لأول مرة على المنفلوطي، فانقلبت معي القراءة إلى مسألة جد وليس مجرد تسلية، فقد كنت وصلت إلى مرحلة من التشبع بالروايات البوليسية، وبدأت أسأل مَن حولي: أليس هناك شيء يقرأ بعد الروايات البوليسية؟ فقيل لي: لديك المنفلوطي!

وتدخلت في السياق لأسأل: مَن الذي قال لك هذا؟

قال: قريب لي كان يزورنا ولمست فيه اهتماما بالقراءة، وقد رشح لي كتابا كان قد صدر حديثا متضمنا أغاني الشيخ سلامة حجازي من أوبريت «روميو وجولييت»، وكتب المنفلوطي، وقد قرأت أغاني الأوبريت بسرعة لكنني أبحرت بعيدا جدا في كتابات المنفلوطي؛ حيث شردت في كتبه وغرقت فيها بدرجة لا تتخيلها، ولقد كان انبهاري بأسلوبه الأدبي هو السبب الرئيسي الذي جعلني أترك القسم العلمي الذي كنت أنوي الانضمام إليه وأتجه إلى القسم الأدبي، لقد كان عقلي قبل ذلك كله في الرياضة، لكنني فجأة وجدت نفسي أترك كل هذا تحت سحر كلمات هذا الأديب العظيم وأذهب إلى القسم الأدبي.

ويضيف الأستاذ: كان ذلك قرارا خطيرا بالنسبة لي وللأسرة ولمستقبلي، لكنني كنت مقتنعا بقراري الخطير هذا، فقد كان المنفلوطي يتحدث عن القراءة والكتابة بقدسية شديدة؛ بحيث لم يكن هناك في نظري شيء يعلو على أي منهما.

قلت: هل تذكر أول كتاب قرأته لمصطفى لطفي المنفلوطي؟

قال: أعتقد أنه كان «مقدمة النظريات»، لكن ما أتذكره جيدا هو أنني قرأت «ماجدولين» مثلا ما لا يقل عن عشر أو خمس عشرة مرة.

قلت: في هذه السن المبكرة؟ إن لغة المنفلوطي وأسلوبه الأدبي قد يستعصي اليوم على بعض خريجي الجامعة.

قال في اقتضاب: كانت في ذلك الوقت لغتنا العربية جيدة.

ثم واصل حديثه قائلا: ومع السنوات توالت قراءاتي حتى تعرفت بعد ذلك على جيل الرواد الذي أدين له بالكثير: العقاد وطه حسين والمازني ومحمد حسين هيكل قبل توفيق الحكيم ويحيى حقي.

قلت: هل تذكر أول مرة تعرفت فيها على العقاد مثلا؟

قال: لقد كنت أقرأ لعباس محمود العقاد باعتباره كاتب «الوفد»، وفي يوم قرأت إعلانا عن كتاب «الديوان» لعباس محمود العقاد، وأذكر أنني سألت والدي: هل يمكن أن يكون العقاد كاتب الوفد هذا شاعرا؟ فقال لي: ولم لا؟ فسارعت لشراء ديوانه الذي أذكر أنني قرأته عدة مرات وكنت كثيرا ما أعود إليه، وهكذا انفتح الباب أمامي لطه حسين والمازني وهيكل.

قلت: هل يمكن أن نقول إنك أخذت عن الروايات البوليسية فكرة الرواية وكيفية عمل الحبكة الروائية، بينما أخذت عن المنفلوطي اللغة والأسلوب الأدبي الذي كانت تفتقر له الروايات البوليسية؟

قال: أعتقد ذلك، فقد تأثرت كثيرا بلغة المنفلوطي وبأسلوبه البليغ، ولقد كان المنفلوطي يقوم بالترجمة هو الآخر، لكنهم كانوا يترجمون له الرواية ثم يعيد كتابتها بأسلوب أدبي.

كما إنني أخذت عنه أيضا الجانب الأخلاقي الذي أصبح له في كتاباتي بعد ذلك وجودا واضحا، وأعمال المنفلوطي كان البعد الأخلاقي فيها كبيرا، ورغم أن بعض موضوعاتها كانت أجنبية مثل رواية «ماجدولين» إلا أن روحها كانت إسلامية.

ويسرح الأستاذ قليلا وهو يقول: إن كتّاب ذلك الجيل من الرواد كان يغلب عليهم الفكر والنقد، وكل منهم أعطى مثالا برواية أو اثنتين أو بمجموعة من القصص. وهذا أقنعني أن الأدب هو وسيلة الفكر؛ لذلك حين وصلت لمرحلة اختيار تخصصي الدراسي اخترت الفلسفة.

قلت: فقد اخترت الفلسفة بدافع حبك للأدب.

قال: نعم.

قلت: لكن ذلك عكس التصور السائد بأنك درست الفلسفة قبل أن تعشق الأدب، وأنك اتجهت للأدب بعد ذلك.

قال: الحقيقة أنني عشقت الأدب قبل الفلسفة، لكني عشقت فيه أيضا الفكر، لدرجة أني تصورت أن الفلسفة ستكون هي عملي الرئيسي، وأن الأدب هو عشقي مثلما يعشق المرء الموسيقى أو السينما.

لذلك فقد كانت كتاباتي في الصحف والمجلات في أثناء فترة الدراسة في غالبها الأعم في الفكر والفلسفة، فكنت أكتب المقالات الواحدة وراء الأخرى، ثم أستريح بكتابة قصة قصيرة.

وقد استمر معي هذا الوضع إلى أن تخرجت، وبعد التخرج بسنتين طغى عشقي للأدب وأصبح يستحوذ عليَّ بدرجة كبيرة فأصبحت في أزمة وكان عليَّ أن أختار، إما الأدب أو الفلسفة، أحدهما للحرفة والآخر للثقافة العامة، وكما قال جان بول سارتر فإن «الاختيار عذاب»، وبالفعل كانت تلك فترة عذاب بالنسبة لي، وانتهى الأمر بأن اخترت الرواية، وبعد أن كنت قد أعددت نفسي للفلسفة واشتريت الكثير من المراجع، وبدأت أنشر مقالاتي بصفة شبه منتظمة وجدت أن القصة كانت «تنغز»، وأخذ «نغزها» يزداد مع الوقت، ولم تعد تكتفي بأن أعود إليها كلما أردت أن أستريح قليلا من كتابة المقالات.

وهكذا بعد أن كنت قد درست الفلسفة بدأت أدرس الرواية وانكببت على قراءة برنامج متكامل من الروايات العربية والعالمية، بما في ذلك ما كنت قد قرأته من قبل، فقد كنت أعيد قراءته بعين جديدة، قراءة تحليلية ومنظمة، وتابعت عصور الرواية من بداياتها وكيف تطورت من دولة إلى أخرى، فكنت أقرأ الرواية الروسية مثلا بكبار فرسانها، ثم الرواية الفرنسية أو الإنجليزية.. وهكذا.

ونظرا لأن عدد الكتب التي كان عليَّ قراءتها كان كبيرا، فقد كنت أقرأ الكتاب مرة واحدة فقط، حتى الكتب التي كانت تعجبني كنت بدلا من أن أقرأها ثانيا كما كنت أتمنى، كنت أقرأ بدلا منها كتابا جديدا، هذا طبعا

باستثناء القرآن الكريم الذي يعتبر الكتاب الوحيد الذي كنت أعود إليه كثيرا، وحتى يومنا هذا فإني كثيرا ما أعود لقراءة القرآن.

قلت: وهل قرأت الكتب السماوية الأخرى؟ إن مَن يقرأ «**أولاد حارتنا**» يشعر أنك قرأت الإنجيل والتوراة.

قال: الحقيقة أنني عدت إلى الإنجيل والتوراة وأنا أكتب هذه الرواية وقد أفاداني بالفعل، لكني كنت قد قرأتهما من قبل فكانت قراءتي الثانية لهما قراءة دراسية لأستفيد بهما في الرواية.

على أني قرأت في كل الأديان وليس السماوية فقط، فقد قرأت الكونفوشية والبوذية.

قلت: ومتى بدأت تنشر القصص بدلا من المقالات؟

قال: مع قراري الاتجاه للأدب بدأت أكتب قصصا أكثر من ذي قبل، وكنت أنشرها في المجلات الأدبية التي كانت منتشرة آنذاك مثل: «المجلة الجديدة» الأسبوعية والشهرية و«الرسالة» و«الرواية» التي كان يصدرها الزيات و«المعرفة» التي كان يصدرها الإسلامبولي، وقبل ذلك كنت أكتب قصصا أيضا جنبا إلى جنب المقالات، لكن لأني لم أكن منتظما فلم يكن أحد يعرفني ولم تكن هذه المجلات تقبل أن تنشر لي، لذلك كنت ألجأ إلى الجرائد القضائية، وهذه كانت تنشر أساسا أحكام المحاكم، ولكن لكي يحصل صاحبها على رخصة إصدار فقد كان يخصص صفحة يكتب بها أي شيء حتى لا يقال إنه يسترزق من الأحكام دون أن يكون بالجريدة أي مادة صحفية، فكنت أتصيد هذه الجرائد وأرسل لها مقالات وقصصا، وكانوا يرحبون جدا بهذه المادة المجانية التي لم تكن تكلفهم شيئا.

قلت: ألم تكن تتقاضى أي أجر عن كتاباتك في هذه الجرائد؟

قال: لا في هذه الجرائد ولا في غيرها، فحتى المجلات الأدبية الكبرى لم تكن تدفع شيئا، وكان الأجر الحقيقي هو أنك تنشر وأنك موجود على الساحة الثقافية، ولم يكن هذا يضايقني فقد كنت موظفا لي مرتب شهري وكان هذا يكفيني.

قلت: ألم تتقاضى أي أجر عن قصصك؟

قال: لا، وحين بدأت أقبض حدثت مشكلة.

قلت: كيف ذلك؟

فيضحك الأستاذ وهو يقول: كان الأستاذ صلاح ذهني مسئولا عن مجلة «الثقافة» فدعاني أن أنشر قصصي فيها، وقال لي: إن مجلة «الثقافة» أخت «الرسالة» فأرسلت له قصة أحدثت عندهم أزمة، فقد كانوا يتبعون نظاما ثابتا لم أكن أعرفه، وهو أن مَن ينشر لأول مرة يحصل على جنيه واحد، أما الأساتذة الكبار فيحصلون على جنيهين أو ثلاثة، وكانوا متفقين على هذا، لكن حدث أثناء عمل الحساب الختامي للمجلة أن وجدوا فائضا في الميزانية قدره جنيها واحدا فحدث إشكال وأتوا بالمحاسب وطلبوا منه أن يبحث قصة هذا الجنيه الذي يشير إلى خلل في الميزانية، وبعد البحث والمراجعة وجدوا أنه الجنيه الخاص بقصتي، والذي لم أكن قد قبضته متصورا أن النشر «ببلاش» مثل باقي المجلات، كنت أتصور أن القاعدة هي «البلاش»، لكن صلاح ذهني اتصل بي قائلا: يا أخي لقد سببت لنا «دوشة» في المجلة، وإن لك عندنا جنيها، قلت: جنيه إيه؟ قال: أجر القصة، قلت: وهل القصص لها أجر؟!

كان جنيه الأزمة هذا هو أول جنيه أتقاضاه، وقد أنفقته بالكامل على شلة العباسية الذين دعوتهم جميعا على العشاء.

قلت: عشاء؟!

قال: نعم، كان الجنيه يكفي لعشاء 20 فردا، فقد كانت وجبة الكباب بأربعة قروش، وكانت السلطات تقدم مجانا، فلك أن تتخيل ماذا كان بمقدورك أن تفعل بجنيه!

قلت: متى كان ذلك؟

قال: لا أتذكر، ربما في عام 1935 أو 1936.

وأواصل سؤالي الأستاذ عن الكتب التي قرأها لأقول له: هل كنت تحتفظ بالكتب التي كنت تقرأها؟

قال: كنت أحتفظ بها لفترة، ثم كنت أقوم بعد ذلك بتوزيعها؛ لأنها لم تكن مهمة في ذاتها، فحين بدأت أقرأ الكتب الجديدة أدركت أن الكتب الأولى البوليسية كانت للتسلية فقط.

قلت: وبعد جيل الرواد قرأت لمَن؟

قال: قرأت لتوفيق الحكيم ويحيى حقي، ثم حين وضعت لنفسي برنامجا للقراءة بدأت أقرأ الأدب العالمي، الإنجليزي والفرنسي والإغريقي القديم.

ثم يقول الأستاذ: لقد تكونت عقليتي الأدبية من الكتب والمقاهي، فالناس الذين عرفتهم أو شاهدتهم في المقاهي وفي الحواري التي عشت بها كانت مكوِّنا هاما لتفكيري، وكذلك الكتب التي صقلت قدراتي الأدبية،

فالكتب إلى جانب المتعة التي كانت هي الأساس بالنسبة لي: كانت الكتب تعطيني الخلفية النظرية للرواية وأسلوب كتابتها والأسلوب والبناء الفني، فقد قرأت كل أنواع الأدب من الرومانسي والواقعي إلى التعبيري والعبثي إلى أن توقفت عند ما يسمى بالحداثة، والتي لم أجد مَن يشرحها لي، بالإضافة إلى توقفي عن كتابة الرواية.

أما المقاهي فقد تعطيني الشخصيات والمشاكل، فقد كنت «لقَّاط»، وكنت أجلس أدخن الشيشة وأذني تستمع لكل كلمة.

ثم يشير الأستاذ إلى أذنه اليسرى التي بها جهاز السمع، ويقول: لم تكن هذه هي أذني آنذاك!

ثم يضيف: كنت وأنا جالس في القهوة أشاهد الناس وحركتها، ومن الممكن لمشهد أن يستغل في رواية.

قلت: كيف كنت تنظم وقت قراءاتك؟

قال: أساس التنظيم عندي هو عملي كموظف، وأن الحكومة لها في يومي عدد ساعات من الثامنة صباحا إلى الثانية بعد الظهر، هذا وضع لا يقبل المناقشة، وعلى أيامنا لم يكن هناك «تزويغ»، كان علينا جميعا أن نوقع في الساعة عند الحضور والانصراف؛ لذلك لم يكن من الممكن أن أبدأ حياتي كأديب قبل الساعة الرابعة بعد الظهر، بعد أن أعود إلى المنزل للغداء، ثم «أتسلطح شويه»، وكنت أنظم وقتي على أن أكتب ثلاث ساعات يوميا فيما عدا الخميس والجمعة حين كنت أذهب لاستحضار المادة من المقاهي والشوارع، وهناك مَن انتقدوا النظام، لكني بدون هذا النظام ما كنت قد أنجزت شيئا، وأساس النظام كان الوظيفة.

قلت: ألم تكن للوظيفة أي فائدة في حياة الروائي إلا أنها نظمت ساعات يومه؟

قال: لا، بل أفادتني أيضا في المادة الروائية تماما مثل المقاهي، وأعطتني نماذج كثيرة لبعض الشخصيات التي صورتها في رواياتي.

قلت: وماذا كانت الموضوعات التي كنت تقرأ فيها؟

قال: أولا الأدب لأنه تخصصي، وكنت أحب الثقافة العلمية والكتب العامة في السياسة، في الحضارة ... إلخ، كانت المعرفة عندي تشكل مشكلة؛ لأني كنت كمن أمامه محيط ويريد أن يشربه كله ولا يقدر.

ويكرر وكأنه يتأسى لذلك: لا يقدر!

ثم يشرح: لم يكن لدينا من وسيلة للمعرفة إلا القراءة، كانت هي الأساس، قراءة المجلة والكتاب.

قلت: وما هو البرنامج الذي وضعته لنفسك في قراءة الأدب؟

قال: لقد سألت نفسي: هل أقرأ بالتسلسل الزمني؛ أي أبدأ بالقديم، ثم الأحدث إلى أن أصل إلى الحاضر؟ لكني قلت: إذا بدأت بالفرعوني ثم الإغريقي وهكذا، قد ينتهي العمر قبل أن أصل إلى القرون الوسطى، وقد فضّلت أن أبدأ بالحديث وأعود إلى الماضي، لذلك كان من أوائل الروايات التي قرأتها ضمن برنامجي الدراسي هذا رواية «عوليس» لجيمس جويس، والتي كانت هي آخر مدرسة في ذلك الوقت بما اعتمدت عليه من تيار الوعي ومن بناء جديد تماما للرواية، ثم عدت بعد ذلك إلى بينت وجالزورثي، وكذلك في الفرنسية قرأت مارسيل بروست وأندريه

موروواه.. وغيرهم كثيرين، وكنت أبحث عن الرواية مترجمة إلى العربية، فإذا لم أجدها أقرأ الترجمة الإنجليزية، فإذا لم أجدها أجازف وأقرأها بالفرنسية.

قلت: هل كنت تقرأ الإنجليزية والفرنسية بسهولة؟

قال: الإنجليزية لم تكن تشكل لي مشكلة. أما الفرنسية فقد كنت أقرأ بها مراجع الدراسة، ولم يكن ذلك صعبا، لكن الأدب لغته أصعب، وإن كان هناك بعض الأدباء الفرنسيين الذين كانت لغتهم لا تستعصي عليَّ مثل أناتول فرانس الذي قرأت أعماله بالفرنسية دون أي عناء، بل دعني أقول لك إنه كان أسهل من بعض العرب، فقد كان أسهل عليَّ أن أقرأ أناتول فرانس بالفرنسية عن أن أقرأ الزيات بالعربية، فقد كانت لغته رفيعة جدا. وقوية جدا، أما فرانس فكانت لغته تنساب كالماء السهل الرقراق.

لكني قرأت بلزاك وفلوبير، ثم سارتر وكامي إلى أن وصلت إلى الرواية الجديدة التي كانوا يسمونها «الرواية الضد»، لكنها للأسف، رغم المجهود الكبير الذي بذلته فيها كانت المدرسة الروائية التي لم أستطع التعامل معها، قرأت لآلان روب جرييه وناتالي ساروت وميشيل بوتور.. وغيرهم، لكني لم أستوعب ما كتبوه.. الوحيدة التي كنت أستمتع بها كانت مارجريت دوراه، والتي أعتقد أنها روائية كبيرة حقا، ولست أفهم: لماذا يتم تصنيفها مع كتّاب «الرواية الضد».

أما في الرواية الألمانية فقد أعجبني توماس مان جدا، كما أني أعجبت بأشعار شيللر، وقرأت أيضا للإيطاليين من دانتي حتى ألبرتو مورافيا، كما

قرأت لمجموعة من الكتّاب الذين كانوا يقاومون الفاشية، وإن كنت لم أعد أتذكر أسماءهم الآن.

قلت: وماذا عن الرواية الروسية؟

فانفرجت أسارير الأستاذ وهو يقول: الله على الأدب الروسي الله! ثم أخذ يسرد أسماءهم في سعادة واضحة: دوستويفسكي وترجنيف وتولستوي وتشيكوف.. إن الأدب الروسي هو أجمل الآداب جميعا؛ لأنه أقربها لنا جوا وموضوعا وفلسفة.

قلت: وما هو نوع الأدب الذي تأثرت به أكثر؟

قال: أنا لم أتابع كاتبا واحدا بشكل متصل حتى أتأثر به، فقد كنت أجيء لكل كاتب وأبحث عن رائعته الأشهر، فأقرأها ثم أنتقل إلى رائعة الكاتب التالي وهكذا.

قلت: لقد تطورت الرواية كثيرا منذ بداياتها في القرن الـ18 وعلى امتداد القرن الـ19 إلى أن وصلت إلى القرن الـ20، وفي الأدب العربي كنت أنت أكثر من طوّر الرواية على مدى ما يقرب من قرن كامل من الزمان منذ بدأت الكتابة في أوائل الثلاثينيات من القرن الـ20 وحتى نهايته، لدرجة أن المستعرب الأمريكي الكبير روجر آلان يقول: إنه بفضلك أصبحت هناك مدرسة روائية عربية فنستطيع أن نتحدث الآن عن الرواية العربية كما نتحدث عن الرواية الروسية أو الإنجليزية.. فما هي الرواية في نظرك؟

قال بعد لحظة تأمل قصيرة: الرواية بكل بساطة هي حكاية تُقدم، لكن من خلال ذلك هي تُقدم شخصيات وقضايا اجتماعية أو نفسية أو فكرية،

والرواية لها دائما فكر، فالرواية كما أعرفها هي الفكرة والشخصيات والسرد.

قلت: وإذا اختفى ركن من هذه الأركان الثلاثة هل تختل الرواية؟

قال: أنا لا أتصور مثل هذه الرواية، مع احترامي لكل تجارب القرن الـ20 التي حاولت ذلك، وتلك محاولات لا أستطيع أن أحكم عليها؛ لأني لم أدرسها بالقدر الكافي بسبب امتناعي عن القراءة في سنواتي الأخيرة. لقد توقفت عند تيار الوعي الذي جسده جيمس جويس وتعبيرية كافكا والمدرسة السوريالية.

لكن دعني أقول لك: إن قيمة أي قالب فني هو إنسانيته، أي في قدرته على التعبير عن الإنسانية جمعاء، والرواية كما عرفتها بأشكالها التقليدية عبرت عن كل ما يمكن التعبير عنه، فقد عبرت عن الفرد، وهناك روايات تدور حول شخصية واحدة، أو عن الثنائية أو أسرة أو شارع أو مدينة أو قارة كما فعل دوس باسوس، الذي كتب عن أمريكا اللاتينية أو عن العالم ككل، كما فعل جورج أورويل في رواية «1948»؛ أي أنها استوفت عملها تماما في التعبير عن كل شيء من الفرد إلى الإنسانية جمعاء.

قلت: قالت جائزة نوبل في حيثيات منحك أكبر جائزة أدبية في العالم أنك من خلال أعمالك التي ذخرت بالإيحاءات، التي تراوحت ما بين الواقعية الصريحة والغموض الموحي قد صنعت فنا روائيا عربيا يعبر عن الإنسانية جمعاء.

وكعادته كلما امتدحه أحد سكت الأستاذ ولم يجب.

في تسلم جائزة نوبل

«أنا ابن حضارتين»

كان من بين ما اتفق عليه ستوري آلين السكرتير الدائم للجنة نوبل مع كاتبنا الأكبر يوم قابله في مكتبه أن يقوم بإعداد الكلمة التي سيلقيها في تسليم الجائزة، والتي يجب أن يتم إرسالها إلى ستوكهولم في موعد حدده كي يتم طبعها في الوقت المناسب، وطلب آلين ألا يتم نشر الكلمة ولا أجزاء منها إلا بعد أن يتم إلقاؤها بالاحتفال الذي تقيمه الأكاديمية السويدية سنويا بهذه المناسبة.

ولم تمض أيام حتى سلمني محفوظ الكلمة بخط يده في تسع صفحات من الحجم الكبير، وقد قمت بترجمتها بنفسي إلى الإنجليزية والفرنسية حتى لا أعهد بها إلى مَن يستطيع إفشاءها، وتم إرسال الكلمة إلى السويد باللغات الثلاث.

أما عند إلقاء الكلمة فقد اشترط عليَّ محفوظ أن أقرأها أولا باللغة العربية، ثم بعد ذلك أقوم بترجمتها إلى الإنجليزية، وقال: أنا أعرف أن أحدا من الحضور لن يفهم اللغة العربية، لكن تلك هي المرة الأولى التي يفوز بها الأدب العربي بجائزة نوبل، وقد آن الأوان أن يسمع جرْس اللغة العربية بين جدران الأكاديمية السويدية العريقة.

وقد كان محفوظ محقا، ففي اليوم الموعود وهو 8 ديسمبر 1988 ، وفي تمام الساعة 5.30 بعد الظهر تجمع بالأكاديمية السويدية صفوة من رجال الأدب والثقافة وبعض سفراء الدول العربية، وجلس في الصف الأول كل من أم كلثوم وفاطمة كريمتا نجيب محفوظ وإلى جوارهما السفير المصري عبد الرحمن مرعي وحرمه السيدة/ أمينة سلماوي، وبعد أن قدمني رئيس الأكاديمية فألقيت كلمة محفوظ تعددت تعليقات الحضور على اللغة العربية وعلى رنينها الجديد على آذانهم، وقال أحد النقاد: لقد سعدت بأن استمعت إلى اللغة التي يكتب بها محفوظ.

كذلك تناقلت الصحف في الأيام التالية كلمة محفوظ، وأوردت مقتطفات منها مركزة بشكل خاص على قوله: أنا ابن حضارتين! .. وكذلك على مطالبته لأول مرة بدولة فلسطينية.

وهذا هو نص الكلمة:

سيداتي سادتي:

في البدء أشكر الأكاديمية السويدية ولجنة نوبل التابعة لها على التفاتها الكريم لاجتهادي المثابر الطويل، وأرجو أن تتقبلوا - بسعة صدر - حديثي إليكم بلغة غير معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هي الفائز الحقيقي بالجائزة، فمن الواجب أن تسبح أنغامها في واحتكم الحضارية لأول مرة. وإني كبير الأمل ألا تكون المرة الأخيرة، وأن يسعد الأدباء من قومي بالجلوس بكل جدارة بين أدبائكم العالميين الذين نشروا أريج البهجة والحكمة في دنيانا المليئة بالشجن.

سادتي:

أخبرني مندوب جريدة أجنبية في القاهرة بأن لحظة إعلان اسمي مقرونا بالجائزة ساد الصمت وتساءل كثيرون عمن أكون. فاسمحوا لي أن أقدم لكم نفسي بالموضوعية التي تتيحها الطبيعة البشرية. أنا ابن حضارتين تزوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا، أولاهما: عمرها سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونية، وثانيتهما: عمرها ألف وأربعمائة سنة وهي الحضارة الإسلامية. ولعلي لست في حاجة إلى تعريف بأي من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من أهل الصفوة والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن في مقام النجوى والتعارف.

وعن الحضارة الفرعونية لن أتحدث عن الغزوات وبناء الإمبراطوريات، فقد أصبح ذلك من المفاخر البالية التي لا ترتاح لذكرها الضمائر الحديثة والحمد لله. ولن أتحدث عن اهتدائها لأول مرة إلى الله سبحانه وتعالى وكشفها عن فجر الضمير البشري. فلذلك مجال طويل فضلا عن أنه لا يوجد بينكم مَن لم يلم بسيرة الملك النبي إخناتون، بل لن أتحدث عن إنجازاتها في الفن والأدب ومعجزاتها الشهيرة الأهرام وأبو الهول والكرنك. فمَن لم يسعده الحظ بمشاهدة تلك الآثار، فقد قرأ عنها وتأمل صورها. دعوني أقدمها- الحضارة الفرعونية- بما يشبه القصة طالما أن الظروف الخاصة بي قضت بأن أكون قصاصا، فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية المسجلة. تقول أوراق البردي إن أحد الفراعنة قد نما إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء الحريم وبعض رجال الحاشية. وكان المتوقع أن يجهز على الجميع فلا يشذ في تصرفه عن مناخ زمانه. ولكنه

دعـا إلى حضرته نخبة مـن رجال القانون. وطالبهـم بالتحقيق فيما نما إلى علمـه، وقال لهم: إنه يريد الحقيقة ليحكم بالعدل. ذلك السـلوك في رأيي أعظم من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات وأدل على تفوق الحضارة من أي أبهة أو ثراء. وقد زالت الإمبراطورية وأمسـت خبرا من أخبار الماضي. وسوف تتلاشى الأهرام ذات يوم، ولكن الحقيقة والعدل سيبقيان مادام في البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض.

وعـن الحضـارة الإسـلامية فلن أحدثكم عـن دعوتها إلـى إقامة وحدة بشرية في رحاب الخالق تنهض على الحرية والمساواة والتسامح، ولا عن عظمة رسـولها.. فمن مفكريكم مَن كرمه كأعظم رجل في تاريخ البشـرية، ولا عـن فتوحاتهـا التـي غرسـت آلاف المـآذن الداعيـة للعبـادة والتقوى والخيـر على امتـداد أرض مترامية ما بين مشـارف الهنـد والصين وحدود فرنسا. ولا عن المؤاخاة التي تحققت في حضنها بين الأديان والعناصر في تسـامح لم تعرفه الإنسانية من قبل ولا من بعد. ولكني سأقدمها في موقف درامي- مؤثر- يلخص سمة من أبرز سماتها. ففي إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى في مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة من التراث الإغريقي العتيد. وهي شـهادة قيّمة للروح الإنسـاني فـي طموحـه إلى العلـم والمعرفـة، رغـم أن الطالـب يعتنق دينا سـماويا، والمطلوب ثمرة حضارة وثنية.

قـدر لـي يا سـادة أن أولـد في حضـن هاتيـن الحضارتيـن. وأن أرضع لبانهما وأتغذى على آدابهما وفنونهما، ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنـة. ومن وحي ذلـك كله بالإضافة إلى شـجوني الخاصة - ندت عني

كلمات.. أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجت اجتهادي بجائزة نوبل الكبرى. فالشكر أقدمه لها باسمي وباسم البناة العظام الراحلين من مؤسسي الحضارتين.

سادتي..

لعلكم تتساءلون: هذا الرجل القادم من العالم الثالث كيف وجد من فراغ البال ما أتاح له أن يكتب القصص وهو تساؤل في محله.. فأنا قادم من عالم ينوء تحت أثقال الديون حتى ليهدده سدادها بالمجاعة أو ما يقاربها.. يهلك منه أقوام في آسيا من الفيضانات. ويهلك آخرون في إفريقيا من المجاعة. وهناك في جنوب إفريقيا ملايين المواطنين قضى عليهم بالنبذ والحرمان من أي من حقوق الإنسان في عصر حقوق الإنسان وكأنهم غير معدودين من البشر. وفى الضفة وغزة أقوام ضائعون رغم أنهم يعيشون فوق أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم. هبوا يطالبون بأول مطلب حققه الإنسان البدائي، وهو أن يكون لهم موضع مناسب يعترف لهم به، فكان جزاء هبتهم الباسلة النبيلة - رجالا ونساء وشبابا وأطفالا- تكسيرا للعظام وقتلا بالرصاص وهدما للمنازل وتعذيبا في السجون والمعتقلات، ومن حولهم مائة وخمسون مليونا من العرب، يتابعون ما يحدث بغضب وأسى؛ مما يهدد المنطقة بكارثة إن لم تتداركها حكمة الراغبين في السلام الشامل العادل. أجل كيف وجد الرجل القادم من العالم الثالث فراغ البال ليكتب قصصا؟ ولكن من حسن الحظ أن الفن كريم عطوف. وكما أنه يعايش السعداء فإنه لا يتخلى عن التعساء، ويهب كل فريق وسيلة مناسبة للتعبير عما يجيش به صدره.

وفـي هذه اللحظة الحاسـمة من تاريـخ الحضارة لا يعقـل ولا يقبل أن تتلاشـى أنّات البشـر في الفراغ. لا شك أن الإنسـانية قد بلغت على الأقل سن الرشد. وزماننا يبشر بالوفاق بين العمالقة، ويتصدى العقل للقضاء على جميع عوامل الفناء والخراب. وكما ينشط العلماء لتطهير البيئة من التلوث الصناعي، فعلى المثقفين أن ينشطوا لتطهير البشرية من التلوث الأخلاقي. فمـن حقنا وواجبنا أن نطالب القادة الكبار فـي دول الحضارة، كما نطالب رجـال اقتصادها بوثبة حقيقية تضعهـم في بؤرة العصر. قديما كان كل قائد يعمـل لخيـر أمته وحدها معتبـرا بقية الأمم خصوما أو مواقع للاسـتغلال. دونما أي اكتراث لقيمة غير قيمة التفوق والمجد الذاتي. وفي سـبيل ذلك أهـدرت أخلاق ومبادئ وقيم. وبرزت وسـائل غير لائقة. وأزهقت أرواح لا تحصى. فكان الكذب والمكر والغدر والقسوة من آيات الفطنة، ودلائل العظمـة. اليـوم يجـب أن تتغير الرؤية مـن جذورها. اليـوم يجب أن تقاس عظمـة القائـد المتحضـر بمقدار شـمول نظرته وشـعوره بالمسـئولية نحو البشـرية جميعا. ومـا العالم المتقدم والثالث إلا أسـرة واحدة، يتحمل كل إنسـان مسئوليته نحوها بنسـبة ما حصل من علم وحكمة وحضارة. ولعلي لا أتجاوز واجبي إذا قلت لهم باسم العالم الثالث: لا تكونوا متفرجين على مآسـينا ولكـن عليكم أن تلعبوا فيهـا دورا نبيلا يناسـب أقداركم. إنكم من موقع تفوقكم مسـئولون عن أي انحراف يصيـب أي نبات أو حيوان فضلا عن الإنسـان في أي ركن من أركان المعمورة. وقد ضقنا بالكلام وآن أوان العمل. آن الأوان لإلغاء عصر قُطاع الطرق والمرابين. نحن في عصر القادة المسـئولين عن الكرة الأرضية. انقذوا المستعبدين في الجنوب الإفريقي. انقذوا الجائعين في إفريقيا. انقذوا الفلسطينيين من الرصاص والعذاب، بل

انقذوا الإسرائيليين من تلويث تراثهم الروحي العظيم. انقذوا المديونين من قوانين الاقتصاد الجامدة. والفتوا أنظارهم إلى أن مسئوليتهم عن البشر يجب أن تقدم على التزامهم بقواعد علم لعل الزمن قد تجاوزه.

سادتي..

معذرة. أشعر بأني كدرت شيئا من صفوكم، ولكن ماذا تتوقعون من قادم من العالم الثالث. أليس أن كل إناء بما فيه ينضح؟!

ثم أين تجد أنّات البشر مكانا تتردد فيه إذا لم تجده في واحتكم الحضارية التي غرسها مؤسسها العظيم لخدمة العلم والأدب والقيم الإنسانية الرفيعة؟.. وكما فعل ذات يوم برصد ثروته للخير والعلم طلبا للمغفرة، فنحن - أبناء العالم الثالث - نطالب القادرين المتحضرين باحتذاء مثاله واستيعاب سلوكه ورؤيته.

سادتي..

رغم كل ما يجري حولنا، فإنني ملتزم بالتفاؤل حتى النهاية. لا أقول مع الفيلسوف «كانت» إن الخير سينتصر في العالم الآخر. فإنه يحرز نصرا كل يوم. بل لعل الشر أضعف مما نتصور بكثير. وأمامنا الدليل الذي لا يجحد. فلولا النصر الغالب للخير ما استطاعت شراذم من البشر الهائمة على وجهها عرضة للوحوش والحشرات والكوارث الطبيعية والأوبئة والخوف والأنانية.. أقول لولا النصر الغالب للخير ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكوّن الأمم وتكتشف وتبدع وتخترع وتغزو الفضاء

وتعلن حقوق الإنسان. غاية ما في الأمر أن الشر عربيد ذو صخب ومرتفع الصوت، وأن الإنسان يتذكر ما يؤلمه أكثر مما يسره. وقد صدق شاعرنا أبو العلاء عندما قال:

إن حزنا ساعة الموت أضعاف سرور ساعة الميلاد

سادتي..

أكرر الشكر وأسألكم العفو.

نجيب محفوظ

في افتتاح معرض فرانكفورت الدولي للكتاب
العلاقة بين الشرق والغرب

كانت المرة الأولى التي يستضيف فيها أكبر معارض الكتب في العالم وهو معرض فرانكفورت الدولي للكتاب العالم العربي كضيف شرف، دورته التي انعقدت في أكتوبر عام 2004، وقد اتفقت اللجنة المنظمة على أن يكون في حفل الافتتاح كلمة لأكبر أدباء العربية جنبا مع كلمة مستشار ألمانيا (رئيس وزرائها) في ذلك الوقت جيرهارد شرودر، والأمين العام لجامعة الدول العربية - حينئذٍ - السيد عمرو موسى.

وهذا هو نص الكلمة:

سيداتي سادتي..

لا أستطيع أن أبدأ كلمتي إلا بتوجيه التحية لألمانيا مخترعة الطباعة، فبدونها ما عرفنا الكتاب، وما اجتمعنا حوله هنا اليوم.

قد يقول قائل: إن الكتاب قد يختفي قريبا من حياتنا أمام تطور وسائل الاتصال الحديثة، ويصبح الكتاب الإلكتروني هو المصدر الأول للمعرفة، لكن الحقيقة أن وجود الكتاب بين يدي القارئ، أو إلى جوار سريره، لا يمكن أن يعوضه التصاق المرء بشاشة الكومبيوتر ساعات متصلة لقراءة كتابه المفضل.

ومـع ذلك فإن فضل آلة الطباعـة لا يمكن إنكاره حتى وإن انتهى عهدنا بالكتـاب المطبـوع، فلمـدة 500 عام ظلـت الآلة التـي اخترعهـا يوهانس جوتنبرج عام 1450 هي وسـيلتنا الأولى للطباعـة دون أن يطرأ عليها تغيير كبير حتى القرن العشرين.

علـى أن تحيتنا لألمانيا لا تخلو أيضا من سـبب آخـر مهم، وهو اختيار معـرض فرانكفورت الدولي للكتاب العالم العربي كضيف شـرف الدورة الحاليـة لأول مرة في تاريـخ هذا المعرض، الذي هو أكبر معارض الكتاب فـي العالم. إن العالـم العربي صاحب ثقافة وحضـارة عريقة، وقد كان من الغريـب ألا يقع عليه هـذا الاختيار من قبل، خاصة وقـد جمعت بينه وبين ألمانيـا علاقات تاريخيـة تعود إلى مئات السـنين. فقد اهتمـت ألمانيا عبر الكثير من كتّابهـا بالعالم العربي، كما اهتم العرب بألمانيا وثقافتها، وهناك مـن كتّابنا من تأثر بأعـلام الأدب والفكر الألماني مـن جوته وتوماس مان إلى نيتشه وشوبنهاور.

هـل كان من الضروري أن تحدث تلك المواجهة المؤسـفة بين الغرب والشـرق العربـي الإسـلامي حتـى نتنبـه إلـى أهميـة مواصلـة العلاقة في ما بيننا؟! هل كان يجب أن يشـعر الغرب بأن الشـرق يهدد أمنه حتى يسعى لإعادة اكتشـاف حضارته الإسـلامية وثقافته العربيـة؟! وهل كان يجب أن يشـعر العرب بأن صورتهم يتم تشـويهها يوميا في وسـائل الإعلام الغربية حتى يسعوا لتقديم أنفسهم بأنفسهم؟!

أيا كانت الأسباب فها نحن قد وصلنا إلى محطة لقاء أخرى في تاريخنا علينا أن نسـتفيد منهـا لصالح الجانبين، ودعوني أبدأها بالرد على السـؤال

الذي أتصور أن الزائر لمعرض فرانكفورت سيأتي بحثا عن إجابته، وهو: ما هي الثقافة العربية وما هي مصادرها؟

إن مصادر الثقافة العربية المعاصرة ثلاثة:

أولا: الحضارات القديمة التي عرفتها المنطقة العربية، وبشكل خاص المصرية القديمة، وحضارة بين النهرين في العراق، بالإضافة للحضارة التي قامت في اليمن والحضارة الآشورية والأكادية وغيرها.

لقد كانت الحضارة المصرية القديمة من أكثر حضارات العالم القديم إنسانية، فهي كانت تقدس الحياة الإنسانية، لدرجة أنها لم تعرف نظام العبيد الذي عرفته حضارات أخرى، ولا عرفت نظام القرابين البشرية.

ولقد وصل حب الحضارة المصرية للحياة وتقديسها لها أن صورت الحياة الأخرى على شاكلة حياتنا هذه، ومن يتمعن في النقوش الجدارية في المقابر المصرية القديمة يدرك على الفور أن تلك لم تكن حضارة تقدس الموت- كما يبدو لغير المتعمقين فيها- وإنما هي حضارة تقدس الحياة، فتلك الجدران تصور الأشياء التي ستنتقل مع المتوفى إلى العالم الآخر، وهي لا تخلو من مباهج الحياة الدنيا، من أشهى أصناف الفاكهة إلى أجمل الراقصات وأرق آلات الموسيقى.

وإذا كنا نوجه التحية اليوم لألمانيا مخترعة أول آلة للطباعة في القرن الخامس عشر بعد الميلاد، فإن حضارة بين النهرين كانت أول من اخترع الأبجدية قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين، ومما يؤسف له أن تكون بقعة الحضارة هذه مسرحا الآن لمواجهة دامية بين الشرق والغرب، وهي مواجهة يمكن أن يكون لقاؤنا هنا هو علاجها الأكيد.

أما المصدر الثاني لحضارتنا في العالم العربي فهو الإسلام، ذلك الدين السمح العظيم الذي منح الشعوب العربية منظومة القيم التي صاغت هويتنا الحالية ومنها الحرية، فمقولة: «**لا اله إلا الله**» التي هي أساس شهادة المسلم، إنما تعني أنه لا عبودية إلا لله وحده، وليس لأي إنسان على إنسان، ومنها أيضا المساواة، فالبشر جميعا في الإسلام سواسية أبيضهم وأسودهم وأصفرهم، لأنهم جميعا أمة الإسلام أيا كانت أصولهم العرقية، ومنها أيضا التسامح، فالدولة الإسلامية عاش وانتعش فيها العلماء والفلاسفة من المسيحيين واليهود، كما تولوا مناصب كبيرة في الدولة وصلت إلى رئاسة الوزراء في الأندلس، ومنها أخيرا العدالة التي هي أساس الملك، وتراث الإسلام مليء بالروايات التاريخية التي طبق فيها الحكام العدالة على أقرب الناس إليهم.

أما المصدر الثالث لحضارتنا العربية فهو حضارتكم الغربية ذاتها التي صارت اليوم أحد أهم المؤثرات في حضارتنا الحالية، ليس فقط في السياسة وفي العلوم، وإنما أيضا في الآداب والفنون.

سيداتي سادتي:

لقد كان من نتيجة هذا الثراء أن ظلت الحضارة العربية تفرز حتى اليوم نوابغ فردية هنا وهناك على رغم ما تعانيه من صعاب، باعتبارها إحدى مناطق العالم النامية، فهناك من العرب مَن برزوا على الساحة الدولية في مختلف المجالات من الأدب والسينما والفنون إلى الطب والرياضيات وعلوم الفضاء، وقد حصل بعضهم على أرفع الأوسمة الدولية.

مـن هنا يتضح أن ذلك الآخر العربي الذي يهـدف لقاؤنا اليوم للتعرف على حقيقته ليس غريبا تماما، فهو قد يتمايز في جانب أو آخر من حضارته عـن حضارتكـم الغربيـة، لكنـه يشـاركها فـي الكثيـر مـن القيم الإنسـانية والمبادئ السامية. ولا عجب في ذلك. فمثلما تؤثر اليوم الحضارة الغربية في حضارتنا العربية، فقد سـبق أن أثرت الحضارة العربية في عصور سابقة في الحضارة الغربية؛ لأن الحضارة الإنسانية تتعدد ثقافتها لكنها في النهاية كلٌّ لا يتجزأ.

نجيب محفوظ

في افتتاح مؤتمر القاهرة الأول للرواية العربية
«المؤتمر حقق أمنيتي»

درج المجلس الأعلى للثقافة منذ سنوات على عقد مؤتمر دولي لكل من الإبداع الروائي والشعري بالتبادل من بين سنة وأخرى، وفي الدورة الأولى، والتي أقيمت عام 1998 ، وكانت مخصصة للرواية، وكانت الكلمة الرئيسية لأديب الرواية العربية الأكبر نجيب محفوظ، والذي أنابني لإلقائها في جلسة الافتتاح، وهذا هو نصها:

إن انعقاد مؤتمر دولي في القاهرة حول الرواية العربية هو من الأمنيات التي طالما داعبت خيالي، وقد سعدت بأن تلك الأمنية قد تحققت أخيرا، وإن كانت الظروف قد حالت دون مشاركتي في مؤتمركم الكبير، وهي مشاركة كنت سأسعد بها غاية السعادة، لكن كما يعلم الكثير منكم فإن ظروفي الصحية خلال السنوات الثلاث الأخيرة قد حالت دون تواجدي في الكثير من المناسبات التي كنت أود أن أحضرها.

وإن عقد مؤتمر للرواية العربية، وعلى هذا المستوى العالمي، هو بمثابة تحية كبيرة للفن الروائي العربي وتطوره عبر السنين، وإقرار بما أنجزته الرواية خلال هذا القرن في الدول العربية.

والفائدة المرتقبة من مثل هذا المؤتمر هي الاطلاع على وجهات نظر مَن يدرسون الرواية العربية في الوطن العربي وفي العالم، والتعرف على آرائهم عن تطور الفن الروائي العربي ومكانة الرواية العربية بين سائر الفنون الروائية في بقية دول العالم، وفي مثل هذه المؤتمرات فإن التفاعل الحي بين مختلف هذه الآراء والرؤى النقدية هو ما لا يمكن التوصل إليه من خلال الاكتفاء بقراءة الدراسات الخاصة بالرواية العربية، والتي تصدر في مختلف بلاد العالم سواء كدراسات أكاديمية بالجامعات أو كمؤلفات نقدية لمن يتابعون الفن الروائي العربي وتطوره.

إن مثل هذا المؤتمر لاشك سيكون له أثر كبير في إثراء الاهتمام بالفن الروائي في مصر وفي الوطن العربي، بما سيركزه من اهتمام على الرواية والروائيين العرب وعلى الدراسات الخاصة بالرواية العربية، وذلك يأتي في وقت يتعرض فيه الأدب لمنافسة شديدة جدا من الدراما المصورة سواء في التليفزيون أو السينما، وقد كان لتلك المنافسة تأثير سلبي مزدوج على الرواية خاصة وعلى الأدب عامة، فإن كان الأدب يقوم على عنصرين أساسيين هما المؤلف والقارئ، فإن الدراما المصورة ضربت الأدب في الناحيتين، فهي تستحوذ على الكثير من المؤلفين وأيضا على القراء.

وإني لأتمنى أن يساهم مؤتمر القاهرة للإبداع الروائي العربي في الاهتمام بذلك المؤلف الذي لا يصرفه التأليف للتليفزيون أو السينما عن الكتابة الأدبية، وكذلك بالقراء الذين لا يشبعهم إلا القراءة الجادة.

وفي ظل تلك الظروف فإن رصد جائزة كبيرة للرواية تحمل اسم القاهرة لهو عمل يلاقي منا كل الترحيب، وإني مازلت أتذكر كيف كانت

الجوائز في بداياتي الأدبية هي أحد مصادر التشجيع الرئيسية، والتي دفعتني لمواصلة المشوار، وأتذكر منها - على سبيل المثال - جائزة قوت القلوب الدمرداشية فقد كانت أول جائزة أحصل عليها في حياتي، وكانت السيدة قوت القلوب هي سليلة إحدى العائلات الكبرى في مصر، وقد رصدت جائزة لشباب الأدباء فتقدمت لها وفزت بها. وأذكر أيضا جائزة أخرى قدمها المجمع اللغوي وتقدمت لها وفزت، وجائزة ثالثة لوزارة المعارف، وكانت جميع تلك الجوائز تقوم على مبالغ زهيدة، لكنها كانت ذات أهمية كبيرة، فقد كانت كل مؤلفاتي حبيسة درج مكتبي ولم يكن لدي أمل في أن يقبل ناشر أن ينشرها، وكان الأمل الوحيد لها في الخروج إلى الحياة الأدبية هو عن طريق حصولها على جائزة.

وخلال هذه السنوات الأولى من تكويني ككاتب كانت الجوائز بمثابة التأكيد الوحيد لي على أن ما أكتبه هو بالفعل أدب، خاصة وأن معظم هذه الجوائز كانت تشكل لها لجان تضم أكبر الأسماء الأدبية من طه حسين إلى العقاد.

ومع ذلك فدعوني أهمس في أذن السادة الزملاء الروائيين الذي سيفوز كل منهم على التوالي إن شاء الله بجائزة القاهرة للرواية، بأن حظي الشخصي في الجوائز المالية كان دائما سيئا، وأتمنى أن يكون حظكم جميعا أفضل.

فبعد أن تحدد طريقي في الفن الروائي وعرفني الناس فزت بجائزة الدولة مرتين، كانت المرة الأولى هي جائزة الدولة القديمة التي كانت قائمة قبل الثورة، وكانت تعرف باسم جائزة الملك فؤاد وكانت قيمتها

المالية ألف جنيه، وقد كان هذا المبلغ كبيرا في ذلك الوقت، وخشية أن أضيّع تلك الثروة فقد اشتركت في جمعية كانت تقوم بإنشاء فيلات على النيل بالمعادي وأنا بطبيعتي لا أحب أن أسكن إلا على النيل، وقد وجدت في ذلك فرصة سانحة لتحقيق ذلك، لكن بعد أن دفعت الألف جنيه بالتمام والكمال حدث أن كان رئيس مجلس إدارة الجمعية والسكرتير في طريقهم إلى الإسكندرية حاملين معهم نقودنا جميعا؛ لإتمام بعض العمليات التجارية حين انقلبت بهم السيارة ولقوا حتفهم وضاعت أموالنا، فقد وجدت الحقيبة التي كانت معهم فارغة بعد أن أخذ صاحب النصيب ما كان بها!

وحين جاءتني جائزة الدولة مرة أخرى بعد الثورة قلت: «فرجت!»، فقد كانت هذه المرة ألفين وخمسمائة جنيه، وكان الاعتقاد السائد وقتها أن كل الفنانين معفيون من الضرائب لكن يشاء الحظ أن يتضح بمجرد استلامي الجائزة أن الأديب ليس فنانا وفق تعريف الحكومة وهو على ما يبدو التشكيلي فقط؛ لذلك حاسبتني الضرائب بأثر رجعي على كل السنوات الماضية التي تصورت نفسي فيها فنانا لا تستحق عليه الضرائب، وهكذا راحت الجائزة وفوقها ما هو أكثر!

ثم أخيرا جاءت جائزة نوبل فقلت إنها الخاتمة التي ستعوضني عن كل ما فات، لكنها صودرت هي الأخرى، وإن كانت المصادرة هذه المرة جاءت من أسرتي، ولم يبق لي منها إلا نصيبي الشخصي وفق الشرع الإسلامي وقد تبرعت به لعمل خيري.

أرجو ألا أكون قد أطفأت من حماسكم لجائزة القاهرة للإبداع الروائي العربي التي سـعدت بها أكبر سعادة، والتي أثق أنها بين أيديكم ستكون لها ديمومـة أكبر من جوائزي، وأتمنـى لكم ولمؤتمركم، بل ولمؤتمرنا جميعا كل النجاح والتوفيق.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نجيب محفوظ

في المؤتمر الدولي للأدب والثقافة والديمقراطية

«الاعتداء على كاتب واحد اعتداءٌ على كل الكتّاب»

في عام 1995 عقد في إسلام أباد بباكستان المؤتمر الدولي الأول للأدباء والمفكرين ورجال الثقافة القادمين من مختلف أنحاء العالم، وكان المؤتمر يحمل عنوان : «الأدب والثقافة والديمقراطية»، ورأت اللجنة الدولية المنظمة للمؤتمر أن تكون كلمة الافتتاح للروائي العربي الأكبر الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ.

ولقد قمت بترجمة كلمة محفوظ إلى اللغة الإنجليزية، لكني اعتذرت للأستاذ عن إلقائها بنفسي لانشغالي بارتباطات أخرى تحول دون سفري فتفهم محفوظ ذلك؛ لذا تم إرسال الكلمة للمؤتمر عن طريق السفير الباكستاني بالقاهرة؛ حيث قرأت باسمه في جلسة الافتتاح.

وهذا هو نصها:

السادة الأساتذة الزملاء أدباء العالم ومثقفوه..

أشكركم على دعوتي لتوجيه رسالتي هذه إليكم في هذا المؤتمر الدولي الكبير الذي كنت أتمنى أن أحضره بنفسي كي ألتقي بكم جميعا، لكن ظروفي الصحية وكبر سني حالا دون ذلك فأرجو منكم المعذرة.

سيداتي سادتي..

إن العلاقة بين الأدب والثقافة والديمقراطية هي بلا شك علاقة عضوية كتلك التي تربط بين مختلف أعضاء الجسم في وحدة متكاملة إن مرض فيها عضو أثّر على باقي الأعضاء، ولقد عرف التاريخ الإنساني مراحل سابقة كانت الثقافة والفنون فيها من مميزات صفوة المجتمع أو الطبقات البرجوازية وحدها، والتي كانت هي راعية الفنون وجمهورها في الوقت نفسه، لكن مع عصر الديمقراطيات اتسع نطاق الأنشطة الفنية والأدبية والثقافية لتصبح في متناول الجماهير.

وعلى الجانب الآخر نجد أن الديمقراطية كان لها تأثير على الأدباء والفنانين؛ حيث استفادوا أيما استفادة من الحريات التي تتيحها الديمقراطية.

وبذلك فإن الديمقراطية تكون قد منحت الأدب والثقافة الحرية كما منحتهما الجمهور أيضا، وهذين هما العنصران اللذان بدونهما لا يكون هناك أدب ولا ثقافة.

لكن لكل شيء مزاياه ومساوئه، فالصفوة التي كانت جمهور الفنون والآداب في السابق كانت تتمتع بذوق رفيع، أما الجمهور العريض الذي أتاحته الديمقراطية فهو متنوع المستويات من أعلى درجات الذوق إلى تلك التي يكاد ينعدم فيها الذوق تماما، وعلى الثقافة الآن أن تصل إلى كل هؤلاء، فإن على الكاتب والشاعر والموسيقار والفنان التشكيلي أن يجد لنفسه الطريق الذي يجمع بين مُثله الفنية الرفيعة ومتطلبات متلقيه من الجمهور العريض، فإذا حدث أن غلبت النزعة لإرضاء الذوق المتدني فإن

إنتاجه الفني سيتسم بالسطحية والتجارية بما يجعلنا نترحم على العصور التي كان الشعر فيها يكتب للملوك والأمراء، والموسيقى تؤلف للنبلاء. أما إذا راعى الفنان مُثله الفنية آخذا في الاعتبار طبيعة الجمهور في نفس الوقت، فالنتيجة ستكون عملا فنيا راقيا يرتفع بذوق الجمهور العام إلى أسمى المراتب، وفي الحالتين فإن القرار- بفعل الديمقراطية- هو قرار الفنان نفسه.

على أن الديمقراطية التي جمعت بين الفنان والجماهير العريضة جعلت السلطة السياسية تتوجس من تأثيره على الجماهير بعد أن كانت في الماضي تتحكم فيه.

وهكذا وجدنا الكثير من كتّاب العالم يتعرضون للاضطهاد السياسي والملاحقة والاعتقال والنفي، وهو ما خلق ذلك التناقض غير الطبيعي بين الثقافة والسياسة، بينما من المفترض أن يكون بينهما حوار مستمر مهما كان بينهما من خلاف.

إني أود أن أنتهز فرصة هذا الجمع الموقر من أدباء العالم ومثقفيه لأطالب جميع الحكومات في العالم أن تنظر إلى الديمقراطية باعتبارها كلٌّ لا يتجزأ، فالحريات السياسية والاجتماعية لا تنفصل عن حرية الفكر والتعبير. إن علينا نحن أدباء العالم ومثقفيه ألا نقبل أية إجراءات عقابية توقع على الأدباء والمفكرين والفنانين في أي من دولنا.. دعونا نوجه نداء من هذا المؤتمر الدولي المنعقد في إسلام أباد إلى جميع الحكومات في العالم لإطلاق سراح الكتّاب والمثقفين من أسر السجون أو الإجراءات التعسفية بمختلف أشكالها، دعونا نعتبر أن الاعتداء على أحدنا هو اعتداء

على الكل، فنحن نعيش في عالم أشد ما يكون احتياجا للحرية وروح التسامح.

ومع ذلك فدعونا نعترف بأن اضطهاد المفكرين والأدباء لا يكون دائما بفعل السلطة السياسية وحدها، وإنما بعض الاضطهاد أصبح يمارس الآن من قِبَل جماعات التعصب والفكر المتطرف التي قد تكون في حالة عداء مع السلطة السياسية أيضا؛ مما يجعل الكاتب في بعض الأحيان ضحية التراشق المستمر بين الجانبين.

هل هناك وسيلة للتحاور مع هذه الجماعات، والتي تنتشر في العالم كله، من الأديان الإسلامية والمسيحية واليهودية إلى بعض الجماعات السياسية العنصرية؟ ما هي اللغة المشتركة التي يفهمونها، والتي يمكن أن تحمل رسالتنا إلى عقولهم؟ أهناك من وسيلة تذكرهم بأن الدين لا يتناقض مع الثقافة؟ ألا يدركون أن أحد جوانب الإعجاز في القرآن الكريم هي بلاغته الأدبية؟ ألا ينبهرون بروعة الفنون التي تزخر بها الكنائس المسيحية؟ ألا يتوقفون عند عظمة شاعر باكستان الكبير محمد إقبال الذي تعتبر أشعاره مثالا للتقوى الدينية البعيدة تماما عن التعصب أو العنصرية؟ ألا يتفكرون في حياة القديسين على مر العصور؟

إن الديمقراطية ليست منهاجا نطالب به الحكومات وحدها، وإنما هي روح يجب أن تسري في المجتمع بجميع فئاته.

فلندعو مجتمعاتنا جميعا أن تكسر العوائق التي تحد من انطلاقها، وأن تبسط رؤيتها إلى الأفق الرحيب فتقبل كل العقائد وتتفهم كل الآراء. إن كل اضطهاد يتعرض له أديب أو مثقف يمر دون اعتراض منا، إنما يساعد

على ترسيخ الممارسات القمعية في المجتمع، وهو ما يضع كل العار على ضميرنا نحن كتّاب العالم ومثقفوه، ويزيد من القيود المفروضة على الحرية التي توفرها لنا الديمقراطية. إن مسئوليتنا ككتّاب ومثقفين ليست مسئولية فنية فقط، وإنما هي مسئولية اجتماعية أيضا، إذا أهملناها سندفع الثمن غاليا.

أقول قولي هذا وأنا مدرك أن أفكاري هذه لا تختلف عن أفكار أي من أدباء العالم ومثقفيه المشاركين في هذا المؤتمر، والذين ولا شك سيعملون من أجل تحقيق الآمال المعقودة علينا جميعا في هذه المرحلة من التاريخ.

والشكر كل الشكر لكم.

نجيب محفوظ

في المؤتمر السنوي لاتحاد جامعات البحر المتوسط

«عندنا أقدم الجامعات»

في مقر العمودية بمدينة فالنسيا الإسبانية، والذي يرجع تاريخه إلى بدايات القرن العشرين، لكن طرازه المعماري يحاكي رومانسية القرن التاسع عشر، أقامت ريتا باربيرا نولا عمدة المدينة مأدبة عشاء كبيرة لأعضاء المؤتمر السنوي لاتحاد جامعات البحر المتوسط الذي عقد هذا العام في فالنسيا بمناسبة احتفال جامعة فالنسيا بمرور 500 عام على تأسيسها.. وقد اختارت العمدة أن تكون المأدبة في الساحة الداخلية للقصر، وحين أقول الداخلية فهذا لا يعني أن الساحة هي غرفة مغلقة، فهي في الحقيقة ساحة كبيرة أقيمت على طريقة ما يسمى في المعمار الإسباني الباسيو، وهو باحة داخلية غير مسقفة تحيط بها جوانب القصر الأربعة وكأنها أسوار تحميها من نظر المارة، وإذا جلست في الباسيو فكأنك تجلس في حديقة القصر، لكنها ليست حديقة تحيط بالمبنى كما هو الحال في المعمار الغربي، وإنما هي حديقة يحيط بها المبنى على الطراز المعماري الشرقي الذي عرفته الأندلس وقت الفتح الإسلامي.. في هذه الساحة، التي توسطها تمثال مؤسس جامعة فالنسيا وتلاعبت في السماء الظاهرة فوقها نجيمات تصارعت مع بعض بقايا سحب الشتاء، دار الحديث بين أعضاء المؤتمر

الذين جاءوا من مختلف دول البحر المتوسط عن أديب مصر الأكبر نجيب محفـوظ، فقال البعض: إنـه قرأ له رواية معينة، بينما قال البعض الآخر: إنه قـرأ رواية أخرى. أما عمدة المدينة وهي سـيدة نشـيطة في منتصف العمر، فقالت: إنها قرأت كل روايات محفوظ التي ترجمت إلى الإسبانية.

وكان اتحاد جامعات البحر المتوسـط قد قرر أن يمنح جائزته هذا العام والمعروفة باسـم جائزة البحر المتوسـط إلى أديبنا الأكبر نجيب محفوظ، وهـي جائزة لها ثقلها فـي الحياة الأكاديمية، نالها عـدد كبير من المفكرين والأدباء، وكان أول الحاصلين عليها هو المؤرخ الفرنسـي الأشـهر فرناند بروديل، صاحب المؤلف التاريخي الضخم عن تاريخ البحر المتوسط في القرن السادس عشر؛ أي في عصر النهضة والمعروف باسم البحر الأبيض المتوسط والمجتمع المتوسطي في عصر فيليب الثاني.

ولقد سـعدت بحضور المؤتمر السنوي للاتحاد هذا العام، والذي عقد في فالنسيا؛ حيث شـرفت فيه بتمثيل الأستاذ نجيب محفوظ، فألقيت على المؤتمر كلمته، وتسلمت نيابة عنه جائزة البحر المتوسط.

وقد أكـد أديبنا الأكبر في كلمته التي ألقيت بالجلسـة الافتتاحية، والتي حضرها وزير ثقافة إسـبانيا ولفيف من رجال الجامعات الإسـبانية، إضافة إلـى أعضـاء الاتحاد، أن حوض البحر المتوسـط هو مهـد الحضارات في العالـم، وأنـه إذا كانت جامعة فالنسـيا التي تسـتضيف المؤتمـر في دورته الحاليـة تحتفل هـذا العام بعيدها الـ500، فإن دول البحر المتوسـط تضم فيمـا بينهـا أقدم جامعـات العالـم التي يتعـدى عمر البعض منها ألف سـنة، مـن جامعة الأزهر في مصر إلى جامعة السـوربون في فرنسـا، ومن جامعة

القرويين بالمغرب إلى جامعة بولونيا في إيطاليا، وقال محفوظ: إن بعض المراكز الحضارية حول البحر المتوسط قد شهدت تفاعلا حيويا وصحيا ما بين الحضارات المحيطة بالبحر، ومنها إسبانيا خلال الفتح الإسلامي ومصر خلال فترة التاريخ الجريكوروماني.

وقد أشار الأستاذ نجيب محفوظ في كلمته إلى الزيارة التي قام بها أخيرا رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا أثنار إلى مصر، والتي تفضل خلالها بزيارة أديبنا الكبير بمنزله، وتحدث محفوظ عن ارتباط السياسة بالثقافة، فقال: إن السياسة إذا انبتت الصلة بينها وبين الثقافة صارت بلا قلب ولا روح، كما أن الثقافة بلا وعي سياسي تصبح تدريبا ذهنيا خاويا، ثم قال: لكن السياسة تمضي وتبقى الثقافة، فقد ولّى جبروت الإمبراطوريات التي عرفناها على مدى التاريخ على شواطئنا الشمالية والجنوبية، لكن حضاراتها الثقافية مازالت معنا تثري حياتنا يوما بعد يوم. وذكر أن عصر النهضة بدأ من حوض البحر الأبيض المتوسط بعد ظلام العصور الوسطى، ثم قال: واليوم ونحن في بداية الألفية الثالثة نجد أنفسنا في حاجة إلى حركة تنوير جديدة لمحاربة التعصب الذي يتزايد في مجتمعاتنا المتوسطية، فمشكلة المهاجرين في دول شمال البحر - على سبيل المثال - والتي اتخذت في السنوات الأخيرة أبعادا خطيرة، أصبحت الآن تتطلب تحركا حاسما، كما أن التطرف الذي قُضي عليه في إسبانيا؛ حيث تعقدون مؤتمركم قبل ما يقرب من خمسة قرون، قد عاد يطل بوجهه القبيح في بعض مجتمعاتنا.

وأشار الكاتب الكبير في كلمته إلى الدراسة التي أجراها أحد مراكز البحث في الولايات المتحدة، والتي أشارت إلى أن الخطر الذي سيواجه

العالم في القرن الحالي لن يكون الحرب العالمية الثالثة أو القنبلة النووية، وإنما ما سمته الدراسة الإرهاب الدولي، بمعنى أن العالم سيشهد في المرحلة المقبلة تزايدا للعنف؛ حيث إن مزيدا من الجماعات العرقية أو الدينية أو الحضارية ستلجأ إلى العنف لتسوية نزاعاتها، فما هو العمل؟ وكيف نواجه مثل هذا الخطر؟

لقد أعلن أديبنا الأكبر في كلمته للمؤتمر عن رفضه لمثل هذا الاتجاه قائلا: إنه لا يعقل أن المنطقة التي علّمت العالم أعظم المبادئ وأكثرها سموا، يتدهور بها الحال إلى أن تسوي مشكلاتها عن طريق أكثر الحلول بعدا عن الحضارة والإنسانية وهو العنف، فذلك إنما يهدد بانهيار الصرح الحضاري الذي قامت عليه مجتمعاتنا على مدى التاريخ، ثم أكد محفوظ أن الحل الحقيقي يكمن في التعليم والثقافة، وقال: إنه هنا يأتي دور جامعاتنا في دول البحر المتوسط، ففي تعليم أجيالنا الجديدة وتثقيفها تكون جامعاتنا قد حصنت أبناءنا ضد التعصب والتطرف اللذين يؤديان إلى العنف؛ لأن الثقافة والإرهاب هما بطبيعتهما متضادان.

ثم ركز الأديب الكبير بعد ذلك على بعض الدوافع الأخرى التي تؤدي إلى اللجوء للعنف خاصة على الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط. فقال: إنه في مقدمتها يأتي غياب الديمقراطية الذي كثيرا ما يوجد حالة من الإحباط تؤدي إلى العنف. وهنا أيضا يأتي دور مؤسساتنا التعليمية، فالديمقراطية التي نشأت أول ما نشأت على ضفاف هذا البحر ما هي في الحقيقة إلا تعليم، والشعوب الديمقراطية هي التي تعلمت أول دروس الديمقراطية في مؤسساتها التعليمية من المدرسة إلى الجامعة، وإذا كانت الثقافة لا تنفصل عن السياسة، فإن العملية التعليمية هي عملية متكاملة

تعلـم المعـارف الإنسـانية والعلميـة كمـا تعلـم الديمقراطيـة السياسـية.. وهكذا يتحول مجتمع البحر المتوسـط إلى بحيرة للأمن والسـلام والتقدم والازدهار.

ولقـد لاقت كلمـة نجيب محفـوظ ترحيبا كبيـرا من جانـب الحضور، وأشـار أكثر من متحدث من أعضاء المؤتمر فـي كلمته إلى ما ورد فيها من معانٍ، وقد أخبرني رئيس المؤتمر البرفيسـور لويجـي امبروزي من إيطاليا أن كلمـة الأديب المصري سـيتم طبعهـا لتصبح إحدى الوثائق الأساسـية للاتحاد لما فيها من تأكيد لدور الجامعات في دول البحر المتوسط.

في تقليد نجيب محفوظ وسام الفنون والآداب
كلمة السفير الفرنسي باتريك لوكليرك

ألقى السفير الفرنسي بالقاهرة باتريك لوكليرك كلمة مطولة في مناسبة تقليد أديب العربية الأكبر نجيب محفوظ وسام الفنون والآداب الفرنسي بدرجة «قائد»، وهي من تقاليد منح الوسام؛ حيث ينبغي أن يلقي ممثل الدولة الفرنسية المانحة للوسام كلمة عن المكرم تتضمن حيثيات حصوله على الوسام الرفيع.

ولقد ألقى السفير الفرنسي الكلمة في منزل الأستاذ نجيب محفوظ على النيل بالعجوزة؛ حيث أقيمت مراسم تقليده الوسام، وذلك في خروج غير مسبوق على التقاليد التي تقضي بأن يمنح الوسام على أرض فرنسية، سواء في فرنسا أو في إحدى سفاراتها في الخارج.

وهذا هو نص الكلمة:

الأستاذ الكبير..

إنه من عظيم الشرف أن أقوم اليوم بتقليدكم وسام «قائد» في الفنون والآداب، وهو الوسام الذي منحتكم إياه الحكومة الفرنسية. وإنه ليحدوني شعور بأن هذا الوسام، وإن كان يشرف بلا شك شخصية أدبية كبيرة ومرموقة، إلا أن حصولكم عليه هو أيضا بمثابة تشريف له.

فأنتم بلا شك أيها الأستاذ العزيز تمثلون بالنسبة للفرنسيين المؤلف المصري المعاصر الأكثر قربا من قلوبهم، وفي الغالب أنه حينما يقرءون أعمالكم يأخذهم الفضول للقراءة لمؤلفين مصريين آخرين، فأنتم بالنسبة للفرنسيين رمز للأدب المصري المعاصر ومفتاح لفهمه.

وإن هذه الرؤية بالغة التميز لكم تعكس جسامة المسئولية التي تتحملونها من وجهة نظر المعاصرين. وإنني لست حائزا للألقاب العلمية التي تتيح تحليل أدبكم الذي له خصوصيته وتميزه، كل ما هناك أنني أعبّر عن مشاعر الإعجاب التي يكنها القارئ العادي له.

وأعتقد أنكم، شأن أعظم أدباء عصرنا وأنتم تنتمون إليهم، قد عرفتم كيف تثيرون الاهتمام العالمي من خلال مقدرتكم الفائقة في القص والتعبير عن بيئة محددة تمثلها الأجواء الشعبية وقلب القاهرة، فهؤلاء القاهريون الذين جسدتموهم في شخصياتكم الأدبية في حياتهم وردود أفعالهم ولغتهم، رغم أن هذه الشخوص تعبر عن مكان معين لا ينفصلون عنه ولا يفترقون، إلا أن لهم صدى عميقا عند القارئ في أي مكان في العالم، فتلك هي معجزة الإبداع الأدبي وعبقرية كبار المؤلفين الذين يتمكنون من إيجاد علاقة بين الخاص - أو المحلي - والعالمي، إلى درجة أنه لا يكون من الضروري معرفة القاهرة أو أحياء الجمالية والأزهر والاختلاط بمَن يقيمون في هذه الأحياء؛ لكي يصبح الإنسان منجذبا لهذه الأجواء، وأن يقاسم هذه الشخصيات مشاعرها أيا ما كانوا، سواء في فرنسا أو أمريكا أو أي مكان آخر.

هناك عدة مستويات للأدب: أدب محلي، وأدب يسمى إقليميا، وآخر يمكن أن نصفه بقاري على غرار قوائم الوجبات التي تقدم في سلاسل

الفنادق المنتشرة في كل العالم. ولكن يوجد أيضا أدب يمكنه أن يكون نتاج بيئته، ولكنه في الآن نفسه ليس له حدود، ويمثل نوعا من التراث المشترك للإنسانية. إن أدبكم ينتمي بشكل واضح لهذا النوع من الأدب العظيم. وإن الوسام الذي سوف أقلدكم إياه هو بمثابة تجسيد الإشادة بكم.

هناك أيضا جانب آخر لشخصيتكم يوجب الاحترام والتكريم، وهو قيامكم بدور المحلل للمجتمع وقضاياه؛ مما يجعلكم مفكرا مسموع الرأي؛ إذ إننا نقرأ أسبوعيا عمودكم في الأهرام؛ إذ يظهر من كتابتكم أنكم تمثلون نوعا من السلطة أو المرجعية الأخلاقية يتبدى من خلالها صفاء عميق في التفكير وحكمة تنبع من مصريتكم.

فنظرتكم للأمور تتسم بحسن التقدير والعقل والتعاطف مع البسطاء والبؤساء، وهذا يبدو جليا من خلال إبداعكم الأدبي، ويعتبر ذلك إحدى ملامح القوة الرئيسية في كتابتكم. وما يبرز في كتابتكم في الأهرام بشكل رمزي له علاقة بالمواقف على أرض الواقع؛ إذ يوجد اتصال بين ما تعبرون عنه ككاتب وما تظهره تحليلاتكم الأسبوعية التي تنم عما تكنونه من تسامح ومن ود تجاه البشر.

ومن جوانب الضعف التي تصفونها في شخصياتكم، وأيضا الشرور الموجودة في المجتمع، والتي تتحدثون عنها في مقالاتكم ليست من وجهة نظركم موضوعا للنبذ كما هو الحال في بعض المذاهب الأخلاقية التي تميل إلى الإدانة، بل على العكس من ذلك، فإنكم تتناولون البشر كما هم كما يقول قانون فرنسي من القرن السابق: «البشر كما هم بعضهم بضعفهم وبرغباتهم الجامحة وبتهورهم»، وأن هذا التناول الإنساني يدعو

بلا شك إلى تقييم ما في الطبائع والأقوال والتصرفات؛ مما يمكن أن يشين الآخرين. فهذا التناول الإنساني يتضمن الاعتراف بالخطيئة؛ ويؤدي بأسلوب شبه ضمني إلى إظهار ما في البشر من جوانب خيّرة وشريرة بدون اللجوء إلى صبّ اللعنات أو إطلاق الأحكام القاطعة.

ولكن في عالمنا هذا الذي ينساق بسهولة وراء الرؤى المخلّة في بساطتها، التي تقوم بتقسيم العالم والبشر ثنائية يكون فيها الصديق هو بمثابة الخير أو الأبيض، في حين يكون الخصم بالضرورة الشر. ومما يؤخذ على هذه الرؤى المخلّة في بساطتها أنها لا تأخذ في الاعتبار الفوارق والظلال بين هذين النقيضين القاطعين، وهي تلك المساحات الرمادية التي ينتمي إليها أغلب البشر.

بالنسبة لهذه الرؤى يعتبر تفهم الآخرين والتسامح واحترام الاختلاف في وجهات النظر ليست بالضرورة فضائل، أو أنها هي بمثابة سموم خطيرة. ولقد عانيتم شخصيا مؤخرا من تصرفات متطرفة تنتج عنفا جامحا، ولكن أمكن للجميع أن يستنتجوا من تيار التعاطف العام تجاهكم إلى أي مدى هي معزولة ومحدودة قوى التشدد ورفض الآخر المختلف في بلدكم.

ومع أن هناك جهات أخرى قد كرمتكم ككاتب كبير وشاهد عدل على مجتمعكم، إلا أن هذا التكريم الذي أعطتكم إياه فرنسا له دلالة كما نعلم جميعا، فتوجد شراكة ثقافية عميقة بين الدولتين.

إذا لم يكن لفرنسا أن تزعم لنفسها بهذه الآلاف من السنين التي تستند إليها ثقافة حضارة بلدكم، والتي تترك بصماتها بشكل تلقائي على نظرة المصري للحياة وللآخرين، فإنه يمكن لفرنسا أن تعتبر نفسها بلدا يمثل

بالنسبة لها الفكر والإبداع وأسلوب الحياة قيما عليا، بل وإلى حد ما متعالية ومتجاوزة للواقع اليومي.

وميزة الرجل عندنا كما هو عندكم لا تقاس بمدى قوته ولا بوظيفته ولا بثروته، وإنما بقدرته أن يتجاوز كل ذلك لتكون الأفضلية عنده للعقل والمعرفة، أو ببساطة القدرة على أن يتحمل مسئوليات حياته والصعوبات والاختبارات التي يلاقيها.

بلا شك إن هذا العرض للأمور هو إلى حد ما مثالي، ولكن فيما يبدو أنه كان دائما بمثابة الفكرة الرئيسية التي ألهمت كتابتكم، والتي تفسر النجاح الذي لاقته هذه الكتابات في بلدي، وهذا التقدير الرفيع الذي نكنه لكم.

الأستاذ الكبير..

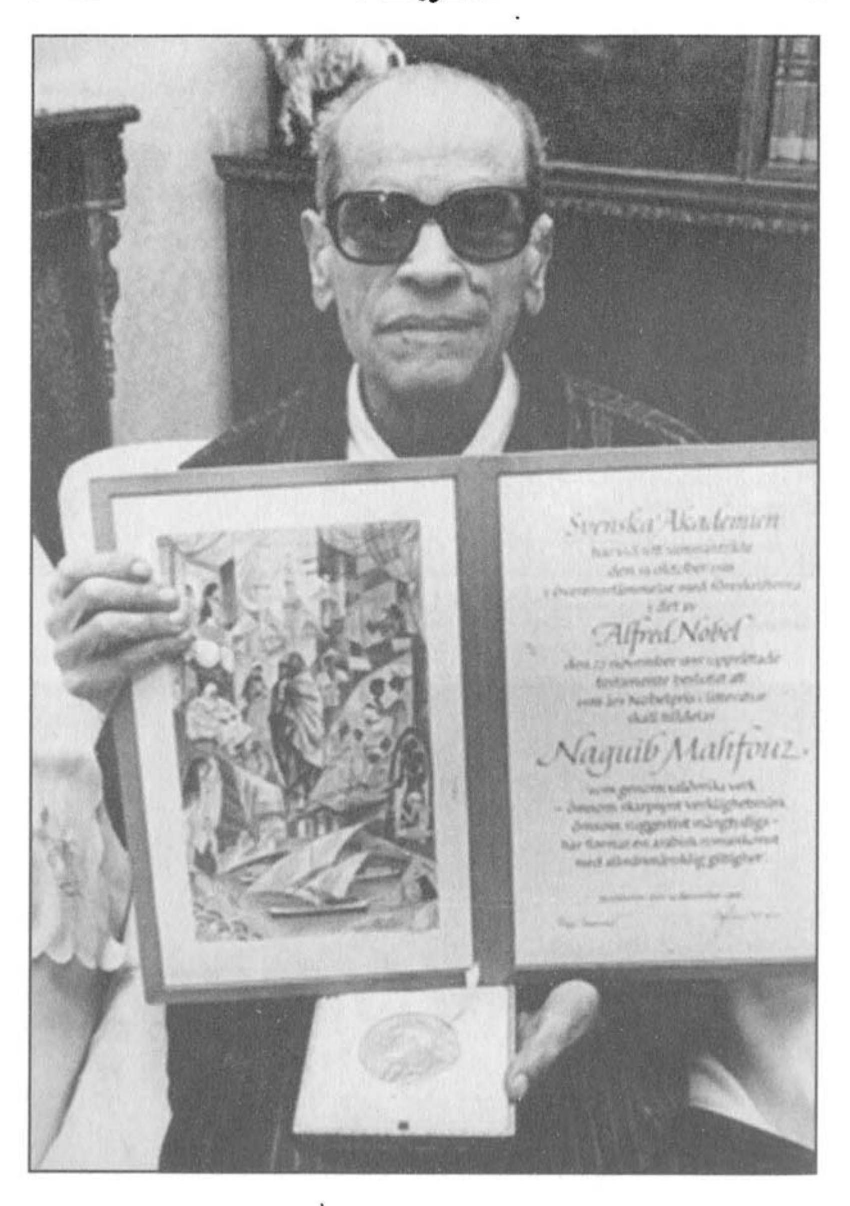
إنني لا أريد أن أطيل في كل هذه التعليقات التي بدون شك لست الأفضل في القيام بها، إلا أنها ساعدتني أن أتبين ما الذي يجعل من نجيب محفوظ كاتبا عالميا حاصلا على جائزة نوبل في الأدب، ومرجعية أخلاقية أعمالها الأدبية العميقة في مصريتها، بمثابة شهادة على الأحداث ذات صدى عالمي.

ولكنه لشرف كبير بالنسبة لي اليوم أن أشغل وظيفتي تلك كممثل لفرنسا في هذا البلد، طالما أن هذه الوظيفة قد سمحت لي أن أقترح على السلطات الفرنسية منحكم هذا الوسام الرفيع الذي سوف يكون لي شرف تقليده لكم الآن.

***

الباب الرابع

صـــور لـــه



محفوظ يحمل شهادة نوبل والميدالية الذهبية

سيداتي . سادتي

في البدء أشكر الأكاديمية السويدية ولجنة نوبل التابعة لها
على التفاتها الكريم لاجتهادي المثابر الطويل وأرجو
أن تتقبلوا بسعة صدر حديثي إليكم بلغة غير
معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هي الفائز الحقيقي بالجائزة،
فمن الواجب أن تسبح أنغامها في واحتكم الحضارية لأول مرة.
وإني كبير الأمل ألا تكون المرة الأخيرة وأن يسعد الأدباء
من قومي بالجلوس بكل جدارة بين أدبائكم العالميين الذين نشروا
أريج البهجة والحكمة في دنيانا المليئة بالشجن...

سادتي

أخبرني مندوب جريدة أجنبية في القاهرة بأن لحظة إعلان اسمي
مقرونا بالجائزة ساد الصمت وتساءل كثيرون عمن أكون. فاسمحوا
لي أن أقدم لكم نفسي بالموضوعية التي تتيحها الطبيعة البشرية.
أنا ابن حضارتين تزوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا.
أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونية، وثانيتهما
عمرها ألف وأربعمائة سنة وهي الحضارة الإسلامية. ولعلي لست
في حاجة إلى تعريف بأي من الحضارتين لأحد منكم وأنتم من

الصفحة الأولى من كلمة محفوظ بخط يده ويظهر بها التعديل الذي أدخلته عليها بخط يدي في الأسطر الثلاث الأولى



محمد سلماوي يلقي كلمة محفوظ في الأكاديمية السويدية بستوكهولم



ستوري آلين يصافح محمد سلماوي بعد إلقاء الكلمة



ملك وملكة السويد يستقبلان سلماوي وحرمه وابنتي محفوظ والسفير المصري وحرمه



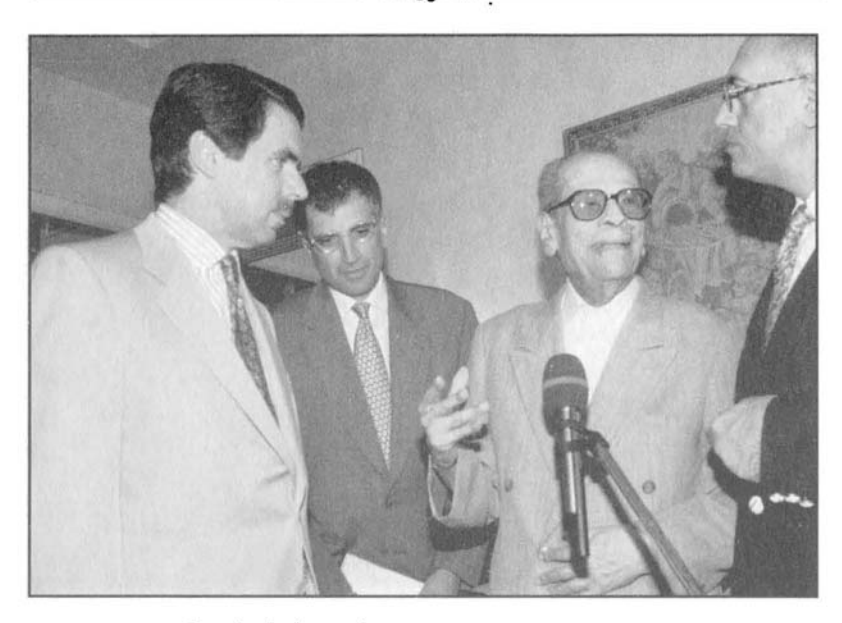
نادين جورديمر في زيارتها لمحفوظ



باولو كويللو يمسك يد محفوظ التي قبّلها



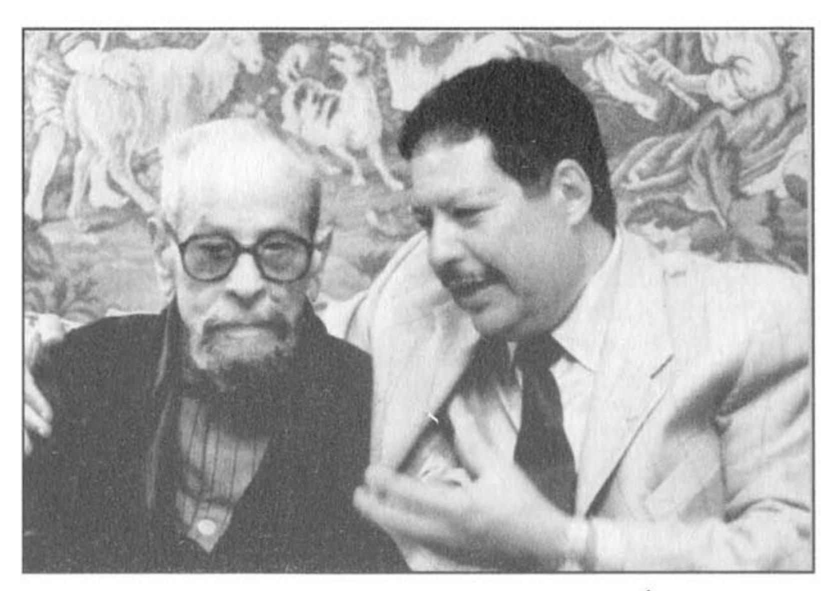
محفوظ ينحني في توديع كويللو



رئيس وزراء إسبانيا يزور محفوظ بمنزله ليقلده الوسام



وفد إيطالي يسلم محفوظ وسام البحر الأبيض المتوسط



أحمد زويل يهنئ محفوظ بعيد ميلاده الـ 90



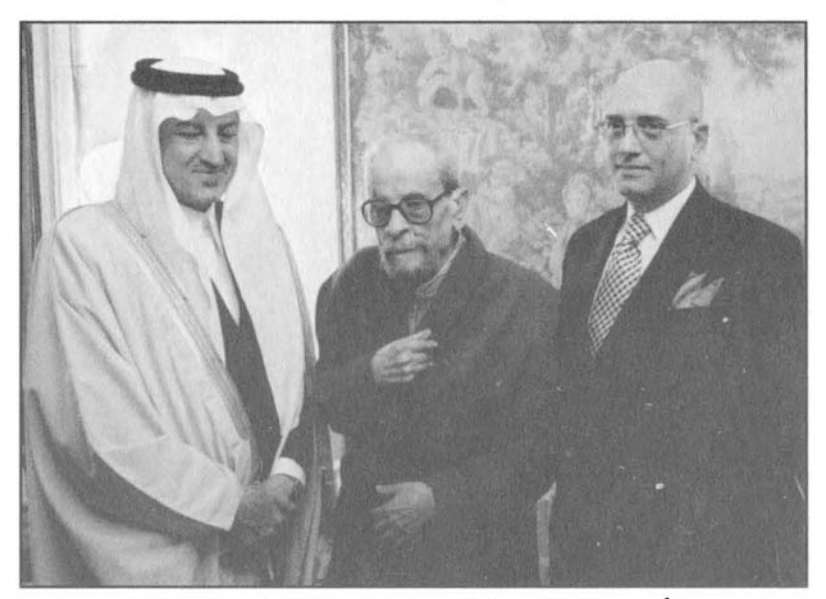
زويل في زيارة سابقة



السفير الفرنسي بعد أن قلد محفوظ الوسام الذي أنشأه نابليون



ماري أليس زوجة السفير الفرنسي تضع له الشارة في عروة الجاكيت



الأمير خالد الفيصل في زيارة لمحفوظ ليعرض عليه
فكرة إنشاء مؤسسة الفكر العربي



مع الكاتب والشاعر الأمريكي لابان كاريك هيل



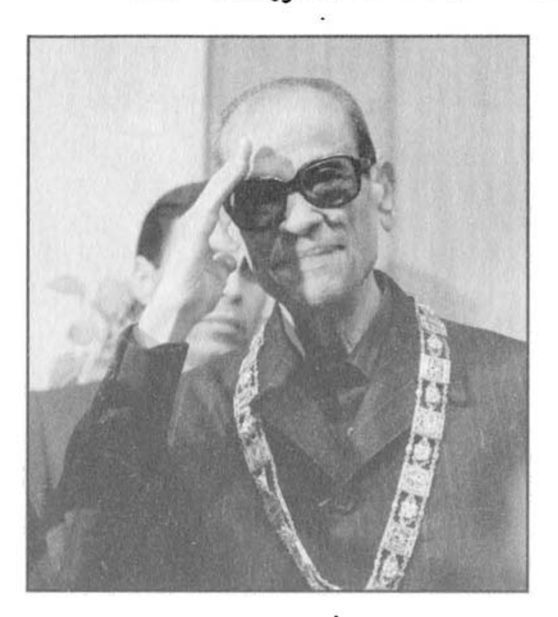
محمد سلماوي يطلع محفوظ على الطبعة الفاخرة من كتاب «ليالي ألف ليلة»



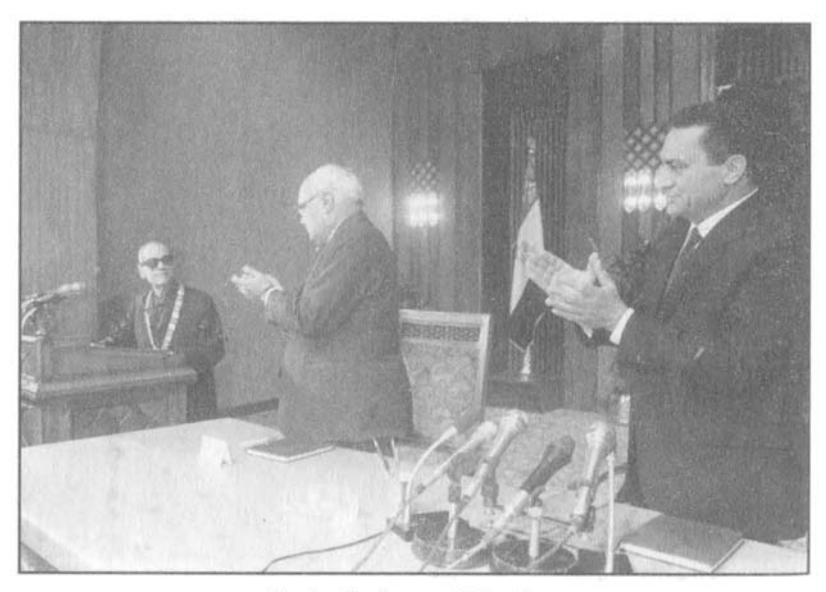
أول عيد ميلاد يقام لمحفوظ لبلوغه الخمسين، أقامه «الأهرام» بحضور: هيكل وتوفيق الحكيم ود. حسين فوزي وأم كلثوم



آخر عيد ميلاد له (94 سنة) مع أصدقائه في «فرح بوت»



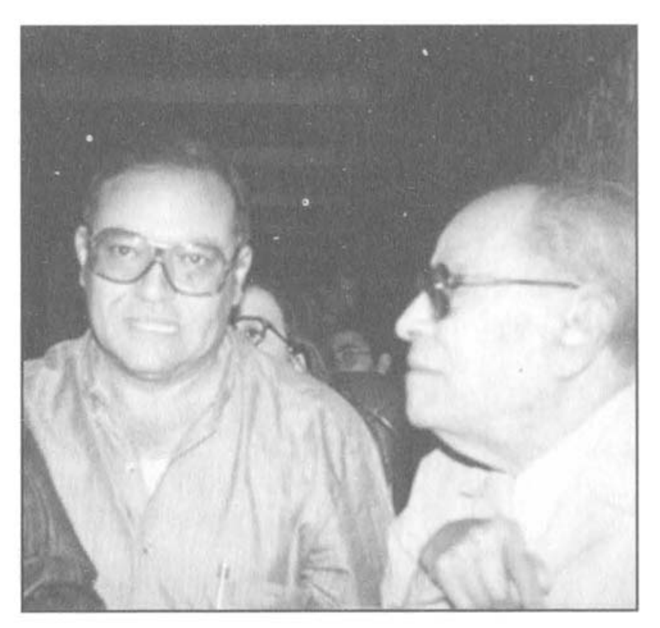
محفوظ يحيّي الحضور بعد أن تقلد قلادة النيل من رئيس الجمهورية



ويلقي كلمته بهذه المناسبة



محفوظ يتسلم الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة

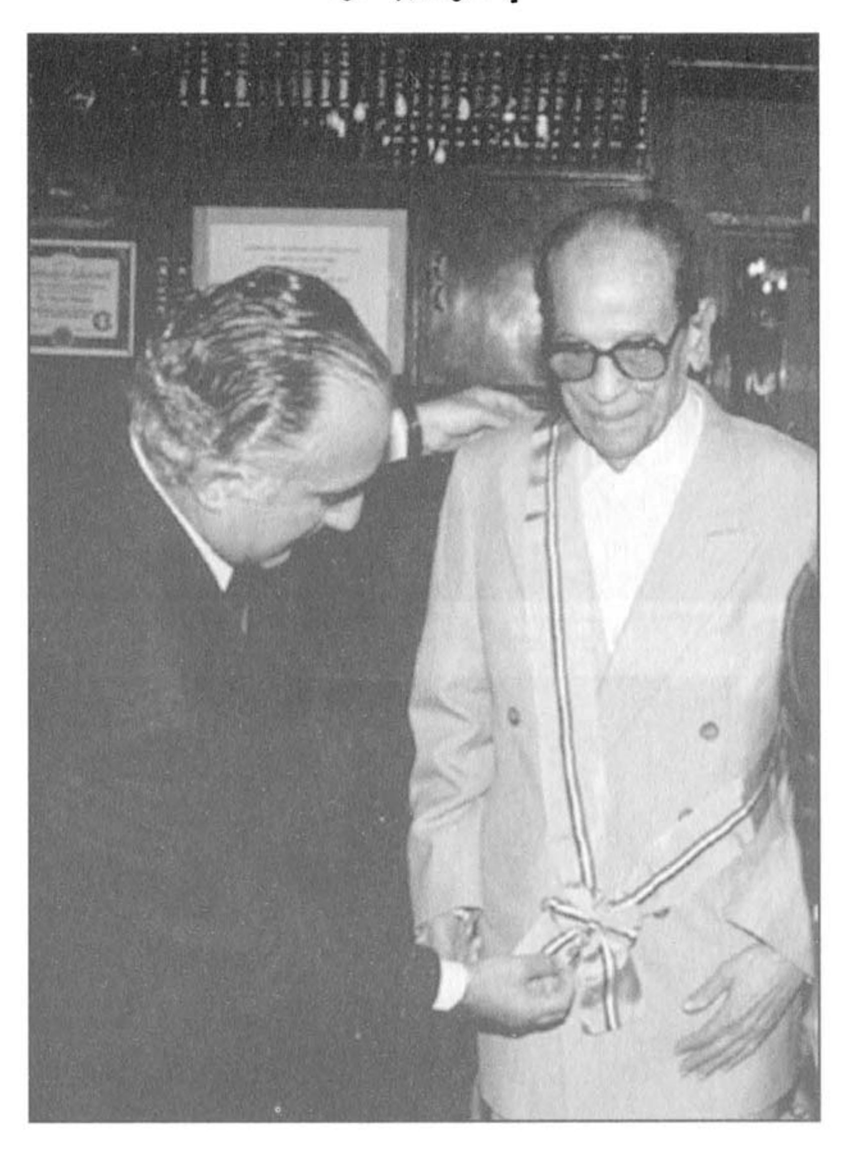


مع صديقه الدكتور فتحي هاشم الذي أنقذ حياته

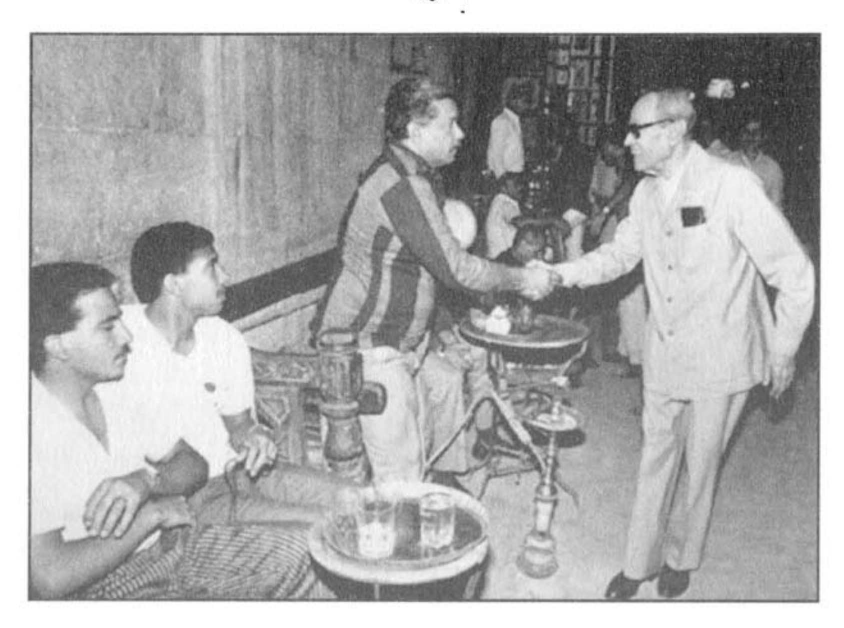


محفوظ يتسلم هدية من البابا شنودة

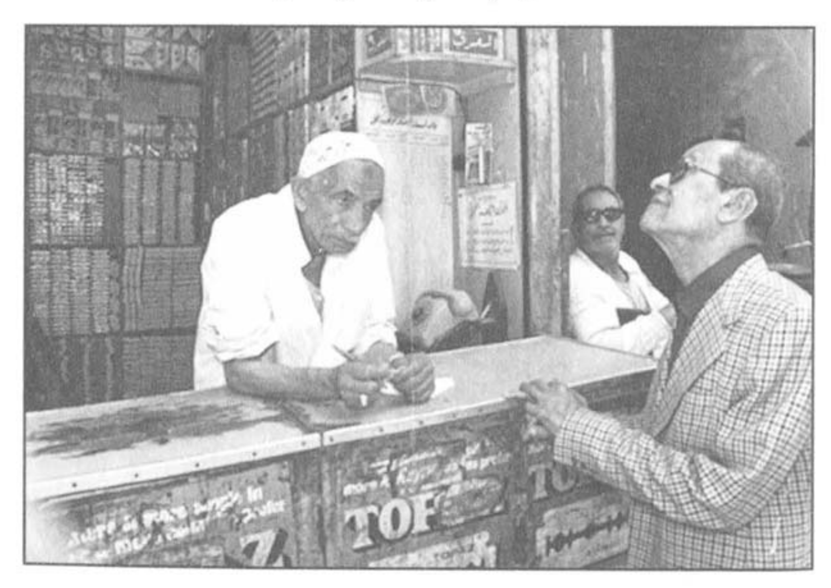
السفير الفلسطيني محمد صبيح يسلمه خطابا شخصيا من ياسر عرفات



محفوظ يتقلد وسام أمريكا اللاتينية في الآداب والفنون



أديب نوبل في الحي الشعبي الذي عشقه



***

مواقف

كاتبنا محمد سلماوي يرى أن نجيب محفوظ مثل حديقة جميلة متنوعة الأشجار والأزهار وأنه يجب أن يجمع من حين إلى حين ثمارها الناضجة وأن يقدمها للقراء دليلاً على أن نجيب محفوظ إن لم يكتب فهو يقول، وإذا كان أحد لا يراه ولا يسمعه، فقد اختار محمد سلماوي أن يجعل نجيب محفوظ معايشًا لقرائه، حاضرًا بالرأي في كل قضايانا اليومية، وحضوره هو خلاصة الحكمة وبُعد النظر..

ولم يحدث إلا نادرًا في تاريخ الأدب أن حرص كاتب كبير على أن يلاحق كاتبًا عظيمًا.. وبذلك يمد في عمره الأدبي والفكري.. ربما كان الأديب الألماني يوهان أكرمان أحسن نموذج لذلك، فنقطة التحول في حياة الأديب أكرمان كانت عندما التقى بالشاعر العظيم جيته وساعده على إعادة نشر كتبه، وقد تفانى في ذلك وانتهى إعجابه بالشاعر العظيم إلى الحب العميق.. ثم كانت التحفة الأدبية التي كتبها أكرمان بعنوان "حوارات مع جيته في سنواته الأخيرة".

ولم نعرف لا قبل أكرمان ولا بعده أديبًا أخلص لأديب آخر مثل هذا الذي يفعله يومًا بعد يوم بإصرار وباستمرار وبعشق محمد سلماوي.

أنيس منصور

تصميم الغلاف: حسين جبيل




9 789774 277184